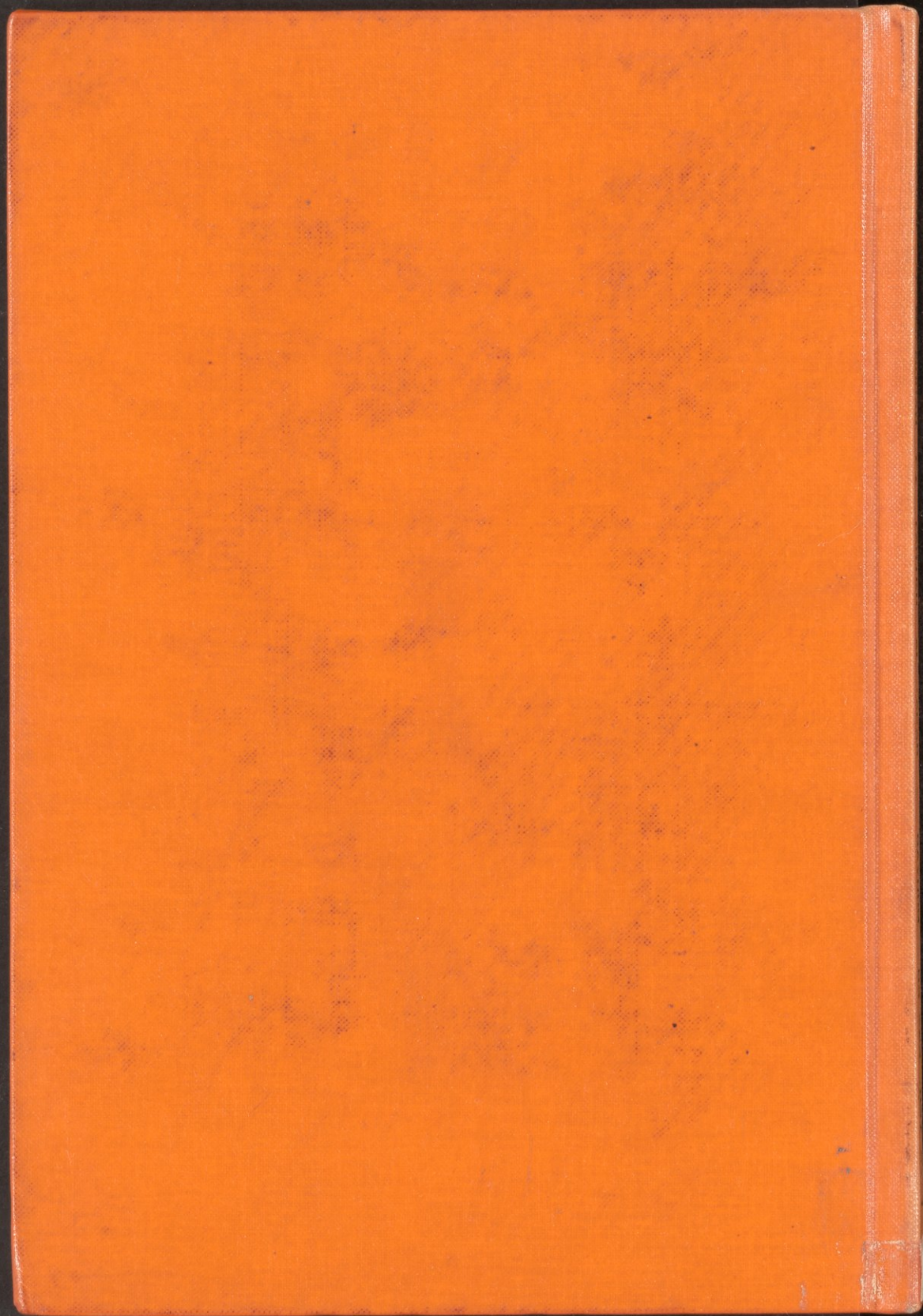
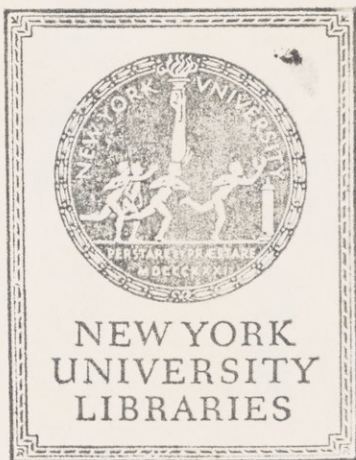




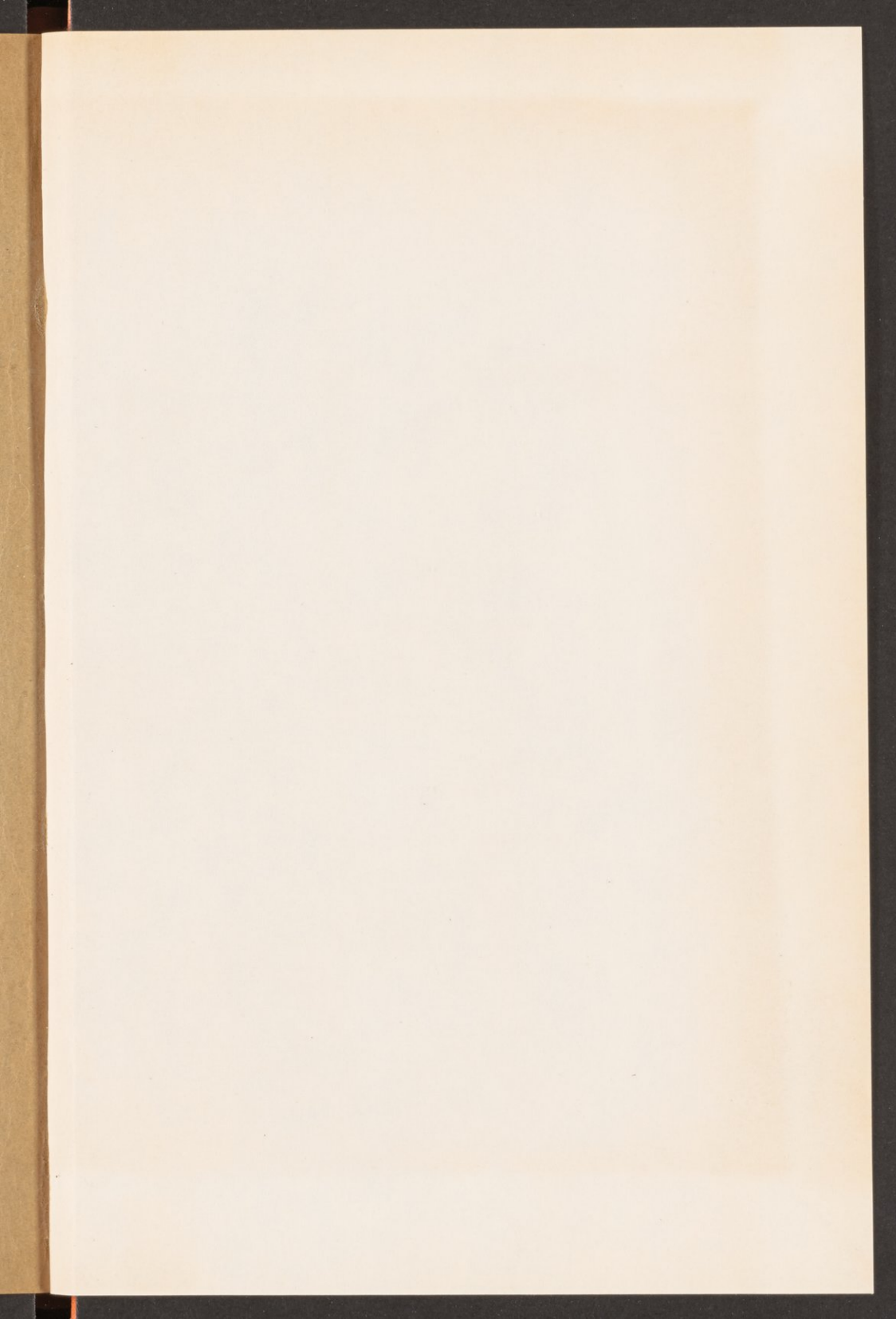
BOBST LIBRARY



3 1142 02824 5150



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



الحلقة المفقودة في تاريخ العرب

« كتاب يتناول أبناء العالم العربي بالمعرق والمغرب ،
 في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من سقوط
 بغداد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .
 وهو تاريخ عام للأمة العربية خلال العهد المعروف
 بالعهد العثماني » .

بقلم
 محمد جميل نسيم

الحلقة المفقودة في تاريخ العرب

« كتاب يتناول أنباء العالم العربي بالشرق والغرب ،
في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من سقوط
بغداد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .
وهو تاريخ عام للأمة العربية خلال العهد المعروف
بالعهد العثماني »

/al-Halaaq al-mafqudah fī
tārikh al-'Arab/ بقلم

محمد جميل بنهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م

جميع الحقوق محفوظة للناس

Near East

DS

223

.B37

c.1

تحية الكتاب

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ

محمود نجور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

عرفت الثقافة العربية القديمة للتاريخ حقها ، ورعت جانبه ؛ فإن ركن التاريخ في مكتبة العرب حافل بروائع الآثار ، وما من عصر من عصور الأمم العربية إلا تمتحض عن كتب تاريخية ، تجمع بين التعدد والتنوع ، جرت بها أقلام الأعلام من العلماء والأدباء .

غير أن هذه الكتب التي يخطئها العد ، ولا يستطيع أن يستوعبها الفرد ، تتجلى فيها خصلتان على وجه عام ؛ أولاهما : أنها تغني أكبر ما تغني بأحداث الحرب والسياسة ؛ والآخرى : أنها تلتزم في غالب أمرها خطة السرد والإخبار . والخصلة الأولى تجعل هذه الكتب جانبا واحدا من التاريخ ، لا التاريخ كله ؛ وأما الخصلة الأخرى فإنها تحيل هذه الكتب مادة للتاريخ ، لا كتباً في جوهره الخالص ، وفنه الرفيع .

وإذن فقد ظلت المكتبة العربية مفتقرة إلى مؤلفات في التاريخ العربي ، تعرض حضارته وما اعتورها من عوامل التقدم والتخلف ، وتسجل أحوال شعوبه العلية والاقتصادية والاجتماعية ، غير مقصورة على تواريخ

الملوك والدول ؛ على أن يكون ذلك العرض والتسجيل جاريا على المناهج المقررة فى الدراسة والبحث ، وفى استبطان الأسباب والعلل ، وفى إحسان الموازنة والاستخلاص ، حتى تستبين التيارات التى تعمل ظاهرة أو خفية فى مجرى التاريخ ، فتعلو بها الأمم أو تهبط ، وتسعد أو تشقى .

وفى هذا العهد الذى هو خلق بأن يسمى عهد الانبعاث لتجديد العلوم والفنون والآداب فى الشرق كله ، كان لزاما أن يسد ذلك النقص فى فن التاريخ العربى ، حتى يأخذ حظه من ذلك التجديد الذى تسامت إليه الهمم ، وتوجهت نحوه الآمال .

وبين الطليعة من حملوا لواء التجديد فى كتابة التاريخ ، صديقنا الأستاذ الجليل « محمد جميل بهم » ، فقد وهب لهذا الفن مواهبه ، وقصر عليه جهده ، وذلك هو يزود المكتبة العربية فى نحو ثلاثين سنة — على ما أعلم — أشتاتا من المؤلفات فى جوانب التاريخ العربى والإسلامى ، تعد فى جملتها مثلا رائعا من أمثلة الجهاد فى سبيل الانتقال بذلك التاريخ من مرحلة السرد والإخبار ، والاقتصار على شئون الملوك والدول ومشهور الشخصيات ، والدخول به فى مرحلة جديدة ، من تصوير الحياة على اختلاف ألوانها ومناحيها فى عصور العروبة والإسلام ، وذلك على نحو من استيفاء التحليل والتعليل ، والربط بين النتائج والمقدمات .

ولا ريب أن هذا المؤرخ المجدد خلق بما نال من مكانة علمية كريمة ، فهو أحد أولئك القليلين الذين تعشقوا العلم ، وأخلصوا له الحب ، وأوجبوا على أنفسهم التخصص ، وصبروا على التقصى والمثابرة فى غير ملالة ولا نكوص ، وذلك كله إلى جانب ما فطر عليه من قدرة على التمييز والتمحيص ، ومن ألمعية فى تفهم التاريخ ، واستكناه بواطنه .

إنك لتقرأ ما يكتب من مؤلفاته التاريخية ، فيتوضح لك ما حرث من مختلف المراجع والأصول ، وما عانى من جهد في البحث والاستقصاء ، ولكنك تراه وقد عدل بك عن المادة السطحية للتاريخ ، وتغلغل بك في الأعماق ، يستشف لك ما وراء الظواهر ، فإذا أنت واقف على حقائق ونتائج لم يكن أمرها بالهين الميسور .

ولعل لا أغمطه حقه إذا قلت إنه يجمع في إهابه بين « الطبرى » و « ابن خلدون » . . . ففي مؤلفاته التاريخية مزاج من ثقة الراوى الأمين ، ونظرة الناقد البصير .

وإن مؤرخنا المجدد ليمتاز بخير ما يتحلى به الكتاتيون في التاريخ ، ذلك هو الاتزان . فأنت ترى في عامة كتبه رصانة في التدوين ، فلا جموح في الحكم ، ولا ركود في العرض ، ولكن دقة فيما يبسط من المعلومات ، واعتدال فيما ينتهى إليه من الآراء .

وهذا الاتزان الذى يمتاز به كتبه ، يجلو لك شخصيته إن كنت لم تأنس بمجلسه ؛ فهو رجل يكسوه وقار العلماء ، ويسوده هدوء الطبع ، وينم حديثه عن سماحة نفسية أصيلة .

وبين يدي القارىء كتابه الجديد « الحلقة المفقودة في تاريخ العرب » ، يواصل به تاريخ الأمة العربية الذى بدأه فى كتابه « قوافل العروبة ومواكبها » . وفى هذا الكتاب الجديد تلتقى خصائص مؤلفه فى تدوين التاريخ ، فهذه الحلقة المفقودة حسبها من ضمان التقدير أنها حلقة من تلك السلسلة الذهبية التى يسيدها الأستاذ « محمد جميل بيهم » إلى المكتبة العربية ، لتخلد معها ما خلدت على الزمان .

دياجة الكتاب

لما أكتب على تأليف كتابي « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » لإصدار سفر جامع يصح أن يكون تاريخ أمة في مشرقها ومغربها ، في ماضيها وحاضرها ، لاحظت أن هناك حلقة مفقودة في سلسلة تاريخنا القومي ، لم يوفها حقها أى مؤلف ؛ ذلك لأن ما بين أيدينا من كتب التاريخ الخاصة بالعرب ، إما أن تقف عند سقوط بغداد وظهور السلطنة العثمانية ، أو تتعدى بسرعة معظم الأجيال التي تلتها ، لمعالجة موضوع النهضة العربية الحديثة .

أما فيما بين هاتين المديتين ، فإن أحدا من المؤلفين لم يُعْن - على ما أعلم - بوضع تاريخ عام شامل للأمة العربية ، يتناول هذه الأجيال كاملة ، في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

نعم ، إن بعض المؤلفين قد تعرضوا للموضوع ، ولكنهم مع ذلك لم يملئوا الفراغ ، لأن كتبهم كانت إما إقليمية ، تحصر البحث في قطر من الأقطار العربية ؛ وإما زمنية ، تنقيد بعصر من العصور . على أنها كانت مع ذلك إذا تكلمت على السياسة أهملت الشؤون الاجتماعية والاقتصادية ، وإن أملت بالاقتصاديات أو الاجتماعيات أغفلت بحث السياسة .

لذلك وجدت الحاجة ماسة لصياغة الحلقة المفقودة ، التي تبتدىء من آخر القرن الثالث عشر ، وتنتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وخصوصا أن هذا العهد المعروف بالعهد العثماني ، يمثل تاريخ العرب في التمدن الحديث ؛ كما أنه بالنسبة لأمتنا بمثابة فترة انتقال ، ودعت في مبدئها حضارتها الزاهرة ، واستقبلت في منتهائها التمدن العالمى الحاضر .

هذا ، ولما لم أجد في كتابي «قوافل العروبة» متسعا لتوفية هذا البحث
حقه ، تجاوزت هذه الأمنية وأنا آسف ؛ ثم لم ألبث أن عقدت النية على
ملء هذا الفراغ ، شاعرا بجوافز تدفعني إلى الإقدام . ولعل إلمامي بالتاريخ
العثماني وفلسفته ، هو الذي شجعتني على ذلك ، لأن تاريخ العرب خلال هذه
القرون لم يكن مرتبطا بتاريخ آل عثمان فحسب ، بل كان متشابكا
بتاريخهم ، بحيث يصعب على المؤرخ أن يجيد في تدوين أخبار العرب خلال
تلك الحقبة ، إذا لم يكن مزودا معرفة تاريخ الإمبراطورية العثمانية .

شعبا الله فيهما لعنته وقبح حالهما، وبالله فيهما لعن الله، الله
راية قتيلا تلعنه نأ شعبا المدة، ^{دنيا وجه السحاب} سفسا لآل عينه لا الله تن ولجة، مقص
في الثالوث للآل لعنه، والله بما أنكر من عصف من الراجد، وقول لآل الله لعنه
منه والله ببعثنا في الآل أن نكافى به من عصف من الراجد، مقص
للعنة من الآل، بسطة رايه نأ في آل العباد، رايه في آل
بالله ببعثنا في الآل، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص
في الثالوث في عصف الراجد، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص
في الثالوث في عصف الراجد، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص

للعنة من الآل، بسطة رايه نأ في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص
في الثالوث في عصف الراجد، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص
في الثالوث في عصف الراجد، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص
في الثالوث في عصف الراجد، رايه في آل العباد، رايه في آل العباد، مقص

نعم، وإن بعض المؤلفين قد عرضوا الموضوع دونكم مع ذلك لم
يملوا الفراغ، لأن كتبهم كانت إما إقليمية، تنحصر البحث في قطر من
الأقطار العربية، وإما زمنية، تنقيد بعض من العصور، على أنها كانت مع
ذلك إذا تكلمت على السياسة أغفلت الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، وإن
أملت بالاقتصاديات أو الاجتماعية أغفلت تحت السياسة.
لذلك وجدت الحاجة ماسة لصياغة الحلقة المفقودة، التي تهدي من
آخر القرن الثالث عشر، وتنتهي بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وبحسبنا
أن هذا العهد المبروف بالهدوء العيان، يمثل تاريخ العرب في القرن الحديث،
كما أنه بالنسبة لامتنا بمثابة فترة انتقال، ودعت في مبتدئها حصارها الزاهر،
واستقبلت في منتهيها القرن العالمي الحاضر.

تمهيد

في ذلك العام التاريخي (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) الذي سقطت فيه قاعدة ملك العباسيين بأيدي المغول ، وقتل خليفتها وأهلها ، وفتك هلاكو بسكانها ، حتى كان عدد القتلى يتراوح بين مليون ومليونين ، على روايات المؤرخين ، وألقى هذا الطاغية كتبها في نهر دجلة ، وكانت لا تحصى ولا تقدر بشمن ؛ في ذلك العام الذي عاصر احتضار التمدن العربي - ولد في مدينة إسكود بآسيا الصغرى ، للأمير أرطغرل عامل السلطنة السلجوقية بقونية ، ولد أسماه عثمان ، قدر له أن يكون مؤسس سلطنة عظيمة الشأن ، تحمل اسمه ، وأعنى بها دولة آل عثمان .

سقطت دار السلام ، وما سقطت في الواقع هذه البلدة وحدها ، وإنما هوت معها الأمة العربية قاطبة ، ولم يبق لها في الحكم أثر إلا ما كان من إمارات في الجزيرة وغيرها محدودة النفوذ ، وعلى رأسها الدولة الرسولية باليمن (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) ، والدولة النصرية بغرناطة (٦٢٩ - ٨٩٧ هـ) ، وكانت يتيمة وحيدة بالأندلس ، تعاني آلام الاحتضار .

أما الخلافة العربية ، التي انتقلت بعد سقوط بغداد إلى القاهرة ، فقد أصبحت بمصر ضيفا على ملوك الأعاجم ، ولا شأن لها إلا ما كان من قبيل المكانة الروحية ، وكان الخلفاء العباسيون بالعراق قد احتفظوا حتى في عهد تقلص سلطتهم ، واقتصارها على بغداد وما حولها ، بنفوذ الخلافة العظيم على السلاطين المتغلبين ، وعلى جميع العالم الإسلامي .

ولقد تعرض ابن خلدون بعد مضي قرن ونصف قرن على سقوط دار السلام ، لوصف حال العرب . قال : « ولما ذهب أمر الخلافة منهم ، واعي رسمها ، انقطع الأمر جملة من أيديهم ، وغلب عليهم العجم دونهم ،

وأقاموا بادية في قفارهم ، لا يعرفون الملك ولا سياسته ، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم^(١) .

ونحن لا نجارى صاحب المقدمة في هذه المبالغة ، ولكننا لا نستطيع أن نشكر مع ذلك ما قاله في حدود انقطاع الأمر جملة من أيدي قومنا العرب ، وغلبة العجم دونهم في المغرب والمشرق .

ففي شمالي إفريقيا قام المماليك البحرية بمصر (٦٤٨ — ٧٩٢ هـ) ، وخلفهم عليها المماليك الجراكسة ، وألحقوا بها الشام وكيلىكيا ، وقام بنو زيان بليبيا (٦٣٣ — ٧٩٦ هـ) وبنو حفص بتونس (٦٢٥ — ٩٤١ هـ) ، وبنو مرين بمراكش (٥٩١ — ٩٧٥ هـ) ، أزمان كانت الجزائر موزعة بين أصحاب الإقطاعات ، آل مزني في بسكرة ، وابن عمرو في بجاية ، وآل عبد الواد في نجد تلمسان ، وفرع من بني حفص في قسطنطينية ، وكلهم من البربر .

ولولا انصراف دولة البرتغال عن الفتح إلى جوب البحار ، في سبيل الاتجار ، لأصبحت بلاد المغربين فريسة لها ولأسبانيا ، ومع ذلك فقد احتلت الدولتان وقتئذ طنجة وسبتة وأرزيلة ، ووضعوا يدهم بذلك على مجاز جبل طارق ، ففصلوا بين دولة بني الأحمر بالأندلس وبين أخواتها في عدوة المغرب ، حتى قضوا عليها أواخر القرن الخامس عشر .

وأما في الشرقين الأوسط والأدنى ، فقد قام على أنقاض السلطنة السلجوقية التركية أتابكتها وعمالها ، وأنشأ هؤلاء حكومات لم يكن لأكثرها عمر طويل ، ولا أمر نافذ . ثم أعاد المغول الكرة على البلاد العربية بعد قرابة نصف جيل من سقوط بغداد ، وكان هدفهم في هذه المرة غير هدفهم في عهد هلاكو ، حينما حمل على المسلمين متآمرا مع الصليبيين ؛ كان الداعي لجملة المغول الأخيرة أن الخان غازان بن أرغو ، شاء بعد إسلامه ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة : فصل في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك .

أن يبسط سلطانه على إخوانه في الدين بالشرق الأدنى ، ولكنه إذ تهب
ممالك مصر ، تحول عنهم إلى الأناضول ، وقضى على سلطنة قونية السلجوقية ،
(٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) .

ويبدو هذا الحادث لأول وهلة ، كأنه حادث هين ، والواقع أنه
كان من الأحداث العظيمة في التاريخ ، لأنه فسح المجال لقيام إمبراطورية
جديدة ، أعنى سلطنة آل عثمان ، التي تحكمت في مجرى التاريخ مدة من
الزمن ، في القارات الثلاث على السواء : آسيا وأوربة وإفريقية .

فقد كان عثمان شاه جد هذه الأسرة عاملا على مقاطعة أناطولية
لدولة قونية ، فما إن قضى المغول على هذه الدولة حتى أعلن استقلاله ،
تاركا لأبنائه تحقيق أمانيه وآماله ، فأتيح لهم ما لم يخطر في باله ، عبور
البوسفور والانتصار على جيوش أوربة المتحدة ، وفتح القسطنطينية
(٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م) ، واستئصال شأفة الإمبراطورية البيزنطية ، التي
كانت قد قامت في وجه العرب طويلا ؛ كما تسنى لهم التقدم المطرد
في أوربة ، حتى حاصروا « وينة » قاعدة النمسا ثلاث مرات .

وهم إلى ذلك قد بسطوا سلطانهم على الشرق الإسلامي ، فدخل العرب
جميعهم في حكمهم ، سواء أكانوا بالمشرق أم بالمغرب ؛ وظلّ بعض
أمصارهم عدة قرون تحت سلطتهم حتى حين قريب ، إلى معاهدة موندروى
(١٩١٨) ، التي أوجبت على آل عثمان الاعتراف بالجلاء عن جميع الأقطار
العربية .

وإذا كان ذلك العام الذي قامت فيه السلطنة العثمانية يعتبر عام شؤم
في نظر بعض قومنا ، لأن هؤلاء الترك دفنوا البقية الباقية من حضارتنا ،

ووطدوا أركان سلطنتهم على هاماتنا بالقوة والعنف ، فهو في نظر بعض أصحاب الفكرة المالية عام خير وبركة ؛ ذلك أن المسلمين الذين كانوا قد أمسوا عرضة لغزاة الغرب والشرق ، وهدفا لظلمهم ، وجدوا في آل عثمان المنقذ المخلص ، وخصوصا أن هؤلاء الترك تناولوا الراية من العرب عقب سقوطها ، ورفعوها عالية خفاقة ، فأعادوا إلى الأذهان ذكرى الفاتحين الأوائل ، وأعادوا مع هذه الذكريات عز الإسلام وأجماده .

وإنه لمن دواعي سرورنا أن نحاول بهذا الكتاب رفع الستار عن تاريخ أمتنا العزيزة ، في هذا العهد الطويل ، ونرجو أن نكون من الموفقين .

عاليك نصر الجراكسة لا يشاطرون آل عثمان شعورهم، ويحفظون عديدهم
فما ان تم الانتصار لسلطان آل الجوس المصدق حتى يادر الخليفة العباسي

في القاهرة يتردد ويقترب قلبه لسلطان اقليم الروم
لكن سرعان ما يتغير موقفه فالتفات اليه فريشيل بن جديون ابو عثمان واليه

في ١٠٤٥هـ تمكن من اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

سيف عتق ما بين يديه من الجراكسة فالتفت اليه فريشيل بن جديون
فما ان تم الانتصار لسلطان آل الجوس المصدق حتى يادر الخليفة العباسي

الفصل الأول

تاريخ العالم العربي السياسي في الشرق

لهذا الكتاب كتاب في تاريخ العرب السياسي في الشرق
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

في ١٠٤٥هـ تمكن من اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

في ١٠٤٥هـ تمكن من اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

في ١٠٤٥هـ تمكن من اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

في ١٠٤٥هـ تمكن من اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون
في ١٠٤٥هـ لم ينجح في اخراج اخيه من بيت المقدس فالتفت اليه فريشيل بن جديون

مقدمة

كيف تغلب آل عثمان على الأمصار العربية في الشرق ؟

اعتبر المؤرخون سقوط القسطنطينية في حوزة آل عثمان سنة ١٤٥٣ م بداية عهد التمدن الحديث . وقد دخل هذا العهد في حين التاريخ ، حين لم يكن باقيا للعرب أى استقلال سياسى ، اللهم إلا في جزيرتهم وعند سيف البحر في إسبانيا ، وفي بعض أنحاء إفريقية . وأما سائر الأمصار التي كانت لهم في الشرق والغرب فقد استحالَت إلى ديار للأعاجم : اللاتين في إسبانيا، والبربر في إفريقية ، والمغول والتürk في آسيا الصغرى .

كانت دولة المماليك البحرية قد قامت في مصر والشام على أنقاض السلطنة الأيوبية (٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م) ، وتمكنت لأسباب فصلناها في كتابنا فلسفة التاريخ العثماني ، من صد هلاكها عن سورية ووادي النيل ، فاكسبت من جراء ذلك شهرة عالمية ، لأن المغول الذين انتصرت عليهم ، كانوا قد ملثوا أفئدة العالم رعبا .

ولما تراجع المغول خف المماليك بمصر للانتقام من دولة الأرمين في كيليكيا ، لأنها كانت للهغول عوناً على المسلمين ، فاستولوا على بلادها (٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م) ، وقد أصبحوا بذلك يجاورون دولة آل عثمان ، التي صارت خطراً على بيزنطة والبلقان ، على رغم أنها كانت لا تزال في مطلع حياتها .

ولما تبوأ عرش السلطنة العثمانية بايزيد بن مراد (٧٩٢ هـ = ١٣٨٨ م) أخذ الشرق المنكوب يستعيد هيئته ، خصوصاً بعد انتصاره العظيم على الجيوش الأوربية المتحدة ، في واقعة نيكوبولى . ولقد كان العرب ومثلهم

ممالك مصر الجراكسة^(١) يشاطرون آل عثمان شعورهم، ويعطفون عليهم، فما إن تم الانتصار للسلطان على الجيوش المتحدة، حتى بادر الخليفة العباسي في القاهرة بتهنئته ومنحه لقب «سلطان إقليم الروم».

لكن سرعان ما تغيرت العلاقات السياسية من بعد بين آل عثمان وممالك مصر، وكان سبب ذلك انتصار هؤلاء لتيمورلنك على السلطان بايزيد، حينما حمل عليه تيمور وأسرهم، وضمهم الأمصار العثمانية المجاورة لهم.

وعند ما نهض آل عثمان من كبوتهم، واستعادوا دولتهم، أضربوا الشر للممالك. وما إن فرغ السلطان سليم الأول العثماني من حرب الشاه إسماعيل، ملك الدولة الصفوية، ودخل عاصمته تبريز منتصرا، وفتح ديار بكر والموصل وما يليهما، حتى ساق جيشا جرارا لقتال الملك الأشرف قانصوه الغوري، فنهزمه وفتح مملكته، وكانت تمتد من جبال طوروس إلى آخر حدود مصر (٩٢٢ - ٩٢٣ هـ = ١٥١٦ - ١٥١٧ م).

وقد رحب العرب، الخاضعون لدولة الممالك بمصر والشام بسلطان آل عثمان، لأنهم كانوا ناقين على دولة الممالك، لإهمالها شأنهم، ولما أصابهم من أذى من جراء الفتن التي كانت لا تنقطع بين الممالك في سبيل العرش.

وحارب العرب في صفوف السلطان سليم، ولكنه لم يكافئهم خيرا على انخيازهم إليه، كما لم يسء معاملتهم. وقد اضطر المتوكل على الله، آخر خلفاء العباسيين، أن ينزل له عن حقوق الإمامة، وأن يتخلى له عن الآثار النبوية. حتى إذا انتصر السلطان سليمان بن سليم على الفرس مرات، ودخل عاصمتهم تبريز، وفتح بغداد، أصبح الشرق العربي من أقصى العراق إلى آخر الجزيرة، خاضعا للعثمانيين، يخطب فيه باسمهم، وفي ذلك الحجاز وتهامة اليمن اللذان شرعا يخطبان باسم السلاطين منذ أيام السلطان سليم.

(١) خلف الممالك الجراكسة زملاءهم الممالك البحرية عام ٧٨٤ هـ الموافق ١٣٨٢ م.

١ - مصر خلال الحكم العثماني

نهجت السلطنة العثمانية في إدارة البلاد نهج الحكومات الإسلامية ، وذلك من حيث الاعتماد على خطة اللامركزية . وجرت حيال الأمصار التي منحها وكانت تتمتع بالاستقلال من قبل ، على خطة تعيين حاكمها من بين زعماء البلاد ، وتمشيا على هذه القاعدة ، أشرك السلطان سليم المماليك في حكم مصر ، واتخذ لإدارتها ثلاث هيئات على الوجه التالي :

(١) الباشا ، وهو الحاكم العام ، وواجباته إبلاغ الأوامر السلطانية ، ومراقبة تنفيذها .

(٢) الوجاقات ، وهي القوة العسكرية ، وواجباتها حفظ النظام ، والدفاع عن القطر ، وجباية الخراج . ومن ضباط الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا .

(٣) بقايا المماليك .

وأراد السلطان باستخدامهم حفظ التوازن بين الحاكم في مصر ، والأجناد . وهم رجال شوره وقوته المنفذة ؛ لأن المماليك في الأصل أعداء للفريقين . وغرضه من ذلك تعزيز الأضعف ، لمنع استبداد الأقوى . ثم لما اطمأن ولده السلطان سليمان القانوني لهؤلاء المماليك ، زادهم وجاقا سابعاً ، وأضاف إليهم اثني عشر « ييكا » آخرين ، لوظائف محدثة ، ومنحهم امتيازات جديدة ، وحقق في الترقية إلى رتبة باشا .

والواقع أن اعتماداً مثل هذا على زعماء الأمصار وإن أفاد في بداية الأمر ، إلا أنه جر على الدولة الكوارث ، وأفضى إلى تجزئتها حيناً منيت بالضعف ، وأدى إلى رجوع الحكم إلى المماليك أنفسهم في وادي النيل .

هذا وقد اجتاز تاريخ مصر السياسي خلال العصر العثماني عدة مراحل ، نلخصها فيما يأتي :

DS

Bayhum, Muhammad Jamil.

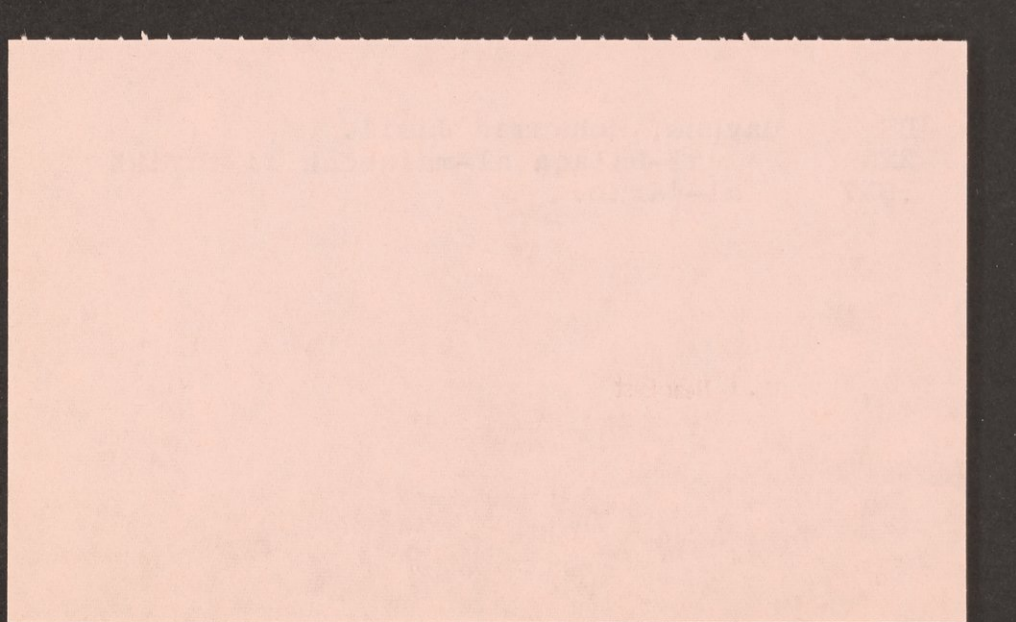
223

al-Halaqa al-mafqudah fi tarikh

.B37

al-'Arab.

C.1 Near East



١ - حكومة الباشوات :

من ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م إلى ١١١٩ هـ = ١٧٠٧ م

كانت مصر خلال هذا العهد ترزح تحت الحكم العثماني المباشر ، وقد تعاقب عليها ولاية ، بينهم الأكفاء وغير الأكفاء . وكان السلطان هو الذى ينصب الباشا ، على أن يعاونه الكاخيا ، كما يعين قباطنة السويس ودمياط والإسكندرية . أما البكوات الآخرون فكان يسميهم الديوان المصرى ، ويترك إلى الباشا أمر تعيينهم ، وللباب العالى الكلمة الأخيرة بشأنهم ، فيما أن يثبتهم ، وإما أن يرفضهم .

أما خزانة مصر فكانت مرتبطة بخزانة السلطنة مباشرة . وبالجملة إن مصر لم تكن تتمتع وقتئذ بالاستقرار من جراء ما كان ينشب فيها بين القوى الثلاث من الفتن . كما أن الباشوات أنفسهم لم يكونوا مطمئني النفوس ، لأن أمر تثبيتهم أو نقلهم كان يرجع إلى قدر ما لكل منهم من سند بين حاشية السلطان . وقد بلغ عددهم ٧٦ واليا في حقبة قدرها ١٩٦ سنة فقط .

هذا ، وكانت ولاية مصر خلال هذا العهد عوناً للسلطنة عند كل أزمة . وكثيرا ما سيرت مصر الحملات إلى الأقطار التى تشور على السلطنة ، كالين وسورية ، وكثيرا ما جندت النجيدات مساعدة للدولة على أعدائها ، كما فعلت في حرب فارس .

ولم يكد يشعر أمراء الأجناد والمماليك بضعف الدولة ، من أثر الحروب التى واصلتها مع أوروبا ، حتى تجرءوا على تبديل الباشوات وفقا لأهوائهم ، وإذ كان الباب العالى مضطرا لأن يجاريهم ، أدى استمرار

تدخلهم الفعلي في الإدارة إلى تحويل النفوذ لأيديهم دون الباشوات ، حتى انتهى الأمر بأن صار الحكم إليهم مباشرة ، ولا سيما في عهد السلطان أحمد الثالث (١٠٧٣ هـ = ١٧٣٠) .

ب - حكومة الأمراء والمماليك :

من ١١١٩ هـ = ١٧٠٧ م إلى ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م
في عهد السلطان أحمد الثالث كان قاسم عيواظ بك شيخا للبلد ، وكان في يده الحل والعقد . وأما الباشوات الذين تعاقبوا على الولاية في القاهرة من قبل السلطان ، فكانوا يلزمون القلعة ، ولا هم لهم إلا كسب الأموال . على أن المماليك كانوا وقتئذ حزبين : حزب المماليك القاسمية ، نسبة لشيخ البلد المشار إليه ، وحزب المماليك الفقارية . وقد استبد هؤلاء الأجناد بالسلطة ، وجعلوا مصر ميدان كفاح لذين الحزبين المتنازعين ، واستمر الحال ، على هذا المنوال ، إلى أن صارت مشيخة البلد لعلى بك الكبير (من ١١٧٧ هـ = ١٧٦٣ م إلى ١١٨٧ هـ = ١٧٧٤ م) . فأتيح لهذا الرجل بحزمه وعزمه ، أن يبطش بأعدائه ، ويخضع عنوة العربان الخارجين عليه ، ويستعيد الأمن .

ثم تنازع خلفاء على بك على المشيخة ، فوجد السلطان عبد الحميد الأول الفرصة حينئذ سانحة لاسترجاع مصر ، فوجه حملة قوية ، انتصرت عليهم ، وكادت تستأصل شأفتهم ، ولكن نشوب الحرب بينه وبين روسيا وقتئذ ، اضطره لسحب الحملة برغم ما أصابت من فوز . وقد عاد المملوكان إبراهيم بك ومراد بك على أثر ذلك إلى القاهرة ، وتسلبا الحكم منابذة ، وعاد مماليكهما سيرتهم الأولى ، لاسيما محمد الألفي ، وظلوا في طغيانهم يعمهون ، لا يستنون من ظلمهم أحدا حتى الأجانب ، إلى أن جاءت الحملة الفرنسية .

ج - الحملة الفرنسية :

من ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م إلى ١٢١٥ هـ = ١٨٠٠ م

كانت إنكلترا وفرنسا تطمعان في الاستيلاء على مصر، وتنافسان عليها . فلما قتل الفرنسيون ملكهم لويس السادس عشر ، وأقاموا حكومة الإدارة ، وحملوا على الممالك فاتحين ، سمت أنفسهم إلى تحقيق الأمانة القديمة بشأن مصر ، وما زال القائد العام نابليون بوناپرت يغرى بها حكومته ، حتى اقتنعت ، وسأقت حملة مجهزة بالعلماء والصناع ، ما كان ليعرف أحد وجهتها . وبينما كان بوناپرت يطارد المماليك في مصر ، كان الأسطول الإنكليزي يتبع أثر الأسطول الفرنسي ، حتى دمره في وقعة أبي قير الشهيرة ، وقطع على نابليون خط الرجعة ، وحال بينه وبين فرنسا . فحاول هذا القائد الفذ أن يستعيض عن مدد الوطن ، قوة يستمددها من وادي النيل نفسه ، فأعلن إسلامه ، وجرب أن يراعى الشعائر الإسلامية . ولكن تطبيق مشروع الإصلاح الأوربي في مصر ، أدى إلى تعرض الفرنسيين لبعض التقاليد المرعية ، فأثار النفوس عليهم . هذا إلى أن نابليون اضطر لمديته إلى أموال المصريين أنفسهم ، يدخرها بكثرة ، ويستزيد منها ، خصوصا حينما اتصل به خبر اتفاق إنكلترا وروسيا مع تركيا على إخراجه من وادي النيل ، فازداد المصريون من جراء ذلك بغضاله ، ثم اجتمعت كلتهم عليه عند ما ازداد عنفا في سبيل إخماد الثورة .

أراد نابليون أن يفاجئ تركيا قبل استكمالها الاستعداد الحربي لقتاله ، فسار إلى عكا وحاصرها ، فلم ينجح ؛ وأخيرا غادر مصر سرا إلى فرنسا ، لما بلغه غلبة النمسا عليها ، ووقعها في مخالب الفوضى ، وكان يؤمل أن

يثار لها من النمسا ، وأرن يجد في تلك المناسبات وسيلة لتحقيق مطامعه الكبرى الخاصة . على أن خلفه الجنرال كليبر ما كان ليشركه في الرأي في وجوب البقاء بمصر ، بل عمد إلى فرنسا يشكو إليها سوء المصير ، وكان يدأب لاكتساب عطف الأهلين ، وذلك بإجراء الإصلاحات المدنية والعسكرية ؛ ولكن مصر منيت بثورات كان لتزكيا يد فيها ، تخلفتها مؤامرات أفضت إلى قتل كليبر المشار إليه . وقد خلفه في القيادة الجنرال مينو ، وكان على رأى نابليون من حيث الاحتفاظ بمصر ، فاعتنق الإسلام ، وأسمى نفسه عبد الله ، وبسط رعايته على المسلمين . ولكنه أتى أمرا كان فيه ضياع ثقة المصريين به ، وثقة قواده أيضا ؛ ذلك أنه أعلن - دون استشارة فرنسا - حمايتها على مصر ، فباء بغضب زملائه رجال الحكم من جهة ، ونفر منه الشعب المصرى ، الذى طالما سعى الجنرال لاسترضائه من جهة أخرى ، ثم اضطر أخيرا ، بعد حروب وقعت بينه وبين الحملتين الإنكليزية والعثمانية ، لتوقيع معاهدة الانسحاب . فخلا الفرنسيون عن وادى النيل ، بعد نحو ثلاث سنين قضوها في مكافحة الثورات ، واستقبال الحملات الحربية .

د - أسرة محمد على :

بعد انسحاب الحملة الفرنسية ، جاءت فترة من الزمن مليئة بطمع الطامعين : فقد حاولت فيها تركيا استعادة نفوذها في مصر ، وكانت الباقية من المماليك ، وعلى رأسهم البرديسى والألفى تحاول الاستئثار بالسلطة . وكانت بريطانيا العظمى في أثناء ذلك ، تجرب استثمار هذا التنازع القائم بين الباب العالى والمماليك ؛ فقد كان جندوها يحمى الذين لجئوا إليه من المماليك ، كما أن عاصمتها رحبت بمحمد الألفى الذى عقد الآمال على مساعدتها . وفى أثناء هذا الصراع بين تركيا والمماليك ، وما تخلله من تنافس

بين الألفى والبرديسى ، أتاحت الفرصة لمحمد على أحد قادة الفرقة الألبانية ، القبض على زمام الحكم ، باسم السلطنة ، ثم إعلان استقلاله .

إن هذا القائد الباسل لم يقنع بمنصب الولاية على مصر الذى وجهه إليه الباب العالى فى سنة (١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م) مكافأة له على سحق المماليك ، الذين كانوا يحاولون استعادة سلطانهم المطلق ، بل سمت به همته إلى التوسع والولاية على سورية وسواها . وقد أدرك الميسو دروفاتى Drovetti قنصل فرنسا بالقاهرة ، ما يحول فى خاطره ، فكتب إلى باريس سنة ١٨١١ رسالة جاء فيها :

« إن محمد على طامع فى باشوية سورية . قال لى يوما إنه ليس من البعيد إدراكها بمال يقدمه للخزانة ، يتراوح بين سبعة وثمانية ملايين قرش . هذا ؛ وإن فكرة الاستقلال أخذت تتأصل فى نفسه ، يوما بعد يوم ، وذلك بعد أن أتيح له النصر على أعدائه ، والقضاء على مشاغبات الجنود ، ولا سيما حينما أمن جانب الأزمات التى كانت تحقق بمالية مصر » .

ولعل هذه المطامع التى كانت تساور نفس محمد على لم تبق خافية على الباب العالى ؛ ولذلك كانت الآستانة تحاول ألا تترك له الفرصة التى تساعد على التمداد فى الاستعداد لتحقيق أمانيه ، فندبته لرد الوهابيين الذين كانوا قد انتشروا فى جزيرة العرب ، حتى استولوا على مكة والمدينة ، ثم نشطته لفتح السودان . بيد أن الانتصارات التى أحرزها فى الجزيرة العربية والسودان ، زادته تمكنا ، إذ قوت سلطته فى الأوساط العسكرية ، وضاعفت مطامحه . واستعدادا للفرصة السانحة شرع محمد على باشا ينظم الجند على الأصول الحديثة ، ويجهز الجيش ، وعنى بإنشاء الأسطول .

أما تركيا فقد ازدادت قلقاً على قلق ، بسبب هذه الاستعدادات ، فأرادت جس نبض محمد على باشا ، حينما انتدبته لإنجادها في إخماد ثورة اليونان ، فلم يتباطأ في إجابة دعوتها .

وهناك في مرفأ « نافارين » باليونان ، حيث احترق الأسطول المصري إلى جانب الأسطول العثماني (١٨٢٧ م) ، انبثق أمل مفرح في نفس محمد على بصدد تحقيق أمانيه ، وأخذت هذه الأمانى طابعا جديدا .

فقد احترق الأسطولان بنيران أسطولى إنكلترا وفرنسا ، وكانت حجة الدولتين في المساعدة التي أجزلتها لثوار اليونان على تركيا حاكمة البلاد ، أنهما تعضدان المبدأ القومي ، ذلك المبدأ الذي كان حديث العصر . فترأى لمحمد على باشا أنه هو أيضا خليف بالاستفادة من روح العصر لبلوغ الاستقلال ، وأنه من الخير أن يجعل مساعيه في هذا السبيل تقوم على مبدأ قومي ، هو مبدأ العروبة .

على أن نجاح اليونان في ثورتهم كان حافزا أيضا لأهالي البلقان أن يخرجوا على تركية ، فاضطرت تركية إلى سحب قواتها من سورية وغيرها ، لإخماد تلك الفتن التي أخذ بعضها برقاب بعض ، ولا سيما في البوسنة وألبانيا وبغداد .

وكانت الدول الأوروبية نفسها منصرفة أيضا إلى تسكين الاضطرابات التي تفاقمت هناك على أثر انتشار مبادئ الثورة الفرنسية .

وفي هذه الظروف المواتية شرع محمد على باشا يحقق أمانيه ، فقد أخذ يتدخل في شئون ولاية سورية تدخلا أفضى إلى خلاف وقع بينه وبين عبدالله باشا والى عكا ، اتخذه محمد على مبررا لرحفه على سورية ، ولم يتردد مطلقا ، لأن الفرصة كانت سانحة على أثر بطش السلطان محمود بفرقة الإنكشارية (١٨٢٦ م) ، وكانت هذه الفرقة جند السلطنة ، هذا فضلا عن خروج تركيا ، وقتئذ مهزومة ، مضعضة من حرب روسيا .

وشاء محمد على باشا وأولاده أن يكون طابع هذه الحملة وهدفها عربيين ، فكما أراد أن يطلق عليه لقب « صارى عسكر الجيش العربى » ، أثر عن ولده إبراهيم باشا ، قائد تلك الحملة أنه قال : « أنا لست تركيا ، فأنى جئت مصر صديا ، ومنذ ذلك مصرتنى شمسها ، وغيرت من دى ، وجعلته دما عربيا » . وهو إلى ذلك قد أعلن للبارون لبوالكونت على مقربة من مدينة طرسوس فى ولاية أطنة « أنه يريد دخول الآستانة ، لى يقيم حكومة عربية صالحة ، تضطلع بحكم الإمبراطورية » .

وكان التوفيق حليف الحملة المصرية ، فإذا بها تتجاز سورية إلى الأناضول ، وإذا بها تنتصر أيضا فى موقعة فاصلة على الجيش العثمانى فى جوارقونية ، فتصبح الطريق مفتوحة لها حتى قاعدة الدولة .

وحينئذ سكت المدفع ، وترك الكلام للتنازع الدولى ، أو بعبارة ثانية ، للتوازن السياسى . ذلك أن تهديد مصر للآستانة ، حمل روسيا على سوق قسم من جيشها شطر تركية ، وعلى إرسال أسطولها إلى البسفور . وقد أثار هذا الزحف الروسى قلق كل من إنكلترا وفرنسا ، فبادرتا إلى التوسط بين الفريقين المتحاربين ، واستطاعتا بالضغط عليهما ، أن تجعلهما يوقعان معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٢ . وبمقتضى هذه المعاهدة كان على الجيش المصرى أن يتراجع عن الأناضول ، على أن يعطى محمد على باشا ولاية مصر طول حياته ، مع تعيينه واليا على بلاد الشام وجزيرة كريت ، علاوة على نصب ابنه إبراهيم باشا واليا على ولاية أطنة « كيليكيا » .

والواقع أن الفريقين الموقعين على هذه المعاهدة لم يكونا صادقين النية حين الموافقة عليها : فقد كان محمد على باشا يسعى السعى الحثيث عند الدول ، بواسطة قناصلها بالقاهرة ، لأن تكون بلاد الشام ومصر وسائر جزيرة العرب له ولأولاده من بعده ، وكان السلطان محمود يعقد بينه وبين قيصر

روسيا معاهدة « خونكار إسكله سي » سنة « ١٨٣٣ » . وفيها تعهدت هذه الإمبراطورية بالدفاع عن السلطنة لو تعرضت ثانية لهجوم مصرى . وعلى رغم أن الدول نصحت والى مصر ألا يعود لإثارة هذا الموضوع ، فإن فرنسا عملت على إغرائه ، فكر راجعا إلى ميدان الحرب ، وكان له النصر فى نصيين (نزيب) سنة ١٨٣٩ م .

وهنا تجلى خيال الدب الروسى أمام الدول كاشرا عن أنيابه ، وهو يكاد يلتهم القسطنطينية وما حولها ، متخذا من معاهدة « خونكار إسكله سي » حافزا له ، خفت الدول إلى الميدان لوقف القتال . ولكن اختلاف نزعاتهم أفضى إلى إخفاق مؤتمر « وينة » الذى عقدوه سنة ١٨٤٠ النسوية الحالة ، بل أدى إلى توتر العلاقات الدولية .

وإذا بلدن تلجأ إلى طريقة أخرى تنفيذنا لسياستها ، فقد عولت على المفاوضات الفردية ، فاستطاعت أن تستميل بذلك كلا من روسيا وبروسيا والنمسا . وأما فرنسا فقد ظلت تؤيد وجهة نظر مصر ، وليس ذلك عن حب وإخلاص لها ، وإنما قصدت النكاية بإنجلترا ، التى أخرجتها قبيل ذلك من وادى النيل . ولما أبى محمد على باشا قبول ما اتفقت عليه هذه الدول ، عمدت إنجلترا إلى استعمال القوة ضده . وحينئذ تراجعت باريس التى أغرته ، تاركة ثغور مصر وسورية عرضة لقذائف الأسطول الإنكليزى . أما محمد على باشا فما كان بوسعها إلا الإذعان ، فقفل جيشه راجعا إلى مصر ، إذ أخذ الأسطول العثمانى الذى كان قد أسلمه إليه أمير البحر خلال الحرب يجرى عائدا إلى الآستانة . وتمت النسوية الدولية على أساس اعتراف السلطان عبد المجيد لمحمد على باشا سنة ١٨٤١ بالولاية على كل من مصر والسودان ، تحت رعاية السلطنة طول حياته .

ثم خلفه إبراهيم باشا (١٢٦٤هـ = ١٨٤٨ م) فعباس باشا (١٢٦٥هـ = ١٨٤٨ م) فسييد باشا (١٢٧٠هـ = ١٨٥٤ م) فإسماعيل باشا (١٢٧٩هـ =

١٨٦٣ م) ونال من السلطنة لقب خديو مع بعض الحقوق الممتازة . ثم محمد توفيق باشا (١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩ م) وفي عهده أقدم الإنكليز على احتلال مصر ، مستغلين الحركة العرابية .

وتنسب الحركة العرابية إلى أحمد عرابي باشا زعيم الحزب الوطني في أيام الخديو توفيق . كان هذا الحزب قد كبر عليه انتشار الترك والشركس بالسلطات المصرية ، فتوخى تحرير وطنه من سيادتهم ، وطالب بإصدار دستور للبلاد ، يقوم بمقتضاه مجلس للنواب ، كما أنه وضع نظاما للجندية ، ودعا للموافقة عليه .

ولما أتيح لعرابي باشا أن يتقلد نظارة الحرية (الجهادية) طبع الجيش بالطابع الوطني في روحه وأفراده ، وحرره من نفوذ الشراكسة . وهذه التصرفات أدت إلى وقوع أزمة بين الخديو والنظار استفحل شأنها ، حتى أقدم عرابي باشا وحزبه على طلب تنازل الخديو عن منصبه . وكانت لندن واقفة بالمرصاد ، فالتحذت من تردد الباب العالي في حل هذه الأزمة مسوغا للتدخل باسم السلطان والخديو (١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢ م) وكان ذلك مصدر حمايتها .

هـ - عهد الاحتلال :

لما احتلت جيوش الملكة فيكتوريا مصر ، وجه أمير الأسطول البريطاني السير بوشام سيمور إلى الخديو توفيق رسالة بتاريخ ٢٦ يوليو ١٨٨٢ أعلن فيها أن الغرض الوحيد من هذا التدخل العسكري هو حمايته من التأثيرين ، وإنقاذ الشعب المصري ، ثم استمر سياسة الدؤننج ستريت يرسلون التصريحات التي تطمئن المصريين على استقلالهم .

والواقع أن حكومة الاحتلال عملت على توطيد قدمها في وادي النيل ، وثابتت على ذلك ، حتى استطاعت حكومة المحافظين إقناع الباب العالي بعقد

بينها وبينه ، ينص على انتداب كل منهما ممثلاً سامياً ، يكون له الحق بالاشتراك مع الخديو في الإدارة العامة ؛ فكان هذا الاتفاق بمثابة الاعتراف لها بحق وجودها في القطر المصرى .

ومنذ ذلك شرعت تستأثر بالسلطة اعتماداً على قوتها : فخردت الجيش من سلاحه ، ونقصت عدده ، واستبدت بالشئون الخارجية ، وهى إلى ذلك كانت تهتبل الفرص والأزمات لانتزاع اعتراف الدول بهذا الاحتلال ، فكان لهما ما أرادت .

على أنها وإن استطاعت أن تستحوذ على كل سلطة ، فقد تركت طابع الحكم مصرى ، وظل ممثلها يلقب بقنصل إنكلترا العام ، ووكيلها فى مصر ، وبقي رجالها الموظفون فى مناصب الحكومة العليا يسمون مستشارين .

غير أن المصريين الذين استنقلوا استبداد الترك والشراسة إبان ولاية الخديو توفيق ، لم يكن بوسعهم أن يخضعوا طويلاً لتحكم ابن التيمس ، وخصوصاً أن النهضة التى أسسها محمد على باشا كانت قد آتت أكلها . لذلك لم يكد مصطفى كامل باشا يحمل علم المعارضة (١٨٩٤ — ١٩٠٨ م) حتى التف حوله فتیان مصر ، وإذ وجدوا من الخديو عباس حلى مشجعاً ، نشطوا أكثر فأكثر إلى النضال ، حتى أصبح صوت مصر المتألمة يدوى فى الأندية العالمية .

وخلال هذا الحماس الوطنى تألفت الأحزاب السياسية الأربعة (١٩٠٧ م) وشرعت تطالب بحقوق المصريين وبالجللاء ، تشد أزرها الصحافة . أما الإنكليز فكانوا يقابلون هذا الحماس الحار بالدم البارد .

هذا ، وقد دخلت القضية المصرية غداة الحرب الكبرى الأولى فى دور جديد ؛ ذلك أن تركيا وجهت بتاريخ ١ شباط ١٩١٤ مذكرة إلى الدول كافة ، تعلن فيها أن وجود الإنكليز فى مصر يحول دون مزاولتها سلطتها .

وفي اليوم التالي أصدر الخديو عباس ، وكان حينئذ في عاصمة تركيا ، مذكرة يطالب فيها بريطانيا العظمى بالجلء عن مصر .

فكان هذا حافزا لها على إعلان حمايتها على القطر المصري ، وعلى تولية السلطان حسين مكان الخديو عباس (١٨/١٢/١٩١٤) . على أنها مانسبت قط أن تؤكد أن هذه الحماية إنما هي ضرورة من ضرورات الحرب ، وأنها ستنتهي بانتهائها .

أما السلطان حسين فقد كان أجله قصيرا ، وتوفي سنة ١٩١٧ تاركا العرش لاختيه فؤاد الأول . ثم انتهت الحرب بعد ذلك ، وانتهى معها كل حق للاستانة بالقاهرة ووادي النيل .

٢ — السودان في عهد آل عثمان

١ — لمحة عامة :

لما ظهر الإسلام كانت السودان قبائل متفرقة ، وعلى رأس كل منها شيخ أو أمير ، فأرسل عمرو بن العاص فاتح مصر عبد الله بن سعد ، فدخل النوبة ولم يتجاوزها ، ثم لم يحاول المسلمون من بعد فتح السودان .

غير أن الاتصال بين العرب والعربية وبين السودان يرجع إلى ما قبل الإسلام : يدل على ذلك التشابه بين أسماء قبائل السودان القديمة وبين قبائل جزيرة العرب . ولا يبعد أن بعض العرب هاجروا في الجاهلية إلى ذلك القطر ، كما هاجروا في الإسلام ، لأسباب سياسية واقتصادية . وقد نزل هؤلاء المهاجرون في القرون الوسطى بين قبيلتين كبيرتين ، تعرف إحداهما بالفونج ، والثانية بالهمج ، ولم يلبثوا أن تسلطوا عليهم ، ونشروا بينهم الإسلام والعربية . حتى إذا كانت سنة ١٤٩٣ ظهر على قبيلة الفونج الشيخ عمارة دنكاس ، وأسس مملكة سنار . وقد خلفه على هذه المملكة أولاده وأحفاده إلى سنة ١٧١٤ ، حين ثار الأهالي على الملك أنسو الثاني ، بسبب اشتغاله باللهو عن المملكة ، وولوا مكانه أحد الأشراف السودانيين ، واسمه نور ، وانتقل الحكم منه إلى أعقابيه .

ولكن قبيلة الفونج لم تلبث أن منيت بالانحلال منذ أواسط القرن الثامن عشر ، بينما كانت قبيلة الهمج تزداد قوة على قوة . وقد أفضى هذا إلى تغلب زعماء الهمج على ملوك الفونج ودولتهم ، إلى حد أنهم صاروا يولون منهم من

يشاءون ، ويخلعون من يريدون . وانتهى بهم الأمر في أوائل القرن التاسع عشر إلى خلعهم سلطة الفونج ، وعاثوا في البلاد فسادا .

وكانت هذه الفوضى مما حمل محمد على باشا والى مصر على سوق حملة للسودان سنة ١٨٢٠ برياسة ولده إسماعيل باشا ، وقد قابلها السودانيون بالتسليم ، وما إن بلغت منطقة سنار حتى خرج ملكها محمد مسلما ومرحبا ، ودانت لمصر وقتئذ البلاد التي تتألف منها الآن مديريات دنقلا وبربر والخرطوم وسنار ، وخضعت مع ذلك للسلطان خليفة المسلمين .

وكان محمد على باشا قد أنفذ صهره أحمد بك الدفتردار إلى كردوفان التابعة إذ ذاك لسلطان دارفور ، ففتحتها ، ولما بلغه خروج الملك النمر حاكم شندي ، واحتياه على إسماعيل باشا ، وقتله إياه ، زحف أحمد بك على شندي ، وفتك بأهلها وبمن والاهم ، ثم عاد إلى كردفان ، وحكم السودان تحت راية محمد على باشا ، فكان هذا بمثابة وضع التصميم الأول لدولة وادى النيل في التاريخ الحديث .

غير أن بريطانيا العظمى سرعان ما مدت أصبعها ، فجاء السير صموئيل بيكر سنة ١٨٧٠ على رأس حملة سار بها إلى خط الاستواء ، وظلت هناك حتى سنة ١٨٧٣ تضع الخطط والرسوم تحت ستار العلم والكشف .

وفي سنة ١٨٧٥ باشرت مصر فتح دارفور مستعينة بكبير قبيلة الجميحات السودانية ، ومستنيرة بضوء معلومات حملة بيكر ، ولما تمكنت من الاستيلاء عليها بعد حروب ومشقات بلغت مساحات السودان المصرى نحو مليون من الأميال المربعة .

ب — الأصابع البريطانية :

وكانت الخطوة الثانية التي خطتها لندن في السودان قبل نشر حمايتها على مصر ، عملها على إقناع الحكومة المصرية في عهد إسماعيل باشا ، بلزوم استخدام الجنرال غوردون عندها ، فبعثت هذه تستأذن الحكومة الإنكليزية في ذلك ، فأذنت ، ونصبه إسماعيل باشا حكامدا على السودان لإصلاح شأنها مع رتبة باشا (١٨٧٤) . وقد مكث غوردون باشا في تلك المهمة ثلاث سنوات ، ثم عاد إلى إنكلترا ؛ فبعث إليه إسماعيل باشا أن يعود ثانية ، فامتل . . . وما زال حاكما على السودان حتى أقيل إسماعيل باشا سنة ١٨٧٩ . وما كاد المستر غوردون باشا يعود إلى إنكلترا ، حتى شبت ثورة المهدي .

وكان سببها أنه بينما كانت حكومة السودان تدفع جباتها في سبيل تحصيل الضرائب الكبيرة ، لاستعمال العسف والإرهاق ، كان غوردون باشا نفسه حاكم السودان يبشر بالمساواة والإخاء بين الناس ، ويعلم السودانيون مبادئ تحملهم على الاعتقاد بأن جبلتهم ليست دون جبلة حكامهم ، وهو إلى ذلك كان قد أبطل تجارة الرقيق . وكانت مصدر رزق النخاسين ، وهم من عظماء السودانيين .

فاستطاع هذا البريطاني بهذه السياسة ذات الحدين ، أن يجمع في صعيد واحد بين نقمة كل من الشعب وعظمائه على مصر ، وبين رضا سوادهم عنه ، لأن تعاليمه هذه كانت تجمع حول شخصه قلوب الشعب المظلوم .

ج - ثورة المهدي :

وخلال ذلك الغليان والضيق أخذ السودانيون يترقبون الفرص من الله ، وعلقوا هذا الفرص على المهدي المنتظر ، حسبما أذاع بينهم زعماء دينهم ، وشيوخ طرقهم ، وخصوصا ذلك الشخص الموثوق به محمد أحمد . ولما آنس هذا الشيخ استعداد السودانين للإيمان بهذه الدعوة ادعاها لنفسه ، وأبى أن يجيب دعوة رموف باشا حاكم الخرطوم سنة ١٨٨١ ، فكان ذلك بمثابة إعلان القتال . وقد لاقت دعوة «المتمهدي» قبولا عند الناس في شدتهم ، على رجاء أن يأتي الفرص على يده ، فآمنوا به ، وخفوا انصرته ، وما إن دخلت سنة ١٨٨٣ حتى أصبحت كردفان أيضا في نطاق حكمته .

أما حكومة مصر فقد هالها نجاح المهدي ، فبادرت إلى إرسال هيكس باشا على رأس حملة زحفت من الخرطوم لفتح الأبيض ؛ ولكن هذه الحملة لاقت حتفها في مكان يسمى شيكان ؛ ولم يسلم منها أحد ولا هيكس باشا نفسه . ولما علم سلاتين بك « سلاتين باشا النمسوي » حاكم دارفور بما منيت به هذه الحملة من الإخفاق ، لم يربدا من التسليم .

وكان من نتيجة ذلك أن تقاطر الناس على المهدي قبائل وجماعات ينصرونه ، وكادت أحجار السودان ورماله تنطق بلسان واحد : « صدق المهدي ! » وأفضى هذا الانقلاب إلى صدور الأمر العالي بتخلية السودان في ٨ يناير ١٨٨٤ ، بناء على إشارة الحكومة الإنكليزية ؛ وكانت هذه الحكومة تنوى إعادة الحكم للأمراء والملوك الذين كانوا يحكمون السودان عند ما فتحها محمد علي باشا ، تمهيدا لبسط حمايتها عليهم مباشرة في فرصة مناسبة . وقد أنفذت غوردون باشا إلى السودان ، معلنة أن مهمته هي النظر في أفضل الوسائل لسحب الحماية مع الرعايا الإفرنج من تلك البلاد .

وقد هبط غوردون باشا الخرطوم في سنة ١٨٨٤ دون أن يكون مصحوبا بجيش، وشرع يرسل الوعود للسودانيين مدرارا، وفي جملتها إطلاق حرية تجارة الرقيق؛ ولكن هذه المشوقات المغريات لم تجز على المهدي، بل حمل هذا على الخرطوم، وضيق عليها الحصار، وفتحها في سنة ١٨٨٥، وقتل غوردون باشا، قتله الدراويش حين دخولها، وحملوا رأسه إلى المهدي بأم درمان عاصمة دولته. أما الحملة الإنكليزية التي أرسلت لإنقاذ الخرطوم، فما وسعها إلا الانسحاب من بعد، تاركة السودان على اتساعه للمهدي وأشياعه.

وهنا مجال للسؤال: لماذا عاد غوردون باشا إلى الخرطوم دون أن يكون مشفوعا بجيش يحميه، بعد أن أشارت بريطانيا على القاهرة بالجلاء عن السودان؟

ولماذا لم تجد الحملة البريطانية في السير، فتبلغ الخرطوم قبل سقوطها، وهي إنما سيقت لإنقاذها، ولتخليص غوردون باشا؟.

أكان كل ذلك قائما على سياسة بريطانية مرسومة، مدارها خلق حق لها مباشر في السودان، ينبثق عن تضحية غوردون باشا وحده، دون تلك الحملة، حق يخولها غزو تلك البلاد ككرة أخرى باسمها ولنفسها.

د - الحكومة المهدية:

شرع المهدي بعد جلاء الجيوش المصرية والإنكليزية يرسل رجالاته إلى أطراف السودان ليث الدعوة، وإخضاع المتمردين، فأتى محمد خالد إخضاع دارفور؛ كما أن أبا عنقر أخضع بعض سكان الجبال الواقعة في جنوب كردفان، وأما السودان الغربي من النيل الأبيض إلى تخوم الوادي فقد دان كله للمهدي.

ولعل هذا التوفيق الذى حمل السودانيون على تصديق دعوته ، كان حافزا له أيضا على الاعتقاد بأنه مرسل إلهى لكبح جماح البشر ، وأنه مقدر له أن يفتح الأمصار ، وينشر فيها دعوته . ولكن الوفاة دهمته فى ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ ، فورث عنه خليفته عبد الله التعايشى هذا الاعتقاد .

وكان أول مظهر من مظاهر هذا الوهم طمعه فى مصر ، فما تورع عن الكتابة إلى كل من سلطان آل عثمان وخديو القاهرة ومملكة بريطانيا العظمى يطالب بمصر ، ثم هو ما إن قدر له الفوز على الأحباش ، فى حرب ربما أثارها عليه بريطانيا العظمى وقتل فيها النجاشى نفسه ، حتى حدثته نفسه أن يجرّد الجيش على مصر ويفتحها . ولما دنت حملة الدراويش من حلغا ، دهمهم المصريون بقيادة وود هاوس باشا وكسروهم ، ثم انقض عليهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى فى توشكى ، فكانت الواقعة الفاصلة .

ويبدو أن الحظ أخذ يخون الدراويش منذ ذلك الحين : فقد دهمهم قحط شامل جعل وطأة الجوع تشدد ، حتى أكل الفقراء سيور الجلد ، ورافق الجوع جراد لم يبق ولم يذر ، فكانت خمسة أهلكت من الدراويش أضعاف ما أهلكته الحروب منذ ظهور المهدي . ذلك إلى أن الانكسار الذى منى به الخليفة التعايشى فى توشكى أضعف هيئته ، وفسح المجال لبروز العنعنات الخاصة بين قومه ، ولا سيما ما كان منها يختص بالخلافة ، وكان على رأس المعارضين أولاد المهدي وبعض الأشراف .

على أن التعايشى أظهر كثيرا من الحكمة فى سبيل وقف القتال بينه وبين هؤلاء المعارضين ، ووقعوا على اتفاق يرضى الفريقين ، ولكن القلوب ماقتنت على غلها ، والقلوب مثل الزجاجة كسرها لا يجبر .

وكانت عين الدوننج ستريت يقظة ، فإذا بأمر يصدر فى ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ للسير كانشن سردار الجيش المصرى بتسيير حملة لاسترداد

السودان ، وسبقتها الجنود الإنكليزية إلى حلفا . وقد أظهر الدراويش من ضعف المقاومة ما حمل سياسة مصر على التساؤل : كيف ولماذا رضوا بالجللاء من قبل عن السودان ، عملا بمشورة لندن .

وفي ٢ سبتمبر ١٨٩٨ دخل السير كينشنر أم درمان قاعدة الدراويش فاتحا ، على رأس جيش كثرتة من مصر ، ومجهز بأموال خزانة مصر ، ولكن برغم أن عدد الجيش الإنكليزي الذي اشترك في هذه الحملة كان لا يتجاوز ألفي جندي يخفون جنسهم بلبس الطربوش ، فإن بريطانيا العظمى استطاعت استنادا إلى القوة أن تجعل لها حقا في هذا الفتح ، اتخذته مطية للاستثمار بالسودان من بعد .

هـ - الحكم الثنائي :

عقدت بريطانيا العظمى معاهدة سنة ١٨٩٩ مع مصر ، وجاء في فقراتها ما يلي : « وحيث إنه قد رؤى تنفيذ حقوق حكومة جلالة الملكة التي نشأت بسبب الفتح ، إشراكها في الإدارة . . . الخ » .

فكان هذا الاعتراف من قبل حكومة مصر أساسا للحكم الثنائي الذي قام في السودان من ذلك التاريخ ، ولكن هناك مادة في تلك المعاهدة جعلت السلطة الفعلية محصورة في يد الإنكليز وحدهم ، تلك هي المادة التاسعة التي تنص على وضع السودان كله تحت الأحكام العسكرية العرفية ، إلى حين صدور أمر آخر ، وإذ لم يصدر من بعد أمر آخر يبطل مفعول هذه المادة ، ظل السودان تحت تصرف القادة الإنكليز ، الذين سيطروا دون المصريين على تلك البلاد .

وقد تنبه الوعي القومي المصري إلى الإجحاف الواقع على سيادة مصر من جراء هذه المعاهدة ، وكان اغتيال بطرس باشا غالى الذي وقع عقب

هذه المعاهدة مظهرًا من مظاهر غضب المصريين ، كما أن السودانيين أنفسهم لم يلبثوا أن أظهروا استنقاظهم الظل البريطاني ، ومشوا إلى جانب المصريين في المطالبة بالجلء ، أما الإنكليز فما استتب لهم الأمر في السودان حتى خلعوا الطربوش ، وحسروا اللثام عن سياستهم الاستعمارية ، فإذا بهم يلجئون إلى سياسة قوامها :

(أ) سياسة : فرق تسد ، فاستطاعت تلك العبقورية الشيطانية أن تخلق من أسباب الشقاق ما لم يكن موجودا ، وأن تغذى ما كان قائما وما كان السبيل إليه ميسورا .

(ب) قطع الصلات بين مصر والسودان ، وبث الدعاية بجميع الوسائل لنشر كراهية مصر في نفوس السودانيين .

(ح) إثارة النعرة القبلية بين عشائر السودان ، وكان أوارها قد خمد إبان حكم المهدي .

(د) تشجيع البعثات المسيحية ، والتمهيد لها لنشر التربية والتعليم على هواها ، مع إمدادها بالأموال من خزانة السودان .

(هـ) فصل السودان شماله عن جنوبه في الإدارة ، على أساس قيام حكم مستقل في الجنوب عن الشمال ، قصد وقف انتشار الإسلام فيه ، واللغة العربية ؛ وفي هذه السبيل كانت حكومة السودان تحظر على أهل المناطق الشمالية الذهاب إلى الجنوب إلا بترخيص خاص ، وتقيّد حريتهم هناك ؛ كما أنها كانت تحرص على بقاء تلك المناطق على حالة من التأخر والفقر تحملهم على بقاء آمالهم معلقة بلندن .

واستطاعت إنكلترا بهذه السياسة الاستعمارية أن تحول السودان إلى مستعمرة ، وإن كان في وضعه السياسي يسمى حكما ثنائيا ، وأن تجعل تلك البلاد موضع استثمار رجالاتها الذين استأثروا ، علاوة على قبضهم على زمام التجارة والزراعة ، بجميع الوظائف العسكرية والإدارية الكبرى .

على أن المصريين استمروا يرسلون احتجاجاتهم على بريطانيا العظمى لهذا الاستئثار في كل مناسبة ، حتى إن مذكرة الوفد المصرى الموجهة لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ قالت : « وإننا بطلبنا إرجاع السودان إلى مصر ، نريد أن نجعله شريكا ، له مالنا ، وعليه ماعلينا » . كما أن أهل السودان أنفسهم كانوا كالبركان الثائر حيال السياسة البريطانية في بلادهم ، فجرد عليهم الإنكليز الحملات ، قصد إسكاتهم بقوة السلاح ، كما حصل في حادثة الكتفية سنة ١٩٠٨ ودارفور سنة ١٩١٦ ، خلال العهد العثماني ؛ فضلا عن واقعة نبالا سنة ١٩٢١ من بعده ، وظل السودانيون في تجاوب مستمر مع دعاة التحرر في مصر ، فكان لثورة سنة ١٩١٩ صدى في السودان تأجج حتى أصبح ثورة مسلحة سنة ١٩٢٤ . وهكذا دواليك .

٣ — بلاد الشام في عهد آل عثمان

١ — تمهيد :

ما أكثر ما كان من اشتراك مصر والشام في المصير ، وخصوصا خلال العهد الإسلامي : ثم في زمن الخلفاء الراشدين ، فالأمويين . وفي بعض أيام العباسيين والفاطميين ارتبط القطران الشقيقان بحكم واحد ، كما أنه لما تغلب آل طولون على مصر ، فالأيوبيون ، فالمماليك ، استطاعوا أيضا أن يجمعوا بين القطرين ، ومثلهم آل عثمان .

فتح السلطان سليم الأول بلاد الشام ومصر ، وبعد أن نظم شئون وادى النيل عاد إلى دمشق يرافقه الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي فرض عليه الانتقال من القاهرة إلى قسطنطينية .

وقد أقر السلطان سليم جان بردى والى دمشق على ولايته (٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م) وألحق بها القدس وغزة وصفد والكرك ، ونصب عمالا آخرين على حلب وحمص وطرابلس وغيرها ، على أساس تقسيم بلاد الشام إلى اثنتين وعشرين منطقة ، يرأس كلا منها سنجقदार ، وترجع المناطق جميعها إلى العامل بدمشق .

ثم تبدل هذا التقسيم الإدارى فأصبحت بلاد الشام تنقسم إلى ثلاث إيالات : حلب في الشمال ، ودمشق في الجنوب ، وتشمل بعض الساحل ، وطرابلس ، وتمتد على ما بقى من الساحل . وتنقسم الإيالة إلى ألوية ، وعلى رأس كل لواء سنجقदार .

وكان الحكم فى هذه الإيالات ذالون عسكرى ، فيقوم على رأس الإيالة حاكم يدعى بكربكى ، أو متول واسع السلطة ، وهو مفوض بـنصب السناجق على الأولوية التابعة له ، وإلزام الإقطاعات سنة فسنة .

وفى بداية القرن الثامن عشر أصبحت بلاد الشام خمس باشويات :

- (١) الشام . (٢) صيدا . (٣) فلسطين .
(٤) طرابلس . (٥) حلب .

هذا ، عدا إيالة تدمر وإيالة عجلون ، وهى الملحقة بـباشوية فلسطين ، وكان يعهد إليهما فى حفظ التخوم من عدوان البدو .

وكان لكل إيالة مجلس شورى ، يتألف من كبار العلماء والموظفين والأعيان ، ويرأسه نائب السلطنة ، وله الإشراف على الشؤون المالية والإدارية . وأما القضاء فكان منوطا بالقضاة الشرعيين ، ماعدا الدعاوى الجنائية والجزائية ، فكانت من اختصاص الموظف المسمى « قاضى باشى » وهو من قادة الجند ، ويليه فى حق استماع هذه الدعاوى « التفكجى باشى » وهو كرئيس الضابطة .

وأما الجند فكان يقسم إلى ثلاثة أقسام : اثنان منها للسلطنة ، وهما الملقبان بـ« الوجاقات » ، أى وجاق الإنكشارية ووجاق القبيقول ، والقسم الثالث كان منوطا بالمتولى ، يأتى به من قبيل الحرس الخاص . وكان الإنكشارية أشد الوجاقات نفوذا ، وتخضع أحياء المدن لأغواتهم . ولما كان مرجع هؤلاء الأغوات فى كل مدينة هو زعيم الوجاق ، كان هذا الزعيم سيد الأحياء والقرى ومرجع الجميع . وهو إلى ذلك يكاد يكون مستقلا عن نفوذ المتولى ، لأنه يصل إلى منصبه بالانتخاب ، وحق انتخابه محصور بأغوات وجاقه وحدهم .

ب - سورية الداخلية :

لما توفي السلطان سليم فاتح بلاد الشام ، وخلفه ابنه سليمان ، استضعفه جان بردى غزالي نائب دمشق ، لحداثة سنه ، فخرج عليه ، واستولى على قلعة الفيحاء ، واحتل بيروت ، وبينما كان يحاصر حلب حاول أن يستميل إليه خيرا بك نائب السلطنة بالقاهرة ، فأخفق ثم لم يلبث أن تراجع عن حلب حينما جاءت أنباء الحملة التي كان يقودها الوزير فرحات باشا ، ولجأ إلى دمشق ، ولكن أسوار دمشق لم تغنه شيئا ، فكان مصيره القتل . وخلفه في هذا المنصب إياس باشا (١٥٢٦ هـ = ١٥٢٠ م) ثم غيره فغيره . ويلاحظ أن مدات أكثرهم في الحكم كانت قصيرة جدا ؛ وإذا أشار هذا إلى شيء ، فإنما يشير إلى عدم الاستقرار ببلاد الشام في ذلك الزمان ، ومن جراء ما صارت عليه حالة الجند .

أجل ، فقد عانت بلاد الشام ، وخصوصا دمشق وحلب الأمرين ، من سفة الجند ، ومن الفن التي كانت لا تنقطع بين هذه الوجاقات . واستمرت الحال على هذه الفوضى حتى تمكن السلطان محمود الثاني من إبادة الإنكشارية وتأليف الجند النظامي ، فدخلت البلاد منذ ذلك في عهد جديد ، خصوصا عقب أن أعلن السلطان عبد المجيد الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات ، التي قال عنها مسيودولافلاي : « إنها لتركيا بمثابة الثورة الفرنسية لفرنسا » .

تناولت هذه التنظيمات الإدارة والجند والمالية . وبمقتضاها أصبحت ولاية سورية تؤلف من ثمانية سناجق ، وهي : دمشق ، بيروت ، طرابلس ، اللاذقية ، عكا ، حماة ، البلقاء ، حوران . أما حلب فقد صارت ولاية مستقلة أيضا . ثم انفصلت بيروت سنة ١٨٨٨ عن دمشق وصارت ولاية نالثة ، وكانت تتألف من :

ألوية بيروت، عكا، طرابلس، اللاذقية، نابلس. أما القدس فقد اعتبرت لواء مستقلا يشمل ما حولها.

هذا، ويلاحظ أن الساحل من بلاد الشام كان أشد حفلا بالأحداث السياسية في عهد آل عثمان من الداخل. ومرد ذلك إلى تماسه أكثر من الداخل بالدول الأجنبية بالبحر، ولأن عهد آل عثمان كان حافلا بالتنازع بينهم وبين أوربة، فتعمل هذه بكيد دهاتها، في الساحل على إثارة الفتن، توصلا لأهدافها الاستعمارية.

زد على ذلك أن ساحل بلاد الشام تقوم فيه جبال تمتد في فلسطين ولبنان واللاذقية، وهي تحكم حكما إقطاعيا، وحكم كهذا يرافقه تنازع أشبه شيء بتنازع العشائر والقبائل.

وأما في إيالتى دمشق وحلب فكانت الأحداث العامة فيهما تصطبغ بصبغة محلية، ولا يسعنا أن نتوسط في هذا الموجز بتفصيل ما وقع من هذه الأحداث، بل نقتصر على الخطوط الكبرى منها، وهي:

(١) الحروب التي وقعت بين ولاية دمشق وحلب من جهة، وبين هؤلاء والأمير نحر الدين المعنى الثانى من جهة أخرى، وذلك من سنة ١٦١٢ إلى سنة ١٦٢٤ م.

وأهم ما فى ذلك ورود أحكام سلطانية بتولية الأمير المشار إليه ديرة «عربستان» من تخوم حلب إلى القدس، ثم ماتلاها من حروب أخرى بين هذا الأمير وبين والى دمشق. وقد روى البارون بوثو Beauvou P 132 الذى زار سورية سنة ١٦٠٤ أن المواصلات بين دمشق وحلب كانت عند زيارته مقطوعة، من جراء القتال بين باشا حلب وباشا دمشق.

(ب) ثورة على باشا جنبلط والى حلب فى عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧ م).

(ح) الفتن بين الجند ، وخاصة بين الإنكشارية والقيقول في دمشق سنتي ١٧٥٥ م ، و ١٧٥٧ م وفتنة ١٨٠٦ م التي أفضت إلى خراب دمشق . وكذا الفتن التي وقعت بين وجاق الإنكشارية والسيدا في حلب سنتي ١٨٠٤ م و ١٨٠٧ م ، واستبداد الإنكشارية بالحكم .

(و) اشتباك والي دمشق وسائر عمال الدولة في بلاد الشام بحرب ضد الشيخ ظاهر العمر والي عكا ، وكان حليفا للملكة كاترينة الروسية ، يستمد منها قوته . وقد انتصر الشيخ ظاهر في بدء الأمر على جند السلطنة ، ولكن روسيا تخلت عنه عند ما عقدت الصلح مع الباب العالي ، فسأقت عليه السلطنة قوة كافية ، وكان جزاؤه القتل سنة ١٧٧٦ م .

(هـ) حملة على بك الكبير على سورية بتحريض روسيا إبان الحرب المشتعلة بينها وبين تركيا ، وقد أتيح لجيوش مصر دخول بلاد الشام ، واحتل قائدها محمد بك أبو الذهب دمشق سنة ١٧٧٦ م ، ولكنه لم يلبث أن تراجع عنها إلى مصر بإغراء السلطنة ، واشتبك مع علي بك المشار إليه بالقتال .

(و) الحروب بين عبد الله باشا والي دمشق وأحمد باشا الجزائر والي عكا ، وما أفضت إليه من قيام حكم الجزائر على إيالة دمشق أيضا . ويقول الأمير حيدر الشهابي عن أحداث سنة ١٨٠٤ م : « في هذه السنة زاد البلبس والظلم في الشام وحصص وحماة ، حتى إنه في شهر واحد تغير على حماة خمسة متسلمون ، وكل متسلم يظلم الرعايا . وهرب أكثر أهل الشام إلى جبل الدروز (يعني الشوف وكسروان في لبنان) وطرابلس ، من كثرة الظلم من الجزائر وقواده . وكانت وفاة الجزائر في ذلك العام مدعاة للاطمئنان ، فعاد الناس إلى أوطانهم » .

(ز) زحف الجيوش من دمشق وحلب وغيرها بقيادة الصدر الأعظم ، لدفع نابليون الأول الذي احتل مصر ، ثم تقدم منها إلى الشام يريد عكا سنة ١٧٩٨ م ، و ١٧٩٩ م .

(ح) تعرض الوهابيين لمشارف الشام (١٨١٧) وتوجيههم الدعوات لأهل البلاد حكومة وشعبا يدعونهم إلى الطاعة ، وقطعهم طريق الحج . وقد صدرت الأوامر إلى ولاية دمشق وصيدا لقتالهم .

(ط) ثورة دمشق على سليم باشا متولى الإيالة ، لفداحة الضرائب التي شرع يتقاضاها ، وتغلّبهم عليه ، وإحراقه سنة ١٨٣١ م .

(ي) زحف إبراهيم باشا على بلاد الشام سنة ١٨٣١ م ، ودخولها في حكم مصر إلى عام ١٨٤٠ م . وقد تخلل ذلك ثورات في حلب ولبنان وفلسطين أخذ بعضها بأعناق بعض ، أهمها : ثورة المسلمين والنصارى ، وثورة نابلس ، وثورة النصيرية ، وثورة الدروز الكبرى . وكان مصدر هذه الثورات على المملكة المصرية فرضها ضرائب لا عهد لبلاد الشام بها ، وسوقها الأهالي للخدمة في صفوف أجنادها . ولكن البلاد شهدت أيضا في هذه الحقبة إصلاحات تناولت النواحي الصحية والإدارية والقضائية ، ومن الإنصاف التنويه بها .

(ك) فتنه ١٨٦٠ م ، الطائفية في دمشق وحاصبيا كما في لبنان ، وحضور اللجنة الدولية للتحقيق ، ونفي بعض الوجهاء ، وإعدام بعض آخر ، وتعويض المنكوبين .

هذه هي الخطوط الكبرى في تاريخ بلاد الشام في عهد آل عثمان ، وكلها فتن من شأنها أن تفضي إلى الخراب . وكان السبب الرئيس فيها ، وقوع تركية خلال القرن الثامن عشر في كوارث خارجية جعلت نفوذها على أصحاب

الإقطاعيات الملتزمين والولاية ضعيفا ، فأخذ هؤلاء العمال يستهينون بأوامرها ، ويمتنعون عن أداء الأموال المترتبة عليهم . وبلغ من تمردهم عليها ، أنها كانت إذا نصبت عاملا مكان آخر رفض المعزول الإذعان لأوامرها ، وانبرى لمقاتلة الوالى الجديد ، وهذه أمثلة على هذا التمرد :

(١) القتال بين جنود الدولة سنة ١٨٠٤ م وبين إسماعيل باشا المتغلب على عكا بعد الجزار .

(٢) القتال الذى دار بين سليمان باشا والى صيدا عند ماعهد إليه الباب العالى بولاية دمشق وبين متسلم دمشق كنج يوسف باشا سنة ١٨١٠ م ، وقد رفض الإذعان لأوامر السلطنة .

(٣) القتال بين درويش باشا والى دمشق حينما عهد إليه الباب العالى بإيالة صيدا ، وبين متسلمها عبد الله باشا سنة ١٨٢١ م . وقد أبى هذا أيضا التنازل عن منصبه .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى أصحاب الإقطاعيات ؛ فكانوا كثيرا ما يتمردون على أوامر أصحاب الإيالات ، ويشتبكون معهم بالقتال .

إلى هذه الخطوط الكبرى فى تاريخ سورية السياسى يمكن أن يضاف ذلك الخلاف الشديد ، الذى كان يجر الحوادث المؤلمة بين طائفتى الروم والكاثوليك ، وخصوصا سنتى ١٧٦١ م ، و ١٨١٧ م فى حلب و ١٨١٣ م فى القدس . كما يمكن أن يضاف إلى هذه الخطوط الحركة الإصلاحية المباركة التى شملت البلاد العربية سنة ١٩١٣ م ، وهى الحركة القومية التى كانت تهدف إلى اللامركزية فى الحكم ، وجعل اللغة العربية لغة رسمية فى الأمصار العربية العثمانية ، وما أفضت إليه من نقاش مداره العرب والترك ، وكان هدف العرب فيه المطالبة بالاستقلال .

ح - لبنان في عهده الإقطاعي :

لما عاد السلطان سليم فاتح مصر والشام من القاهرة إلى دمشق ، جاء أمراء البلاد إليها يؤدون له الطاعة ، وكان في جملتهم الأمير نجر الدين المعني الأول ، وابنه الأمير قرقماس ؛ وتخلف عن المشول بين يدي السلطان الأمراء التنوخيون القائمون بأعمال مقاطعة الغرب بلبنان . لأنهم كانوا من حزب الماليك . وقد أقر السلطان أكثر الأمراء على مقاطعاتهم ، وأوصاهم خيرا بالرعية ، فأصبح الحكم في ساحل بلاد الشام موزعا على الوجه التالي : آل معن على الشوف ، وآل عساف على كسروان وبلاد جبيل ، وأمراء رأس نحاش على الكورة وملحقاتها بالشمال ، وبنو سيفا على عكار ، وبنو شعيب على عرقا ، وآل الصغير وآل منكر وآل صعب على جبل عامل . وانتزع السلطان مقاطعة الغرب (في جنوب بيروت) من التنوخيين ، وعهد بها إلى الأمير جمال الدين أحمد ، وهو من أرومة هذه الأسرة ؛ كما أنه أقر كلا من الأمراء آل شهاب على مقاطعتهم في وادي التيم ، والأمراء آل حرفوش على البقاع ، والأمراء آل طرباي من آل حارثة ، والأمراء آل طوقان والدحاملة ، على مقاطعاتهم في فلسطين .

وهذه العشائر العربية وغير العربية كانت قد نزلت على مقربة من سواحل بحر الشام في أزمان مختلفة قصد المراقبة هناك ضد غزوات البيزنطيين والصليبيين البرية والبحرية ، وكان أشهرها عند الفتح العثماني آل معن ، وآل عساف ، وآل سيفا ، وآل تنوخ . ولما كان تاريخ لبنان في ذلك العهد متشابكا مع تاريخ هذه الأسر ، فقد اخترنا أن نأتي على موجز سيرة كل منها في سياق الحديث عن تلك الحقبة ، وتبيان أهم الأحداث فيها :

(آل معن) :

(٥١٢ هـ = ١١١٨ م - ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م)

هم بطن من ربيعة ، هبطوا الجزيرة في شمالي سورية ، وتقدموا منها إلى حلب فالبقاع لقتال الصليبيين . واتصلت شهرة معن بطغتكين صاحب دمشق ، فأنزله جبل الشوف في بعقلين ؛ وبالتعاون مع أمراء مقاطعة الغرب ، سد معن المنافذ على الصليبيين . وخلفه ابنه الأمير يونس ، ثم حفيده الأمير نحر الدين الأول ؛ وقد أشرنا إلى أن السلطان سليمان الأول أقره على مقاطعته عند الفتح العثماني ، وظل أميراً عليها حتى سنة ١٥٤٥ م .

وهذه أسماء خلفائه وتاريخ وفياتهم :

قرقاس سنة ١٥٨٥ م . نحر الدين الثاني ١٦٣٥ م ، وهو أوسعهم شوكة ومطمحا ، وقد بلغت حدود ولايته من تخوم حلب إلى فلسطين . ملحم بن يونس بن قرقاس سنة ١٦٥٨ . أحمد بن ملحم سنة ١٦٩٧ م . وكانت مدة إمارتهم ٥٧٩ سنة ، وربما كانوا أعظم أمراء ديار الشام شأنًا في عهد العثمانيين .

(آل عساف) :

(٥٧٠ هـ = ١٣٠٦ م - ١٠٠٢ = ١٥٩٣ م)

بعد ثمانى حملات حملها الصليبيون على بلاد الإسلام ، أفضى بهم الأمر للاعتقاد بأن إنقاذ بيت المقدس صعب المنال ، ولما اضطروا للجلاء عن البلاد المقدسة تحولوا إلى الانتقام ، وذلك بغزوات كانوا يشنونها على بلاد الشام من الجزر القريبة التي لجأوا إليها ، ولا سيما قبرص ، فكان هذا التعدي المستمر داعياً أصحاب دمشق إلى تعزيز المراتب في السواحل ، وخصوصاً أن البيزنطيين كانوا لا يزالون يطمعون فيها . وكان ممن جاء للرابطة في لبنان ، عشيرة من التركمان تعرف ببني عساف ، تشمل ولايتهم البقعة

الواقعة بين بيروت وطرابلس . ولما أقر السلطان سليم فاتح الشام الأمير عساف منصور على مقاطعتي كسروان وبلاد جبيل ، اتخذ هذا الأمير قرية غزير (أغزير) مقرا للإمارة ، ولا تزال آثار الدار الفخمة التي إبتناها قائمة حتى الآن ، بما في رحابها من مسجد وحمام ، وكذلك لا يزال جامع الأمير عساف قائما في بيروت ، ويعتبر بعض الأثريين بناء قبة معجزة هندسية . وطالت ولاية الأمير منصور بن حسن من سنة ١٥٥٢ إلى ١٥٨٠ ، وامتدت من بيروت حتى عرقا وما بينهما : البترون ، وبشراى ، والزاوية ، والكورة ، والضنية ، وقد عهد هذا الأمير لأسرة المشايخ آل حبيش ، وفوض إليهم عهدة غزير وما حولها ، مكافأة لهم على إخلاصهم في الخدمة .

ثم انبسط رواق ولاية آل عساف ، حتى امتد إلى حمص وحماة في عهد السلطان سليم الثانى ، ولكن السلطان مراد الثالث رأى أن تعطى إيالة طرابلس إلى أسرة أخرى من الأكراد ، فولى عليها يوسف باشا سيفا ، ورفع من شأنه ، وكانت غاية السلطان تخضيد شوكة آل عساف ، فأدى هذا إلى حروب بين الأسرتين ، وخاصة بين يوسف باشا والأمير محمد عساف ، انتهت بقتل الأمير محمد ، وانقراض سلالة آل عساف ، وقد كانت مدة إمارتهم ٢٨٤ سنة .

(آل سيفا) :

أنعم السلطان على يوسف باشا إيالة طرابلس سنة ١٥٧٩ م ، وظل مستوليا عليها ٤٥ عاما ، حتى وفاته سنة ١٦٢٤ م ، ما خلا فترات من الزمن . وكان هذا الباشا من دهاة العصر ، ومن أصحاب المطامع الواسعة . خلف بنى عساف على بلادهم التي تمتد ما بين بيروت وطرابلس . وكانت جبة بشرى في جملة ولايته ، وعليها مقدم يعتبر في المرتبة الأولى بين مقدمى المواردنة الذين كانوا يحكمون جبيل والبترون وبشرى .

وما إن بلغ يوسف باشا أن الأمير موسى الحرفوش اجتاح جبة بشرى ، حتى تعقبه إلى بعلبك ، ونكبه نكبة قاسية . ولكن السلطنة التي كانت

حريصة على تقليم أظفار كل متول جبار ، أعارت التفاتها إلى الأمير نحر الدين المعنى الثاني ، مذ استفحل شأن آل سيف ، وكانت تعاقب به ابن سيفاً كلها تلكاً عن أداء المرتبات ، أو رفع رأسه متشاكاً وهكذا ، فلم تلق مطامع يوسف باشا مجالاً للانطلاق . ثم تقلص ظل خلفه الأمير قاسم ، حتى اقتصر حكمه على مدينة جبلة ، ولم يعد يقوى على القيام في وجه الأمير نحر الدين ، الذي كان يحظى بمظاهرة الباب العالي ، فاستسلم مع أسرته ، وذهب شأن هذه الأسرة .

(آل تنوخ) :

يرتقى نسبهم إلى النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة ، ويحملون اسم جدتهم تنوخ الذي انتقل بهم إلى الجزيرة في شمال سورية . وقد تقدمت هذه العشيرة من بعد تباعاً إلى حلب ، ف ساحل الشام . وعهد إليها المماليك عواهل مصر وسورية ، بولاية المقاطعة المعروفة بالغرب في جنوب بيروت ، وقد أسلفنا أن السلطان سليماً عزل الأرسلايين عن هذه الولاية ، لأنهم ظاهروا المماليك عليه ، وأقام مكانهم الأمراء آل علم الدين ، وهم من تنوخ أيضاً . ولكن الأمراء الأرسلايين ، استرجعوا من بعد مكانتهم السياسية ، بمظاهرتهم ومصاهرتهم آل معن القيسيين ، خصوم الأمراء آل علم الدين اليميين ، وعادوا إلى حكم المقاطعة التي كانت لأجدادهم ، ودخلت مدينة بيروت حيناً من الزمن في حكمهم . غير أن الدهر لم يصف لهم طويلاً ؛ ذلك أن صهرهم الأمير علي معن المعروف بالرصطوني ، انحاز إلى الحزب اليميني ، ففتك بهم غدراً سنة ١٦٣٣ م في قرية عبية ، وكان هذا آخر العهد بهم في منصة الحكم خلال ذلك العهد .

على أن هناك أسرة أخرى غير الأمراء آل أرسلان والأمراء آل علم الدين ، كانت في جملة التنوخيين الذين شاركوا في حكم لبنان الإقطاعي ، وهم بنو فوارس ، المعروفون بالأمراء اللعينين ؛ وكانوا أصحاب مقاطعة المتن

في شرق بيروت ، ومن الحزب القيسي . والواقع أن تاريخ هذه البلاد كما هو متشابك مع تواريخ الأسر الحاكمة ، فإن تواريخ هذه الأسر ، وخصوصا الأمراء آل علم الدين والأمراء آل معن ، مرتبطة بالحزبين البيني والقيسي ؛ لذلك أصبح من المفيد الإمام بعض الشيء بالتطورات التي أصابت هذين الحزبين ، وما كان للباب العالي من مناصرة الضعيف منهما حتى يقوى ، والتعامل على القوى حتى يضعف ، عملا بالتوازن بين السلطات ، وقصد الاحتفاظ بسلطانه على بلاد الشام .

(القيسية والبينية) :

انقسم العرب الفاتحون منذ عهد الأمويين إلى حزبين : قيسي وبيني . فمثل القيسي المنتمون إلى مضر وقيس عيلان ؛ ومثل البيني عرب البين الذين باشرُوا الفتوح في صدر الإسلام ، فتفاقت الخلافات بين الحزبين في كل جيل وكل بلد ، حتى إن هذه الحزبية انتقلت معهم إلى المغرب والأندلس . على أن هذا الانقسام وإن كان مرجعه التنافس بين العدنانيين والقحطانيين في العهد الإسلامي — تحول مع الزمن إلى حزبية سياسية ، فأصبح قيسيا فريق يرجع أصلهم لليمن ، كما صار بينيا فريق من الحجازيين .

وكان يحمل علم القيسية في عهد آل عثمان في بلاد الشام ، آل معن من عدنان ، ومعهم آل تنوخ ، من أرسلانيين ولمعيين وآل علم الدين ، وكلهم قحطانيون . وظل الأمر على هذا الحال إلى أن تبرأ الأمير علم الدين ابن سليمان سنة ١٣٠١ م من عشيرته التنوخيين ، فرأس الحزب البيني ، وخلفه عليه أبنائوه . وكان آل عساف ، وهم تركان ، وآل هرموش من أنصار هذا الحزب . وربما كان للباب العالي يد في انسحاب هذا الأمير من الحزب القيسي ، وخصوصا أنه مشى بركاب السلطان مراد لحصار بغداد ، وأنعم عليه جلالته بولاية الشوف . ولكن الحظ كان مع ذلك خادما للأمير نحر الدين المعني الثاني ، فانكسف به نجم الحزب البيني ، وبرغم أن ولاية

دمشق من عمال السلطان ، الذين كان يلجأ إليهم الأمراء آل علم الدين ، في كل مناسبة كانوا يحرصون على تحين الفرص لأن يعيدوا إلى آل علم الدين المقاطعات التي كانت لهم ، فإن الأمير نحر الدين ما فسخ المجال في حياته لهؤلاء لأن يرفعوا رؤوسهم ، ولكن ما إن قضى الأمير المعنى نجبه ، وذبل شأن القيسيين من بعده ، حتى خلا الجو لليمنيين وحدهم . فوطد الأمير على علم الدين سلطته ، وجار على أنصار المعنيين ، وخصوصا المشايخ آل الخازن . وكان هؤلاء احتضنوا في كسروان الأمير نحر الدين الثاني المعنى صيدا ، إبان غضب الدولة على آل معن ، ثم أخلصوا له الخدمة كبيرا ، فقر بهم وولاهم . على أن السلطنة لم يكن في وسعها الوقوف مكتوفة اليدين كلما تقرد أمير بلبنان ، واستأثر بالسلطة ، فسأقت حملة تولاهما بكر بكى دمشق سنة ١٦٣٦ م ، على الأمير على ، ونكبته أشد نكبة . ثم أطلقت الحرية لآل معن وأيدتهم ، وكانت إلى ذلك تشغل الحزبين بحروب كان المال يلعب خلالها أشد من السيف ، يئذله الحزبان في سبيل الحصول على رضا الباب العالي ونيل المناصب . أما رجال الدولة فكانوا يمثلون دور القرد الذي وقف وقفة الحكم بين هرتين اختلفتا على قسمة قطعة من الجبن ، ووكتا إليه قسمتها . وكان القرد كلما رجحت إحدى كفتي الميزان اقتطع جزءا من الكفة الراجحة ، وهكذا حتى أكل القطعة كلها . هذا ولما توفي الأمير أحمد ملحم المعنى سنة ١٦٩٧ عن غير عقب ، خلف الأمراء الشهابيون المعنيون على بلاد الشوف ، وتناولوا باليد الثانية زعامة الحزب القيسى ، فاتبعوا سنة أسلافهم التقليدية ، وخفوا لمطاردة الحزب الينى .

وفي أيام الأمير حيدر شهاب أتيح للأمير يوسف علم الدين أن يسترد حكم الشوف سنة ١٧٠٩ بمعاونة بشير باشا والى صيدا ، وعهد إلى الشيخ محمود أنى هرמוש في تدبير شئون المقاطعة ، فاشتدت وطأته على القيسية ، وإذا بالأمير حيدر الشهابي يثب من مخبئه بالهرمل ، ويتمكن بمساعدة حزبه

وعلى رأسه البعيون ومشائخ آل عماد وآل الخازن ، من التشكيل باليمنيين في يوم عين دارة ، والفتك بهم ، وبن عمائم الأمراء آل علم الدين . وكان ذلك اليوم آخر العهد بهم ، فصفا الجو من بعد لآل شهاب زعماء الحزب القيسى .

آل شهاب :

١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م — ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م

الأمراء الشهابيون بطن من قریش ، يتصل نسبهم بمالك بن مرة بن كعب الملقب بشهاب . وقد ولي مالك على حوران في خلافة عمر بن الخطاب ، وتعاقب أبناؤه عليها إلى أواخر القرن الثاني عشر . ثم ارتحل الأمير منقذ إلى وادي التيم (١١٧٢ — ١١٧٣ م) بأمر من السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وأجلى الصليبين عنها . هذا وقد صاهر الشهابيون آل معن ، وحالفوهم ضد اليمنيين ، فلما توفي الأمير أحمد المعني عقيما اختار أعيان البلاد ابن أخته الأمير بشير بن حسن الشهابي أمير راشيا خلفا له ، فانتقل الحكم في لبنان من ذلك العهد إلى الأمراء الشهابيين على الوجه التالي :

(١) الأمير بشير بن حسن الشهابي أمير راشيا (١٦٩٧ — ١٧٠٦ م)
وهو ابن أخت الأمير أحمد المعني .

(٢) الأمير حيدر موسى الشهابي أمير حاصبيا (١٧٠٦ — ١٧٣٢ م)
وهو ابن بنت الأمير أحمد المعني .

(٣) الأمير ملحم حيدر (١٧٣٢ — ١٧٥٤ م)

(٤) الأميران أحمد ومنصور (١٧٥٤ — ١٧٦٢ م)

وقد حكما معا في وقت واحد .

(٥) الأمير منصور (١٧٦٢ — ١٧٧٠ م)

صار الحكم إليه منفردا .

٦) الأمير يوسف بن ملحم (١٧٧٠ — ١٧٨٨ م).

٧) الأمير بشير بن قاسم بن عمر (١٧٨٨ — ١٨٤٠ م).

المعروف بالمسالمى ، نسبة لجزيرة مالطة التى نفى إليها .

٨) الأمير بشير بن قاسم بن ملحم (١٨٤٠ — ١٨٤١ — ١٨٦٠ م)

وبه ختمت ولاية الشهابيين .

وكانت الدولة العثمانية فى عهد أمراء آل شهاب مضغضة الحال ، تشدراحة البال . ذلك أن أمرين جليلين كانا يصرقانها عن الاهتمام بالشئون الداخلية : أولهما رجوع أوربة لفكرة الاتحاد عليها ، باسم التحالف المقدس . وثانيهما قيام روسيا التى دخلت فى المجتمع الأوروبى حديثا بمهمة إجلاء تركية ومحاربتها دون انقطاع ، يحملها على ذلك تشبعها بالفكرة الصليبية .

هذا ، وإن الانكسار الذى منيت به السلطنة خلال هذه الحروب قد اضطرها لتوقيع معاهدتين هما أشأم المعاهدات عليها : معاهدة كارلوفت سنة ١٦٩٩ م . ومعاهدة باساروفت سنة ١٧١٨ م . وكاتهما أفضتا إلى خسران الأمصار ، التى كانت افتحتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى شرق أوربة . ولذلك لما آنست السلطنة فى الأمراء الشهابيين الإخلاص والحرص على جباية الأموال ، وإيصالها للخزانة ، اطمأنت إليهم ، وأطلقت يدهم فى محاربة بقية أمراء البلاد الذين ظلت تخشى جانبهم ، كالأمراء الحرافشة فى البقاع ، والمشائخ آل حمادة فى شمالى لبنان ، ومشائخ بنى على الصغير ، وآل منكر ، وصعب فى جنوبه . وفضلا عن ذلك فإن الباب العالى أمد الشهابيين بالجند والمال ، حتى انبسطت رقعة نفوذهم فى بعض الأوقات ، من صيدا إلى طرابلس . ومن الأحداث التى وقعت فى عهد الشهابيين قيام حزبية جديدة على أنقاض حزبي : قيس واليمن ، وهذا ما نلم به بالكلام على الجنبلاطية واليزبكية ؛ غير أن هذا الانقسام الحزبى كان موضعيا ولم يتجاوز لبنان .

الجنبلاطية واليزبكية :

كان علي باشا جنبلاط (جان بولاد) صاحب حلب من قبيلة كردية تعرف بالتفكجية . وقد بلغ أيام السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧ م) من سعة النفوذ ما جعل سلطته في سورية فوق كل سلطة ، وكان مرد ذلك إلى اشتغال السلطان بحروب مع الفرس والنمسا ، كانت نزيجتها وخيمة العاقبة على جيشه وأسطوله . وقد أراد علي باشا اغتنام هذه الفرص للاستقلال التام ، أسوة بالأمير نخر الدين المعني الثاني ، الذي كان يقاسمه هذا المطمع بلبنان ، وإذ لم يقو يوسف باشا سيفاً والى طرابلس على ردهما إلى الطاعة ، خشي السلطان مغبة تفاقم الأمر ، فأرسل وزيره مراد باشا لتأديبهما ، فاستطاع أن ينكل بجيش علي باشا ، ثم لما تقدم لإخضاع الأمير نخر الدين ، قابله ابن معن بالهدايا الثمينة والخضوع ، والهدايا الثمينة كانت في ذلك العهد أبلغ شفيح عند الوزراء ، فوقف مراد باشا الزحف ، وأنعم على الأمير علي ابن الأمير نخر الدين بإيالة صيدا .

وفي خلال النكبة التي أصابت علي باشا جنبلاط عند لقاء عسكر السلطان ، فر ولده ، واحتمى بالأمير نخر الدين بن معن صديق أبيه ، فأنزله الأمير في المختارة بلبنان ، وهذه القرية وما يليها إلى جبل عامل كانت كهذا الجبل أهلة بالطائفة الشيعية ، وأقام ابن جنبلاط في المختارة ، والثروة الواسعة التي أصبحت تتمتع بها ذريته ساعدتها على أن تلعب دوراً رئيساً في تاريخ البلاد . وفي حكم الأمير ملحم حيدر الشهابي (١٧٣٢ - ١٧٥٤ م) انقسم الناس إلى حزبين : حزب الشيخ علي جنبلاط ، وسمي بالجنبلاطي ، وحزب الشيخ يزبك عماد ، وسمي باليزبكي . وبنو عماد هم إحدى الأسر السبع التي وفدت من معرة النعمان إلى لبنان ، وكانت وقتئذ من أصحاب الإقطاعات . وقد توالى الشهابيون فيما بعد على رئاسة الحزب الجنبلاطي ، كما استمر العماديون

على رئاسة الحزب المسمى إليهم . ولكن لما دب الخلاف بين الأخوين الشهابيين حاكمي لبنان : الأميرين أحمد ومنصور ، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر ، تحولت رئاسة الحزبين إلى الشهابيين ؛ ورأس الأمير منصور الحزب الجنبلاطي ، حين رأس الأمير أحمد الحزب اليزبكي . وظل هذا الانقسام الحزبي قائماً طوال عهد آل عثمان . غير أن زعامة كل من هذين الحزبين انتقلت من بعد ، وخصوصاً في عهد متصرفية لبنان الممتازة ، من حوزة الأمراء آل شهاب إلى غيرهم ، وصارت زعامة الحزب اليزبكي إلى الأمراء آل أرسلان حين رأس آل جنبلاط في دورهم الحزب الجنبلاطي . ويمكن أن يقال إن هذا الانقسام الحزبي وإن احيى في الظاهر ، إلا أنه لا يزال في الحقيقة موجوداً بين صفوف الطائفة الدرزية .

د - إيالة صيدا :

كانت مدينة طرابلس المقر الرئيس لعامل السلطنة ، في ساحل الشام ، فانتزعت صيدا هذه المكانة منها ، وظلت كذلك حتى اتخذ الجزائر عكاً قاعدة لإيالاته ، وكانت فلسطين داخلية في نطاقها . على أن الأحداث التي جرت في هذه الإيالة تعتبر من أهم أحداث العصر ، وخصوصاً عهد الزيادة والجزار ، ولذلك فإننا إذ نلم بأخبار هذا العهد ، نكون كأننا أرخنا أهم أحداث تلك الإيالة .

المشايع الزيادة :

أسرة الزيادة ترجع في النسب إلى الشيخ زيدان من عرب الطائف . وافي هذا الشيخ فلسطين ، ثم نزل في بلاد الشاغور سنة (١١٠٢ هـ = ١٦٩٠ م) فاشتهر ، وزعم على تلك المنطقة ، مما حمل قبلان باشا المطرجي والي صيدا ، على أن ينصبه على هذا القضاء ، وظل الشيخ زيدان حاكماً عليه مدة

عشر سنين . وخلال ذلك ترك بيوت الشعر ، وابتنى له دارا جميلة في عرابة ،
وأخرى في دير حنا . ثم اعتنم الفرص ، فعمد إلى بسط حكمه على ما يجاوره
من المقاطعات ، فاستولى على ثلاث منها بالسيف ، وأربع بالإخضاع
السلي . وكان من جعلتها كل من مدن صفد الناصرة ، وطبريا ويافا وحيفا .
وقد خلفه ابنه الشيخ صالح (١١٣٠ هـ = ١٧١٧ م) ثم عمر (١١٣٥
= ١٧٢٢ م) ثم الشيخ ظاهر العمر (١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م) فجری
هذا حتى سنة ١١٦٠ هـ على غرار سياسة أسلافه ، من حيث الخضوع
للأستانة ، وتأدية المرتبات المفروضة عليه في أوقاتها ، ولكن هذا العام
سجل بداية التقاطع بينهما ، وكان ذلك لوحشة وقعت بينه وبين عثمان باشا
والى صيدا ، فوشى به الباشا إلى الباب العالي ، وما زال يوغر صدره عليه ، حتى
أفضى الأمر إلى تجريد حكومة الأستانة حملة على الشيخ ظاهر العمر ، عززتها
بقوة من دمشق ، ولكن النصر كان حليف هذا الإقطاعي ، فدخل عكا
فاتحا سنة ١١٦٣ هـ = ١٧٤٩ م . ثم جاءت الظروف السياسية مواتية له ،
فاستقر له الأمر في هذا الثغر الحصين ، وفيما حوله من الإقطاعات ، وحكم
حكما مستقلا . وكان سبب ذلك أن تركية كانت في حرب مع روسيا ،
خفت الملكة كاترينة الثانية لإمداد الشيخ ظاهر بالعتاد والذخائر ، وأرسلت
إلى عكا صنعا للدفاع نقشوا عليها اسمه ، كما أنها أعدت أسطولها في البحر
المتوسط ليكون عون له . ولما زحف الجيش العثماني من دمشق ، لقتال
الشيخ ظاهر ، أوعزت روسيا إلى على بك الكبير حاكم مصر ، الذي كان
متواطئا معها أيضا على السلطنة ، أن يزحف لإنجاده ، فساق حملة استطاعت
أن تطارد جيش دمشق حتى ضواحيها . كما أنه لما حاول والى صيدا السير
لقتال الشيخ ظاهر ، بالاتفاق مع الأمير يوسف شهاب عامله على بيروت
في غضون سنة ١١٨٥ هـ = ١٧٧١ م - بادرت العمارة الروسية لمناصرة الشيخ
ظاهر ، وكادت تفتح بيروت عنوة ، لولا أن الأمير الشهابي تدارك الأمر

وصالح الشيخ على مال يفقدى به المدينة ، وعلى مبلغ آخر يقدم للأمير
الأسطول الروسى .

وهكذا ، بعد أن تم للشيخ ظاهر القضاء على جيشى دمشق وصيدا ،
أصبح سيد الموقف ، وأعظم أمراء بلاد الشام ، بل أصبح فى الواقع ،
مرجعا لأولى الإقطاعات ، بعد انهيار نفوذ الباب العالى ، فلما أراد أحمد
الجزار ، وكان عاملا للأمير يوسف الشهابى على بيروت ، أن يستقل دونه
فى هذا الثغر ، ولم يسمع الأمير إلا أن يستجير بالشيخ ظاهر ، إذا بالأسطول
الروسى يحتل بيروت عنوة ، وإذا به يعيدها إلى الأمير لقاء ثلاثمائة ألف
قرش فدية .

وقد حكى لى المرحومة عمتى آمنة ، التى عمرت وسمعت من شهد هذا
الاحتلال ، أن مناديا سار وقتئذ ينادى فى أسواق بيروت ، بأمر قائد
الأسطول الروسى المحتل ، ويقول : « سلطان ملطان ما فى ، ما فى إلا الملكة
كاترينة » . وكان ذلك فى حكم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ = ١٧٨٩) .
وكأن الباب العالى أراد أن ينتزع الشيخ ظاهرا العمر من أحضان روسيا ،
فاضطر لإصدار العفو عنه ، وثبته على ما فى يده سنة ١٧٧٤ م ، وكان حكمه
يشمل صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة ونابلس وأربد وصفد وبلاد بشارة
فى جبل عامل ، فضلا عن أن الباب العالى جعله قيما على إقطاع الأمراء
الشهابيين أيضا ، فأمر عثمان باشا المصرى المتولى على دمشق وقتئذ ، الأمير
يوسف الشهابى ، أن يؤدى من ثم الأموال السلطانية المرتبة على مقاطعته إلى
الشيخ ظاهر مباشرة ، كما روى ذلك الأمير حيدر الشهابى ، ولكن الآستانة
لم تكن فى الواقع حسنة النية نحو هذا الشيخ ، وما إن عقد الصلح بينها
وبين روسيا ، وتم ارتفاع الأسطول الروسى من بحر الشام ، حتى سارعت
لإصدار أوامرها إلى كل من أحمد باشا الجزار والى صيدا ، وحسين باشا

أمير البحر ليسيرا على الشيخ برا وبحرا حملة لاقبل له بلقاءها ، ففعلا وشددا الحصار على عكا ، تشديدا اضطر الشيخ ظاهرا إلى النسيب سنة ١٧٨٠ م . ولما خرج منها ليقدم الطاعة إلى الدولة قطع أحد أعوانه رأسه . فأنهت بهذه المأساة رواية المشايخ الزيدانية .

أحمد باشا الجزائر :

١١٩٠ هـ = ١٧٧٦ م - ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ م

في خلال النضال بين الأمراء الشهابيين والشيخ ظاهر العمر ، وفي أثناء سقوط نفوذ السلطنة في بلاد الشام وغيرها ، وإبان تقاتل عمالها بعضهم مع بعض حتى كأنهم مستقلون ، برز إلى الميدان السياسي الرجل الذي كان للعثمانيين في سورية كالحجاج النقي للأمويين بالعراق ، فأُنقذ الموقف . وهو أرنتوطي الأصل ، دخل في خدمة علي بك الكبير بمصر ، ثم في خدمة والي دمشق . واتصل من بعد بالأمير يوسف الشهابي ، فنصبه هذا متسلما على بيروت ، التي كانت مهددة من قبل الأسطول الروسي ، فطمع الجزائر بهذا الثغر ، وكاد يستأثر به لولا أن جاء الأسطول الروسي نفسه بدعوة من الأمير الشهابي ، وانتزعه منه . وكان السلطان خلال الحرب القائمة بينه وبين روسيا ، يتلصص الوسيلة لإنقاذ البلاد العربية من دسائسها ، وسرعان ما وجدت الوساطات التي لجأ إليها أحمد آغا الجزائر في القسطنطينية قصد الاعتماد عليه آذانا مصغية فيها ، وإذا به ينصب متوليا على إيالة صيدا سنة ١٩٧٦ م مع لقب الوزارة والباشوية . وقد وفي الجزائر فعلا بما وعد ، فكانت باكورة أعماله القضاء على الشيخ ظاهر العمر ، وعلى دولته وأسرته . ولما انتقل الجزائر من صيدا إلى عكا ، ضم إلى ولايته الإقطاعات والبلاد التي كانت للشيخ المشار إليه . ثم تحول إلى بقية زعماء الإقطاعات يستخضعهم واحدا بعد واحد . وقد اغتتم

فرصة الخصام الذي كان مستحكما بين الأمير يوسف الشهابي وبين مشاخر آل صعب زعماء جبل عامل ، لضرب الفريقين وإذلالهم . وكما استعمل العنف والقسوة في بلاد بشارة والشقيف مع أهلها ، ولا سيما الزعماء منهم والعلماء ، حتى أذلهم ، فقد تمكن أن يحول أصحاب الإقطاعات في لبنان إلى جباة للدولة ، لا إرادة لهم غير إرادته ، وهو في سبيل ذلك كان يعمل دائما على إثارة الحزبين اليزبكي والجنبلاطي أحدهما على الآخر ، ويسعى لتحريك النعرات الطائفية بين النصارى والدروز ؛ فضلا عن بعثه الخصومة بين الأمراء الشهابيين أنفسهم ، وتلويحه دائما لكل منهم بكرسى دير القمر . وهكذا بقي زعماءهم شاخصين إليه يستوحيون الأوامر ،

وقد قدرت السلطنة له تلك السياسة التي حفظت لها البلاد ، ولما اعترم سنة ١٧٩٥ م أن يقوم بفريضة الحج ، ورد إليه مع الإذن بالسفر ، فرمان يؤذن بضم ولاية الشام إلى عهده ، وكذلك مرسوم آخر بإمارة الحج ؛ فأصبح الجزار بذلك الحاكم المطلق في ديار الشام .

هذا ، وقد عززت حملة نابليون على سورية سنة ١٧٩٩ م مكانة الجزار للشجاعة التي أبدأها في الدفاع عن عكا فحسب ؛ بل للظروف التي رافقت هذه الحملة ، فجعلته مطمئعا أنظار الإنكليز والعثمانيين جميعا . فكان الصدر الأعظم ، الذي يقود حملة السلطنة لقتال نابليون ، يتوخى رضاء الجزار وإقباله ، كما أن الأميرال سميث قائد الأسطول الإنكليزي الم رابط في السواحل السورية ، كان يحاول أيضا استرضاءه ، ذلك لأن نابليون لم يكن ينوى الوقوف عند عكا ، بل كان يطمح أن يبلغ القسطنطينية بطريق الشام . وفي عنفوان هذا العز الذي أدركه الجزار وافاه الأجل سنة ١٨٠٤ م فكان نعيه قاسيا على الباب العالي ، ولكنه كان سارا للرعية ، ولا سيما أمراء المقاطعات الذين أصبحوا بين أصابعه كتمثيل « قره كوز » ، يتصرف بها كما تشاء أهواؤه .

هذا ، وكان إسماعيل باشا سنجينا في عكا ، فأطلق (كينخية) الجزار سراجه ،
ونادى به متوليا ، ولكن الباب العالى لم يقره على ذلك ؛ بل ساق إليه حملة
أزاحته عن الحكم ، ونصبت سليمان باشا متسلما مكانه . وكان هذا حكما
رحيما منصفافوق لمدير للخزانة أحسن الخدمة والمشورة ، وكان يهوديا
يدعى حايم فارحى .

وفى عهد هذا المتولى تنفس الأمير بشير الشهابى الكبير الصعداء ،
وأدرك عصره الذهبى . أما السلطنة فقد وجدت فى سليمان باشا خير خلف
لخير سلف ، ومنحته ثقته ، إلى حد أنه لما تعرض الوهايون لطريق الحج ،
نصبته على إيالة دمشق ، فجمع بذلك بين الإيالتين فى الساحل والداخل ،
ولكن الأجل لم يمهل ، فقتضى سليمان باشا نخبه سنة ١٨١٩م ، وخلفه على إيالة
صيدا عبد الله باشا . وكان هذا كالجزار طمعا فى المال ، وفتكا بالرعية ،
وضغط كل الضغط على الأمير بشير الشهابى وغيره . وقد نقم عليه اليهود
فى قاعدة الدولة ، على أثرتله حايم فارحى المشار إليه ، وما زالوا يوغرون
صدر السلطنة عليه ، حتى استصדרوا فرمانا بعزله ، وإلحاق صيدا بإيالة
دمشق . غير أن عبد الله لم يذعن ، بل خف لقتال جيش دمشق ، وحمل
فى نفس الوقت محمد على باشا عزيز مصر أن يتوسط للصفو عنه ، وإبقائه
فى منصبه ، فكان له ما أراد ، غير أن العلاقات لم تلبث أن تبدلت بينه وبين محمد
على الكبير ، فزحف جيش مصر إلى عكا ، وفتحها عنوة ، وسبق عبد الله
باشا إلى القاهرة .

هـ — الحكم العلوى المصرى فى بلاد الشام :

من ١٢٤٧ = ١٨٣١ إلى ١٢٤٩ هـ = ١٨٢٣ م

بيننا فى الكلام على مصر كيف ولماذا اكسح الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا بلاد الشام ، واجتازها إلى الأناضول فى طريقه إلى الآستانة ، وما رافق ذلك من الأحداث السياسية التى حملت مصر على الانسحاب . وكان الأمير بشير الشهابى الكبير حاكم جبل لبنان على اتفاق مع محمد على الكبير فى أثناء هذه الحملة ، تؤيدهما فرنسا تأييدا سافرا ، إلى حد أنها كانت تشترك فيها بشخص سليمان بك الفرنسى .

ولما برزت بريطانيا إلى الميدان ، شرع عمالها يحرّضون أهل البلاد على خلع طاعة عزيز مصر ، فما إن اتفق إبراهيم باشا مع الأمير بشير على جمع الأسلحة ببلبان ، حتى وقعت الواقعة فيه ، وكان على رأس الثائرين الأمراء والمشائخ الذى كانوا فى التناقين على هذا الأمير الشهابى .

ويزعم بوجولات Poujoulat T II P.338 أن الضرائب التى فرضتها الحملة المصرية فى بلاد الشام بلغت ١٤ مثلا لما كانت عليه زمن العثمانيين ، لذلك كان عمال لندن يجدون فى فداحة هذه الضرائب ، وتدمير الشعب منها ومن النظم الحديثة التى وضعها المصريون ، مجالا رحبا لدعاياتهم ضد هؤلاء ، خصوصاً حينما اضطرت الحاجة إبراهيم باشا إلى مباشرة التجنيد الجبرى . فكانت ثورات امتدت من حلب إلى نابلس ، بلغ من حدتها أن الثائرين فى السامرة حصروا إبراهيم باشا بالقدس ، واضطروه للتوقيع على عهد يتعهد به بالكف عن التجنيد ، وإعادة مستوى الضرائب إلى ما كان عليه زمن عبد الله باشا والى عكا .

ولما انتقل الخلاف الذى كان بين إنكلترا وفرنسا بشأن الحملة المصرية

إلى نطاق المؤتمرات الدولية ، رجحت كفة لندن على باريس . وإذ لم يذعن محمد على الكبير لقرارات المؤتمر ، خف بعض بوارج الدول الموقعة على تلك القرارات إلى الساحل السوري ، وأطلق النار على بيروت . وإذا بعشرة آلاف مقاتل إنكليزي وتركي ينحدرون من السفن الإنكليزية إلى البر ، ويوزعون الأسلحة على الثائرين . وحينئذ لم يسع قائد الحملة المصرية إلا الانسحاب (١٨٤٠) .

وكان أول عمل باشره القائد العثماني بالاتفاق مع المستر فود الإنكليزي ، أن أصدر فرمانا بعزل الأمير بشير الشهابي المشار إليه ، الذي أتى طائعا إلى صيدا ، وألقى سلاحه بين يدي واليها خالد باشا ؛ وقد نفى إلى مالطة ، ثم سمح له بالرجوع إلى الآستانة ، ومات فيها سنة ١٨٥٠ ، وبقي رفاته هناك ، حتى نقل إلى لبنان أواخر سنة ١٩٤٧ .

و — لبنان ذو السكبان السياسي :

كان لبنان في عهده الإقطاعي اسما جغرافيا يقسم إلى قسمين : يتبع أحدهما إيالة صيدا ، ويتبع الآخر إيالة طرابلس . وهما يتصلان في المكان المعروف بالمعاملتين ، على مقربة من جونبة .

وما خلا عهد الأمير نحر الدين المعني ، الثاني الذي انبسطت فيه ولاية هذا الأمير من حلب إلى فلسطين ، ظل لبنان تابعا لهاتين المعاملتين ، ولا يتعدى استقلاله حرية الحكم الإقطاعي ضمن نطاق السلطنة .

هذا ، وما انسحب المصريون من لبنان حتى أمسى فريسة للاضطرابات الطائفية والشعبية ، وكان ذلك نتيجة للعراك السياسي فيه بين الدول المستعمرة ، ولا سيما فرنسا الموثورة بسبب إخفاقها في حملة مصر .

وكانت فن بين الدروز والنصارى ، بدأت منذ سنة ١٨٤٣ وانتهت بمذبحة سنة ١٨٦٠ . وبهذه الدماء المراقبة ظلما خط لبنان نظامه الجديد في عهد المتصرفية الممتازة ، وقام كيانه الإدارى المستقل .

ز - الطائفية بلبنان مكان الحزبية السياسية :

كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) شديد الرغبة في التنظيم والتجديد ، كما كان معجبا بنابليون الأول . فلما أتيح لنابليون أن يتبوأ رئاسة الجمهورية الفرنسية ، وقع هو والسلطان معاهدة صلح سنة ١٨٠١ ، قضت بتوسيع امتيازات فرنسا في السلطنة . وقد اتخذت باريس هذه الامتيازات مطية لها من بعد للعمل على الدعايات في سورية خاصة ، على أمل أن يكون لها السهم الأوفر من إرث الرجل المريض . وكان هذا المسعى من جانب فرنسا حافزا في نفس الوقت لكل من إنكلترا وروسيا على الاهتمام بشئون تركية اهتماما أشد مما كان قبلا ، على أمل أن يكون نصيب كل منهما في الإرث حصة الأسد . فكان نزاعا بين الدول الكبرى في هذا الميدان ، عرف في مصطلح السياسة بالمسألة الشرقية . وكانت تركية خلال هذا التنازع ، ترى إلى جانبها تارة هذه الدولة ، وتارة تلك ، بمقتضى المصالح الدولية المتضاربة وتطورها . وفوق ذلك كانت كل دولة من هذه الدول الكبرى تعمل على توثيق نفوذها في أوساط بعض الرعايا العثمانيين ، واستمالتهم إلى ناحيتها . وهكذا فيما كانت فرنسا تأخذ إلى جانبها الموارنة واللاتين ، كانت بريطانيا العظمى تستميل الدروز ، كما كانت روسيا تتحجب إلى الروم الأرثوذكس . أما تركيا فإنها اضطرت حيال تدخل الأجانب في شئونها الداخلية تحت ستار حماية المسيحية ، إلى إثارة الاتحاد الإسلامى ، والتهويل على المسلمين بمغبة الخطر الأجنبى . ومن جراء هذه الانقسامات التى قامت على أساس الطائفيات ، انقلب الرأى العام الذى كان يتمثل من قبل

في الأحزاب السياسية : قيس ويمن ، ويزبكى وجنبلاطى ، إلى الخمس بنزعات طائفية . وسرعان ما بدا هذا التفسخ قائما بين الشعب اللبناني على أساس الطائفيات ، وتطير شرور الفتن .

وقد علل الدكتور مشاققة أسباب هذه الفتن بقوله : « وشرعت الدولة في تحصيل الخراج من الأهالى ، كما كانوا يدفعون إلى الأمير بشير المالى ، فالدروز لم يعترضوا على مطالبيها ، إنما النصارى اعترضوا وشفعوا اعتراضاتهم بالبراهين المعقولة ، وأخذوا يعقدون الجلسات ، خصوصا أهالى كسروان ومن جاورهم ، وأكثروا من الشكوى ، وادعوا الفقر والعوز وقحل الأرض ، واستشهدوا بفقراء لبنان المنتشرين بمدن سورية وقرائها . وأن ثلاثة أرباع الأراضى بملك المشايخ والأمرأ والأديرة ، وتسعين بالمائة من هذه الأملاك معفى من الخراج . وبلغت القحمة والجهالة بهم إلى تهديد الدولة بالعصيان » . إلى أن يقول : « وأصبحت الدولة بعد مجاهرتهم علنا بعزمهم على شق عصا الطاعة عليها لاتأمن جانبهم ، وخصوصا بعد تصريحهم بأنهم ينتمون إلى دولة أجنبية إذا لم تأخذ بيدهم على رفع الجزية عنهم » .

ويظهر أن الباب العالى قدر عاجلا هذه العاقبة ، وأخذ يلجأ لدفع هذا الشر بمثله ، وذلك بإثارة الحمديين على أنصار فرنسا من المسيحيين ، وظن أنه باستبدال مصطفى عمر باشا النمى بالأمير بشير قاسم الشهابى حاكما على لبنان يحسن صنعا . ولكن الأيدى الأجنبية لم تترك لهذا العالم الجديد مجالاً للعمل ، فازداد الشقاق استفحالا . وقد احتج مشلو الدول لدى السلطان عبد المجيد على تعيينه ، وطلبوا إعادة الولاية إلى آل شهاب ، ولكن وزارة الخارجية بالاستانة رفضت طلبهم ، لأنها لم تعد تثق بهذه الأسرة بعد أن تأمر الأمير بشير الكبير على السلطنة ، وخصوصا أنها قد تأكد لها ارتباط آل شهاب بفرنسا التى كانت تصر على إعادتهم للحكم . ومن المؤسف أن البلاد شرعت تتجه ، منذ ذلك الحين ، اتجاها طائفيا شمل حتى التشكيلات الإدارية .

وعلى هذا الأساس نجد أسعد باشا الذي عهد إليه بمنصب ولاية صيدا وقتئذ ، قد أفضى به الدرس أن يقترح قسمة لبنان إلى قائمقاميتين : قائمقامية النصارى ، وقد ولى عليها من بعد اثنان من آل أبي اللع ، وقائمقامية الدروز ، وقد ولى عليها ثلاثة من آل أرسلان ، وكان هذا التقسيم بما أيقظ النعرة الطائفية على وجه أكمل ، فآل الأمر إلى حدوث فتنة سنة ١٨٤٥ م . ولما كانت هذه الفتن غير حاسمة ، وكان روح التمرد لا يزال يتفاقم بفعل الدسائس الأجنبية . لم تكد ثورة العامة على المشايخ آل الخازن في كسروان تخمد ، حتى نشب القتال بين الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ م . وهم في الواقع إنما كانوا يساقون إلى هذه المذابح سوق الأغنام إلى المجازر في سبيل منفعة الأجانب .

وكان لحوادث سنة ١٨٦٠ أسوأ الأثر ، وقد شاء السلطان عبد المجيد أن يخفف من تأثيرها ، فبادر إلى إرسال الصدر الأعظم فؤاد باشا إلى سورية ، معتمدا فوق العادة ، فشنق هذا في دمشق وبيروت من شنق ، ونفى من نفى ؛ كما أن فرنسا ساقطت إليها أيضا باسم الدول الأوروبية حملة عسكرية ، وأوفدت كل واحدة من الدول الكبرى : فرنسا ، وإنكلترا ، وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا مندوبا إلى بلاد الشام . وقد تألفت منهم لجنة دولية برئاسة فؤاد باشا ، وانتهى بها البحث إلى وضع نظام لبنان سنة ١٨٦١ الذي قضى على عهد الإقطاعات ، وصدرت به الإرادة السنية في سنة ١٨٦٣ م .

ح — متصرفية لبنان الممتازة :

إن هذا النظام ، وإن لم يتزعزع لبنان من جهاز السلطنة العثمانية ، لأن حاكمه ظل ينصب من قبل الباب العالي ، ويرجع إليه في مهام الأمور ، فضلا عن أن ممارسة الأحكام بقيت تحت إشراف السلطنة — لكنه مع ذلك قد جعل للدول حق الموافقة على تسمية الحاكم الذي يختاره الباب

العالي ، وحق المساهمة في الإشراف على تطبيق النظام .
وهذه أسماء المتصرفين الذين تعاقبوا على حكم لبنان منذ سنة ١٨٦١ م إلى ١٩١٥ م ، وأهم الأحداث التي جرت في عهد كل منهم :

(١) داود باشا « الأرمني » : (١٨٦١ — ١٨٦٨ م) .
ثورة يوسف بك كرم ، التي أفضت إلى نقل يوسف بك إلى فرنسا سنة ١٨٦٨ م ، ثم صرف بقية حياته في نابولي . اتهم المتصرف بأنه يعمل على الاستقلال بلبنان ، فأقيل من منصبه .

(٢) فرنكو باشا « الحلبي » : (١٨٦٨ — ١٨٧٣ م) .
قضى لبنان في عهده مدة تمتع فيها بشئ من الاستقرار . ويؤخذ على هذا المتصرف أنه سأل سهل البقاع عن المتصرفية ، وسمح بانضمامه إلى سورية .

(٣) رستم باشا « الحلبي » (١٨٧٣ — ١٨٨٣ م) .
شهر حربا على الإكليروس ، وحمل الباب العالي على نفي المطران البستاني . كافأته الدولة على إخلاصه بانتدابه سفيراً لها في لندن .

(٤) واصه باشا « الألباني » : (١٨٨٣ — ١٨٩٢ م) .
اختلفت أحوال المتصرفية في عهده ، فازدادت الهجرة من لبنان ، وخصوصاً إلى أميركا .

(٥) نعوم باشا « الحلبي » : (١٨٩٢ — ١٩٠٢ م) .
تصرف تصرف الحكيم ، خصوصاً خلال حوادث كسروان ، وعين بعد انتهاء مدته من المتصرفية سفيراً في باريس للأمبراطورية العثمانية .

(٦) مظفر باشا « البولوني » : (١٩٠٢ — ١٩٠٧ م) .
كان نزيها عادلا ، أراد أن يضعف نفوذ الإكليروس ، وذلك بتأييد الماسونية وجمعياتها ، فحدث من جراء تصادم القوتين بعض الاضطرابات .

(٧) يوسف باشا فرنقو « الحلبي » : (١٩٠٧ - ١٩١٢ م) .
أعلن الاتحاديون الدستور العثماني خلال وجوده متصرفا على لبنان ،
فاشترك لبنان في المجلس النيابي بإستامبول ، وكان له أعضاء فيه . وقد
تألفت بلبنان خلال ذلك الجمعيات الكثيرة ، للمطالبة بالإصلاح ، فأظهر هذا
المتصرف رغبة صادقة في تحقيق أمانها .

(٨) أوهايس قيوجيان : (١٩١٢ - ١٩١٥ م) .
جنح إلى معاضدة الجمعيات اللبنانية في المطالبة بالإصلاح ، وفي طليعتها
جمعية الاتحاد اللبناني بمصر وفروعها في أوربة وأمريكا ، وكان الاتحاديون
يعتبرون أن هذه الجمعيات إنما تتحرك بأيد غربية ، فأوغر عطف المتصرف
عليها صدرهم ، فعزلوه .

ط - لبنان خلال الحرب العالمية :

(من ١٣٣٣ = ١٩١٤ إلى ١٣٣٧ = ١٩١٨ م)
أعلنت الحرب العامة في أثناء ما كان قيوجيان باشا متصرفا على لبنان ، فلم
يتعرض له الاتحاديون في بداية الأمر ، لأن سياستهم في السنة الأولى من
الحرب كانت سياسة مصانعة بالبلاد العربية ، كما أنهم لم يتعرضوا لنظام
لبنان ، ولكنهم قلبوا ظهر المجن للعرب حينما اطمأنوا لعاقبة الحرب ،
فوضعوا يدهم على جهاز الحكم في لبنان ، وتصرفوا في شئونه تصرفهم المطلق
في سائر أقسام السلطنة ، ومع ذلك حاولوا أن يتظاهروا بمراعاة نظام
لبنان الخاص في بعض النواحي ، فلم يجندوا أبناءه ، ولم يستوفوا منهم
الضرائب إلا ما تقرر في ذلك النظام .

وأما من حيث نصب المتصرفين ، ومراعاة الأوصاف الخاصة فيهم ، وهي
التي نص عليها نظام لبنان ، فما تقيدوا بشيء من ذلك ، بل كانوا ينصبون
المتصرفين مباشرة وعلى حسب اختيارهم ، وهذه أسماء الذين تعاقبوا منهم
على الحكم خلال الحرب العالمية الأولى :

- (١) على منيف بك (١٩١٥ - ١٩١٧ م) .
 - (٢) إسماعيل حقي بك (١٩١٧ - ١٩١٨ م) .
 - (٣) ممتاز بك (من تموز إلى ٣٠ أيلول سنة ١٩١٨ م) ، وكان آخرهم .
- على أن الاتحاديين وإن حاولوا التظاهر بمراعاة نظام لبنان الخاص خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أنهم عملوا ، من جهة أخرى ، على إجاعة لبنان وبيروت ، وكانت لهم في ذلك مآرب سياسية ، على رأسها صرف الأذهان عن الإصغاء للدعائيات الأجنبية ، التي كانت تجد هنا آذانا مصغية إلى تأمين المعاش والرفيف .

العراق خلال الحكم العثماني

١ — مراحل تاريخ العراق :

العراق في عهد المغول والترك والفرس :

استحالت بغداد في يوم واحد ، وأعنى به يوم هلاكو من مركز للسلطة العربية الإسلامية لا مثيل له ، إلى قاعدة حقيرة من قواعد الأباطورية الإيلخانية المغولية ، ومنذ نكبة هلاكو هذه حتى دخول بغداد في حوزة آل عثمان ، مرت عليها ثلاثة قرون على دارالسلام ، يمكن أن تقسم إلى أربع مراحل على الوجه الآتي :

(١) ٨٠ عاما عاصمة لحكومة من حكومات المغول في إيران ، وهي الحكومة الإيلخانية .

(٢) ٧٠ عاما مركزا للحكومة الجلائرية ، وهي فرع من الدولة الإيلخانية ، وتنسب إلى أحد ولاتها حسن الجلائري ، الذي أعلن استقلاله عن هذه الدولة .

(٣) ١١٠ سنين أي منذ عام (٨٠٤هـ = ١٤٠١م) في حوزة القره قويونلي من التركمان .

(٤) ٢٦ سنة تحت سلطة الفرس ، فقد اكتسحتها دولة الصفويين إثر فتح الموصل سنة (٩١٤هـ = ١٥٠٨م) وفرضت على صاحب البصرة إتاوة سنوية .

وتمتعت العراق بربع قرن من السلم والهدوء في المرحلة الرابعة ، وخصوصا في عهد الشاه إسماعيل ، ولكن قدر لها أن تتأهب من جديد

لتكون ميدان عراك بين الفرس والترك ، وقدر على أهلها أن تتلاعب بهم أهواء هؤلاء المتنازعين ، فتراق دماؤهم الزكية في معارك مذهبية ، كان أهل الشيعة والسنة على السواء برآء من إثمها . ويرى بعض المؤرخين أن مذبحة السنين في بغداد ، التي ارتكبها الفرس في عهد الدولة الصفوية ، أثرت تأثيرا أليما في السلطان سليم الأول العثماني ، فثار للسنة بتدشين حكمه بالفتك بالشيعة حينما كانت جيوشه تزحف على الشاه ، وربما رأى السلطان سليما أن يعدل عن نهج أسلافه من حيث التوسع في أوربا ، فتحول نحو الشرق على أمل أن يجد بفتح الأمصار الإسلامية قوة وعصبية . ولكنه وجد هناك خصما عنيدا ، وهو الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية ، فكان لا بد له من إزالة هذه العقبة ، خصوصا أن هذا الشاه كان قد استطاع أن يضم إلى بلاده كلا من ولاية شروان ، والعراق العربي ، وخراسان وديار بكر ؛ وكانت الحرب التي وقعت في وادي جال دبران (٩٢٠ هـ = ١٥١٤ م) على مقربة من تبريز حاسمة ، فدخل السلطان تبريز منتصرا ، تاركا لقواده استكمال الفتح ، فاستولوا على إقليمي ديار بكر والموصل . وأما العراق العربي فما دخل نهائيا في حكم آل عثمان إلا في عهد السلطان سليمان القانوني ، الذي قاد حملة على الفرس بنفسه ، ودخل تبريز منتصرا سنة ١٥٣٣ م .

وحينئذ فما وسع أمير البصرة إلا أن يرسل ولده راشدا يحمل مفاتيح البلد ، فتقبلها منه السلطان ، وتحول إلى بغداد وفتحها ، ثم نصب أمير البصرة حاكما على بلده ، على أن يكون تابعا لوالي بغداد سليمان باشا ، وأنعم على السيد أحمد من أهل جزيرة ابن عمر بحكومة الموصل ؛ وتوالى وصول الوفود إلى بغداد من أطراف البلاد ، لتأدية الطاعة ، فكان السلطان يتقبل منهم طاعتهم ، ويسوق الجيوش إلى مراكز « السنجق بكى » ، ويفرق عليهم

المناصب وزعامات الإقطاعات ، ولا سيما الجنود والقادة الذين استبسلوا في تلك الحملة .

على أن الزمن الذي بلغت فيه تركية ذروة عظمتها ، وأعنى به أيام سليمان القانوني ، كان في الواقع مصدرا لتأخرها . ذلك أن عوامل الفساد التي رافقت هذا العهد كانت مشفوعة بقلّة الاكتراث بالمصير ، فكانت كالسوس الذي مازال يعيش في قوائم الدولة حتى سقطت للحضيض . وكانت الولايات البعيدة كالعراق ميداناً لهذه العوامل أكثر من سواها ، لأن المتولين عليها كانوا في منجى من المراقبة . على أن هذه العوامل تضافرت بالعراق مع أسباب أخر جعلت مهمة عمال السلطنة هناك صعبة جداً . فإلى التنازع بين أهل السنة والشيعة كانت مشكلة القبائل مشكلة غير قابلة الحل في تلك البلاد الشاسعة ، التي لامسالك فيها منظمة ، يضاف إلى ذلك أن إخلاص الأمراء الوطنيين للحكم الجديد لم يكن تاماً . فبعد عشر سنين من دخول العراق في حكم العثمانيين ، تمرد حاكم البصرة عليهم ، وشرع أمير الحويزة يمثل دوراً من المساومة بين الترك والفرس ، هذا فضلاً عن أن أمراء الجند كان ينقصهم أيضاً كثير من الإخلاص : فقد كان خروج الصوباشي أحد قادة الإنكشارية على السلطنة سبباً لعودة العراق إلى أحضان فارس بعد ٨٧ عاماً من دخوله هذا القطر في حوزة آل عثمان . وظل الفرس منذ ذلك الحين يحتلون العراق مدة نصف جيل ، كان هذا القطر فيها موضوع نزاع بين الدولتين ، حتى أتيح للسلطان مراد الرابع استرداده (١٠٤٨ هـ = ١٦٣٨ م) ثم أتى على العراق جيل آخر لم يحدث فيه ما يستحق الذكر ، إلا ما كان من مشاكل بين القبائل ، ومن تمرد بعض العمال ، واحتلال إيران لبغداد مدة من الزمن .

ب — عهد الانتقال :

يدخل تاريخ بغداد في دور جديد منذ أن نصب الباب العالي حسن باشا (١١١٦ هـ = ١٧٠٤ م) واليا على تلك الولاية . حكم هذا الوالى مدة تزيد على عشرين سنة كانت طالحة بالأعمال المفيدة ، ولكنه رسم خطة للاستقلال عن السلطنة ، على غرار خطة الأمراء المماليك بمصر ، فأكثر من المماليك ، ونظم شئون قصره على نمط سراى الباب العالي ، وجعل الموظفين فيه والخدم درجات ، كما عمل على تدريبهم تدريبا خاصا . وقد قدر له أن يسلم الباشوية إلى ابنه أحمد باشا ، ومن بعده إلى أختانه ، فثبتت بهم وفي أيامهم سيادة المماليك على العراق ، واستمرت مدة قرن واحد لم تعرف بلاد الرافدين خلاله غيرهم من الحكام .

كان تعيين حسن باشا المشار إليه آخر تعيين صدر عن السلطان نفسه طوال مائة وثلاثين سنة . وذلك أن ابنه وأختانه تعاقبوا على الولاية ، دون أن يكون للعاصمة دخل في تعيينهم . وقد عرف عهد حسن باشا وولده أحمد باشا سنة ١٧٢٣ م بعصر الأبطال للحروب المتصلة التى اشتعلت في عهديهما ، وكان يقودها من جهة حسن باشا ، ومن جهة ثانية نادر شاه عاهل فارس . وقد حذا أحمد باشا حذو أبيه ، فعمل على توحيد زمام العراق ، وكان له ما أراد ، إذ أتاحت له الفرصة السيطرة على البصرة والموصل وكركوك ، وكان من نتيجة تقلده القيادة العسكرية العليا مرارا ولمدة طويلة ، اكتسابه حق الزعامة على حكام الولايات الثلاث في العراق . على أن الباب العالي وإن لم يكن في الواقع مرتاحا لسيطرة أحمد باشا على العراق ، إلا أنه كان مضطرا ، وقد بامت المحاولات التى قام بها ضده بالخفية للاعتراف بالأمر الواقع ، والتغاضى عن أموال الخزانة التى كان يستقل بها هذا المسيطر .

ح - عصر المماليك :

لقد تنفس الباب العالى الصعداء حينما علم بموت أحمد باشا ، ظانا أن الفرصة أصبحت متاحة له لأن يسترد الحكم في العراق ، ففصل كلا من ماردين والبصرة عن بغداد ، ونصب عليهما وعلى دار السلام الموظفين المواليين له .

ولم يخلف أحمد باشا ابنا ، غير أن قصره كان حافلا بالمماليك ، وكان بين الكرج الذين اشتراهم والده حسن باشا وتعهدهم بالترية ، مملوك يدعى سليمان ، تزوج من كريمة أحمد باشا ، وارتقى في المناصب حتى أصبح كهبة الولاية مسنين عديدة برتبة باشا . ولما توفى أحمد باشا ، واعتزمت الدولة تعيين وال غريب عن هذه الأسرة ، خفت لإبعاد سليمان باشا عن العراق ، بأن نصبته واليا على ولاية أطنة ، لكن الولاة الذين تعاقبوا على عاصمة الرشيد باعوا بالخفية ، فوجد سليمان باشا هذا وسيلة لأن يلج في المطالبة بإسناد هذه الولاية لعهدته . وكان له ما أراد ، فعين أولا في البصرة ، ثم نقل إلى بغداد ، وقد ابتدأ به عصر المماليك في العراق .

حقا إن سليمان باشا قد استطاع تأمين الاستقرار في البلاد ، وإخماد شوكة القبائل ، إلا أنه كان في الواقع يعمل لنفسه ، فقد حبس عن إستامبول الأموال ، وأنفقها على الجيش والمعازل ، وضم إليه البصرة . ولما توفى سنة (١١٧٦ هـ = ١٧٦٢ م) وخلفه المملوكان على ثم عمر ، ظهر للعيان استئثار المماليك بالحكم . وأخذ عدد المهاجرين للعراق من أبناء جنسهم يتفاقم يوما بعد يوم . وضربت الفوضى أطنابها بعد سليمان باشا ، فظنت إستامبول أن الفرصة سنحت لها لحكم العراق حكما مباشرا . ولكن الولاة الذين عينتهم وقسدت على بغداد لم يلبثوا أن اصطدموا بعصبة المماليك ، وواجهوا مشاكل داخلية معقدة ، مما اضطر الباب العالى أن يرضى بتولية

المملوك سليمان الكبير على دار السلام (١٧٩٠ - ١٨٠٢ م) فاستولى هذا على البصرة عنوة ، وبدأ به عصر المماليك الذهبي في العراق . وقد أخذت سلطتهم من ثم تزداد وضوحا مدة تزيد على ثلاثين سنة ، حتى أصبح العراق في حكم المستقل . ولا أدل على ذلك من بقاء المقيم الإنكليزي ببغداد خلال ذلك ، برغم اشتباك الحرب بين تركيا وإنكلترا ، حتى كأن العراق ليست جزءا من الأمبراطورية العثمانية ، ثم كان من نصيب بلاد الرافدين أن تقع مدة خمسين سنة أخرى بيد الباشوات المنتمين لهذا الدم الأجنبي ، وأن تتحمل استبدادهم . أما الدولة العثمانية فقد كانت في شغل شاغل عنها من جراء انكساراتها المتوالية ، ولكن ما إن تبدل مجرى التاريخ ، وأنشأ السلطان محمود الثاني الجيش النظامي ، وعنى بربط الولايات بالعاصمة ربطا وثيقا ، حتى كان القضاء المبرم على حكم المماليك (١٢٧٤ هـ = ١٨٣١ م) ، وعادت العراق إلى حظيرة الأمبراطورية .

عصر التنظيمات العثمانية :

أصبح العراق يسترعى أنظار السلطنة إلى حد بعيد ، لوقوعه على الطريق المؤدى إلى الهند ، وللنشاط التجاري الغزير الذي شرع يتضاعف فيه ، وخصوصا أن إنكلترا التي أقامت في العراق وكيلا دبلوماسيا لها منذ عهد المماليك ، كانت تتدخل في سياسته ، وتتصل بقبائله . وكان العراق قد شرع يطبق القوانين التي وضعها السلطان محمود الثاني ، ويتمشى على التنظيمات الجديدة التي أعلنها السلطان عبد المجيد ، فظهرت في ولاياته من ثم طبقة الموظفين النظاميين « الأفندية » ، وحلت محل الباشوات والبكوات . كما أن الجند النظامي احتل مكان المماليك والإنكشارية ، وكانت ثقافة رجال الولاية مدنيين وعسكريين تركية ، ولغتهم في الدواوين هي اللغة التركية . ويرجع تاريخ هذا التنظيم إلى عام (١٢٩٦ هـ = ١٨٦٩ م) حينما دخل مدحت باشا

بغداد مزودا السلطة المطلقة في الناحيتين الإدارية والعسكرية . وكان القصد من تعيينه بالعراق ، ونقله من ولايات الدولة في أوربة ، تطبيق الإصلاحات المدنية والجندية التي نفذت في تلك الولايات ، وقد عمد مدحت باشا إلى الأخذ بنظام الولايات الجديد ، وطبقه بحذافيره ، وفرض الخدمة العسكرية الإجبارية ، كما أنه قام بكثير من التجديد في الإدارة والعمران والاقتصاد .

وفضلا عن ذلك كان له برنامج رشيد في معاملة القبائل ، فسن لها خطة عمرانية ، مدارها توزيع الأراضي عليها ، قصد توطينها وتمدينها ، وبغية نشر الأمن في ربوعها . كما أن هذا المصلح يعتبر واضع الحجر الأساسى لسياسة التوسع في جزيرة العرب ، فكان يأمل ضم جميع الإمارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج الفارسى إلى الأمبراطورية العثمانية ، وذلك قبل وقوعها في الفخ البريطانى .

وغادر مدحت باشا العراق سنة ١٨٧٢ م ، ولكن هذا القطر استمر حتى عام ١٩١٤ ، يتمشى على النظم والمناهج الإصلاحية التى وضعها له ، ولم تتعرض ترتيباته الإدارية إلا للقليل من التبدل .

أما الأمن فكان موطن الأركان بقوات الجيش النظامية والاحتياطية ، وبالدرك ، يساعدها الأسطول المرباط فى البصرة . وفى سنة ١٩٠٠ ، أصاب قوات الجاندرمة هذه كثير من الإصلاح ، فقامت إلى جانبها قوة البادية . غير أن هذه الإصلاحات التى باشرتها السلطنة العثمانية فى هذا العهد لم تكن تخرج عن نطاق التنظيم الإدارى والعسكرى قصد تثبيت نفوذها . أما من الناحية الاجتماعية فلم يكن عهد العثمانيين على وجه عام عهد تقدم للعراق ، لا فى الفكر والروح ، ولا فى الثروة والعمران ، ولا أدل على ذلك من زهد الناس فيه ، حتى إن عدد سكانه سنة ١٨٩٨ لم يعد يتجاوز ١٣٥٠ نفسا ، وقد كانوا أيام العباسيين يناهزون ١٦ — ٢٠ مليون نفس .

وأما هذا البحر والقرى القارية فلهذا على كل من يجرى من قديم
هذا الكشف من قبل الملك ناصر ونحوه الشدة قد قدر من قبله هذا

وكان كل من المالك ناصر ونحوه الشدة قد قدر من قبله هذا
الكشف من الخضر عليهم في التسمية أو التسمية ، بجمعهم القاصد

الذي قد دلل أنه المجدد في هذا البحر والقرى القارية فلهذا على كل من يجرى من قديم
هذا الكشف من قبل الملك ناصر ونحوه الشدة قد قدر من قبله هذا
الكشف من الخضر عليهم في التسمية أو التسمية ، بجمعهم القاصد

الفصل الثاني

جزيرة العرب في العهد العثماني

في القرن الخامس عشر من الهجرة النبوية ، وأما هذا البحر والقرى القارية فلهذا على كل من يجرى من قديم
هذا الكشف من قبل الملك ناصر ونحوه الشدة قد قدر من قبله هذا
الكشف من الخضر عليهم في التسمية أو التسمية ، بجمعهم القاصد

في القرن الخامس عشر من الهجرة النبوية ، وأما هذا البحر والقرى القارية فلهذا على كل من يجرى من قديم
هذا الكشف من قبل الملك ناصر ونحوه الشدة قد قدر من قبله هذا
الكشف من الخضر عليهم في التسمية أو التسمية ، بجمعهم القاصد

تاريخها السياسي

١ — خلاصة التطورات السياسية العامة :

دانت جزيرة العرب للأمويين ، بعد أن تمت الغلبة لهم على الهاشمين ، ثم خضعت للعباسيين ، وفي سنة ٢٥١ هـ ظهر في الحجاز بنو الأخيضر ، فلكوها ، وبقيت تحت سيطرتهم إلى أن تغلب عليهم القرامطة سنة ٣١٧ هـ ، ثم صارت للهواشم : وأولهم أبو هاشم محمد العلوي المتوفى سنة ٤٨٧ هـ واستقرت في بني قتادة ، وهم فرع منهم ، سنة ٥٩٨ هـ حتى العهد السعودي الأخير .

هذا ، ولما سقطت بغداد في قبضة المغول ، وانتقلت منها الخلافة العباسية إلى القاهرة ، انتقلت معها إلى مصر تلك السيادة التي كانت لدار السلام على البلاد الحجازية وغيرها ، ثم أتيح للسلطان صلاح الدين الأيوبي أن يضم اليمن إلى مملكته ، وتمتع الأيوبيون من ثم بالسيادة على الجزيرة كافة . غير أن اليمن لم تثبت إلا قليلا حتى ثارت على المماليك الذين خلفوا الأيوبيين ، واستعادت استقلالها ، كما أن عدوا جديدا ظهر في ذلك الحين ، فتغلب على بعض سواحل جزيرة العرب ، وأرهب بالظلم أهلها ، وأعنى به حكومة البرتغال ، وأفضى وجوده إلى تقلص ظل المماليك تدريجيا عن سواحل الجزيرة .

كان نجاح فاسكو دوجاما في كشف رأس الرجاء الصالح قد نشطه للتقدم إلى الأمام في المحيط الهندي ، قصد كشف الطريق المؤدية إلى الهند الشرقية . وعند ما بلغ هذا البحار المغامر أمنيته سنة ١٤٩٨ م بدلالة أحد الملاحين العرب أحمد بن ماجدة ، اغتبطت البرتغال بهذا الفتح الاقتصادي ،

وأمدت هذا البحار بالقوى الكافية للقضاء على كل عقبة تحول دون تقدم هذا الكشف .

وكان كل من الممالك بمصر ودولة البندقية قد قدر سريعا ما لهذا الكشف من المضار عليهم في الناحية الاقتصادية ، فجمعهم المصلحة ، للتعاون على خلق المصاعب في وجه البرتغال ، وقد رافقهم الحظ مدة قليلة ، ولكن ما إن عهدت البرتغال إلى البوقرق برئاسة الحملة الشرقية حتى أفل نجمهم . فقد انقض هذا على عمارة الممالك في البحر الهندي ، فزقتها شرمزق .

ولما خلا له البحر اتخذ جزيرة سقطرى مقرا للتحكم بمجاز باب المندب وملاحة البحر الأحمر ، هذا فضلا عن استيلائه على بعض الثغور الحصينة في اليمن وحضرموت ، واحتلاله كلا من مدينة مسقط في عمان وجزيرة هرمز . وقد أقام عدة قلاع على مقربة من الحسا وعلى الساحل الشرقى لخليج فارس ، فأتيح بذلك للبرتغال القبض على ناصية التجارة المتداولة بين فارس والهند وجزيرة العرب من جهة ، وبينها وبين أوربة من جهة أخرى . هذا ، وكان وقع نجاح البرتغال في جزيرة العرب قاسيا جدا على دولة الممالك ، وذلك من جراء تحول طرق التجارة عن البحر المتوسط ، وحرمانها موارد كانت مادة ازدهارها ، فبادر قانصوه الغورى لتجهيز حملة عظيمة سارت إلى اليمن سنة ١٥١٧ م قصد استرجاع الثغور من البرتغال ، ولكن عزيز مصر فوجئ باكتساح السلطان سليم العثمانى لبلاده ، فطارت مع أحلامه روحه ودولته .

ب - الحجاز في حكم آل عثمان :

يبدو أن آل عثمان قد أصابهم الحسد من الممالك من جراء قيام الخلافة بمصر بعد سقوط بغداد ، ولعلهم طمعوا فيها أسوة بتيمورلنك .

وآية ذلك أنهم ما إن نشئوا نشأتهم الثانية بعد الكارثة التيمورية، حتى انصرفوا لاستمالة العرب، فكان السلطان محمد الأول، وهو مؤسس أركان الدولة في نشأتها الثانية، أول عثمانى وجه « الصرة » لأمير مكة، وهى المال المعد للتوزيع على فقراء الحرمين، واستمرت هذه العادة جارية زمن خلفائه، إلى آخر أيامهم. ولما ولى السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م) أوفد الأمير زيزما إلى الحجاز لتوثيق عرا الصداقة بينه وبين أسرة قتادة الحاكمة، وزوده العطايا والمال لإصلاح سبل القوافل، وتأمين الأمن والماء فى ذلك القطر، ولا شك أن تلك السياسة تركت كبير الأثر بين المسلمين والعرب، وكان من تأثيرها أن انضم عرب الشام ومصر إلى صفوف ابنه باوز سليم، حينما جاء لمحاربة دولة المماليك التى كانت تحكمهم، كما أن شريف مكة حجب مساعدته وقتئذ عن هؤلاء المماليك، وسارع لإيفاد بعثة إلى القاهرة، حملها مع التهنئة للسلطان المنتصر مفتاح الكعبة. وقد قابل السلطان هذا العطف بالإغداق على مشايخ العرب، وبترتيب نفقة دائمة لفقراء الحجاز، مستبقيا عادة محل الحج المصرى التى ابتدئها المماليك من قبله. هذا، وكان السلطان سليم مشغوبا بالألقاب، فقد عرف بباوز سليم « أى القاطع » عقب انتصاراته الأولى، ثم أطلق عليه لقب شاه، من جراء انتصاره على الفرس، وكأنه أراد أن يتمتع بلقب أعظم مرتبة من ألقابه هذه، فاشترأت نفسه لأن يكون خليفة أيضا. فما إن بسط سليم سلطته على العرب، حتى أمر الخليفة أن ينزل عن الإمامة، وحينما تسلم منه العلم النبوى عمل على نقل آثار النبو والصحابة من مكة للاستانة، ورسم أن يخطب باسمه فى الحجاز وتهامة. وإذا به يلقب بخادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين.

على أن الحكم فى الحجاز استمر كالسابق فى حوزة بنى قتادة أشراف مكة، ومنهم انتقلت الإمارة إلى بنى بركات، وبقيت فيهم حتى القرن

الثامن عشر حيث غلبهم عليها بنو أبي نمنى ، وحافظ هؤلاء عليها حتى خرج الحجاز جميعه من يد الهواشم سنة ١٩٢٤ م . هذا وكان أشهر بنى أبي نمنى هم : الشريف مدور ، فالشريف غالب ، فالشريف حسين بن على ، وهو آخرهم . على أن تركية مع تسليمها بسلطة الشريف على الحجاز ، كانت تنصب إلى جانبه هيئة حكومة كاملة ، يرأسها الوالى وقائد الجند وكبير القضاة ، وترتبط مواردها بخزانة الدولة العامة ، ولما كانت هذه الموارد غير كافية لسد عجز ميزان هذه الولاية ، ولتغطية مرتبات الأشراف والفقراء ، كانت السلطنة ترصد مبلغا من المال كل عام تعدده لمساعدة الحجاز ، كما أن حكومتى مصر وتونس كانتا تسهمان معها فى تخصيص مثل هذا الجعل السنوى للبلاد الحجازية .

هذا ، وفى سنة (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م) نصب الباب العالى الشريف حسين ابن على أميرا على مكة . وبه كان آخر عهد العثمانيين فى الحجاز ، إذ خرج عليهم هذا الشريف ، ومشى إلى جانب الحلفاء خلال الحرب العامة الأولى ، طمعا فى استقلال الحجاز والعرب ، وهو فى ذلك يستند إلى اتفاق عقد بينه وبين إنكلترة ، كان مصيره مصير كل اتفاق يعقد بين القوى والضعيف .

ح - اليمن فى حكم آل عثمان :

نشأت السلطنة العثمانية إبان قيام الدولة الرسولية باليمن (١٢٢٩ = ١٤٥٤ م) وترعرعت خلال الدولة الطاهرية (١٤٤٦ - ١٥١٧ م) ، وبلغت ذروة مجدها أيام السلطان سليمان القانونى ، الذى أصبح محطاً لآمال العالم الإسلامى . وقد جاءه وفدان من الهند يستجيران به من طمع البرتغال وجورها ، فأعد عمارة برحت السويس سنة ١٥٣٨ م متجهة إلى عدن ، فبلغتها فى بضعة أشهر ، واستولت عليها ، ثم تحولت إلى غزو المعاول التى استولى عليها البرتغاليون فى خليج فارس ، وانتهى بها المطاف إلى بلوغ سواحل

الجوزرات في الهند . ولما قفلت راجعة رست أمام المخا في تهامة اليمن ، فاستسلمت لها مدينة زبيد ، وأبقت فيها حامية .

وكان النضال في أثناء ذلك متصلا بين آل عثمان والفرس ، وصبغته السياسة بلون طائفي ، الإسلام برىء منه . وقد عز على الفرس نجاح العثمانيين في اليمن ، فهبوا إلى مقاومتهم بالدعايات بين كثرة أهليه الزيود ، فكان ذلك بالإضافة إلى حرص اليمن على الاستقلال ، مدعاة لاتصال الحرب بين العثمانيين واليمنيين طوال أعوام ١٥٣٩م إلى ١٥٦٨ . على أن الباب العالي وإن استطاع أخيرا أن يتغلب على قواعد اليمن : كصنعاء ، وعدن ، والمخا ، وتعز ، وزبيد ، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بها طويلا ، خصوصا بعد أن استتب الأمر لدولة أئمة صنعاء منذ سنة ألف للهجرة (١٥٩١ م) . فأنتهى به الأمر إلى التخلي عنها ، والاعتراف بخلافة الإمام مطهر الزيدى ؛ ولكن لم يأت على ذلك إلا قليل من الزمن ، حتى سنحت الفرصة للسلطنة لأن تستعيد اليمن إلى حظيرتها ، وتجبر إمامها المشار إليه على عقد صلح يعترف فيه بسيادتها ، مكتفيا بالإمارة على كوكبان التي بقيت وحدها في حوزته .

وفي أوائل القرن السابع عشر خرج على العثمانيين السيد قاسم أحد أقرباء الإمام مطهر ، وأعلن استقلاله ، ونودى به أميرا للمؤمنين ، وسك النقود باسمه ، وقد حاول السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) إخضاعه ، فحمل عليه برا وبحرا ، ولكن حملاته هذه ذهبت أدراج الرياح . غير أنه قد تولى الحكم في اليمن بعد الأئمة الأوائل المعروفين بالعقل والبسالة ، خلف كانوا ضعاف النفوس ، قساة القلوب ، أضاعوا سلطتهم ، وفسدوا المجال لقيام الثورات وانقسام البلاد ، حتى إن مدينة صنعاء نفسها ، انقسمت أيضا إلى شيع وأحزاب أخذ يقاتل بعضها بعضا ، وتستنجد القبائل الذين كانوا يعيشون في الأرض فسادا .

وكانت تركية التي تتحين الفرص للانقضاض على اليمن تجد في هذه الفوضى مجالا لتحقيق الأمل . فقامت خلال ذلك بحملة محاولات قصد الاستيلاء على تلك البلاد ، فكانت تفتحها مرات ثم تضيّعها ، وذلك بين سنين (١٧٨٠ و ١٨٧٠ م) . حتى إذا كان عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة في تهامة ، وسارت نحو القاعدة ، فقابلها وفد من أعيان البلاد ، وأعلن استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمنية .

أما الأسرة الحاكمة الزيدية فقد انسحبت إلى الأقاليم الشمالية ، حيث احتفظت بمظهر بسيط من مظاهر السلطة الروحية . وبذلك استقر الحكم التركي في اليمن كرة أخرى .

وقد جرت عادة السادة الزيود ، حتى إبان الحكم التركي ، أن ينتخبوا الأمراء ، ويثابروا على تلقيب كل منهم « أمير المؤمنين » و « المتوكل على الله » . وفي سنة ١٨٩٠ انتخبوا في مدينة صعدة على تخوم العسير إمامهم الجديد محمد حميد الدين ، وأصبح ابنه الأكبر يحيى يتمتع بلقب سيف الإسلام . وكانت هذه البسطة نقطة انطلاق جديد ، لتحرير اليمن من النير الأجنبي . وذلك أن الإمام الجديد جمع بعض الفرق العسكرية ، واخترق بهم الجبهات التركية في حجة وعمران ، وسار حتى حاصر صنعاء . وكانت فرصة للشاب الأمير يحيى ، لإظهار مواهبه العظيمة وبسالته ، حتى إنه عند ما توفي والده في عام ١٦٠٤ اتجهت أنظار قومه إليه ، وكانت باكورة أعماله إعلان الحرب على الأتراك ، وثابر على الزحف حتى بلغ أسوار صنعاء ، ودخلها دخول الفاتحين .

ولكن الإمام يحيى اضطر مرتين لإخلائها على أثر وصول النجيدات التركية ، وانتهى به الأمر إلى الانسحاب إلى « قفلة عذر » ، وهو المكان الذي كان والده الإمام محمد حميد الدين اختاره من قبل مستقرا له ، عقب انتصار الجيوش التركية .

غير أن هذه الهزيمة التي منى بها الإمام يحيى لم تفت في عضده ، بل ظل يكافح الغزاة بصبر وعناد ، ويوقع بهم خسائر فادحة ، حتى لقيت اليمن في تلك الحقبة بمقبرة الترك ، والحق أنها كانت مقبرة العرب ، لأن الحملات التي كان يسوقها السلاطين لتأديب اليمن ، على حد تعبيرهم ، كانت تصدر في بداية الأمر عن مصر ، ثم صارت تعباً من الولايات العربية القريبة ، بعد انفكك مصر عن الآستانة . ولطالما كنا نرى الأجناد الذين يعودون سالمين من اليمن على حال تثير الشفقة ، فنتساءل أكانوا لا يزالون أحياء أم أمواتا .

هذا ، وقد حاول حزب الاتحاد والترقي الذي تفرد بالسلطة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، أن يضرب الإمام ضربة قاضية ، كما حاولوا أن يقيموا إماما زيديا آخر بدلا منه ، ولكنهم أخفقوا ، وما كان ذلك من جراء ثبات جلالته فحسب ، بل لأن قيام إيطاليا ودول البلقان على تركية حملهما على التراجع عن اليمن ، واضطرهم لتوقيع اتفاق سنة ١٩١٢ الذي انحصر بمقتضاه نفوذ السلطنة في مدينة صنعاء ومعظم تهامة في الساحل .

وأما الأقاليم الزيدية ، فقد خضعت من ثم في الناحيتين الإدارية والدينية للإمام يحيى ، الذي أقام الأحكام على الشريعة الإسلامية ، متخذاً مدينة خمر في شمالي صنعاء مقراً لحكومته .

وقد نشبت الحرب العامة الأولى بعد نحو سنتين من ذلك ، ومشى شريف مكة في صفوف الحلفاء ضد السلطنة . أما الإمام اليمن فقد رفض بشمم وإباء كل مخالفة اقترحها عليه الإنكليز ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دخل صنعاء دون مقاومة ، وكان ذلك وفقا لمعاهدة موندروس التي عقدها الترك مع الحلفاء سنة ١٩١٨ وقضت عليهم بالجللاء عن جميع الأقطار العربية . ولما تلتها معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ ، التي وقعها كل من الترك والحلفاء ، كان على الباب العالي أن يعترف بمقتضاها باستقلال اليمن ، فكان استقلالا ناجزا .

على أن بريطانيا العظمى استطاعت وحدها أن تبقى جاثمة في جنوب اليمن . فهي قد احتلت ثغر عدن منذ سنة ١٨٣٩ ، وأدخلته من بعد في نطاق المستعمرات الإنكليزية ، واتخذته قاعدة استراتيجية لبسط حمايتها على المحميات ، بمقتضى معاهدة ربطت بها عواهل تلك السلطات والإمارات .

د - حكومة عسير :

وقامت حكومة أخرى في أرض اليمن في مستهل القرن الحاضر ، وهي حكومة الإدريسي بعسير ، وتنسب إلى السيد أحمد الإدريسي المغربي . جاور هذا الرجل في مكة سنة ١٧٩٩ ، وأقام فيها مرشدا إلى طريقته . ثم هاجر إلى عسير ، وصاهر الأسرة السنوسية ، فاشتهر فيها ، وانشر نفوذه حولها ، وأراد حفيده السيد محمد علي ، خريج الأزهر وتلميذ الكفرة مقر السنوسى - استغلال هذا النفوذ ، فكان له ما أراد ، حتى استطاع أن يطرد الترك من متصرفية عسير سنة ١٩١٠ م ، وحاصر بها قاعدتها ، فواسع تركية وقتئذ إلا أن تتجه نحو الشريف حسين بن علي أمير مكة وكان لا يزال مواليا لها ، فحمل هو بنفسه على الإدريسي ، وأجلاه عن عسير . ولكن الفرص لم تلبث أن سنحت للإدريسي بعد قليل إبان الحرب التي وقعت بين الترك وإيطاليا سنة ١٩١١ ، لأن يعود إليها ، متفقا مع حليفته حكومة روما ، ثم اكتسب أيضا فرصة الحرب التي نشبت بين السلطنة ودول البلقان ، واستعاد عسير ، وأقام فيها حكومة مستقلة . ولكن هذه الحكومة لم يقدر لها العمر الطويل ، بل سرعان ما انقسمت عسير بين دولتي اليمن والعربية السعودية ، إلى أن تفرّد فيها آل سعود .

هـ - آل الرشيد في حكم آل عثمان :

يتصل نسب آل الرشيد بقبيلة شمر ، وقد عرفوا بحسن العلاقات التي كانت تربطهم بالباب العالي ، فحينما أتيحت لمدحت باشا والى بغداد

ان يعيد سلطة الدولة على بلاد نجد ، كفاة الدولة بالولاية على إمارة حایل ، الواقعة في القسم الشمالي منها ، ثم وجد محمد بن الرشيد في الخصام الدموي الذي نشب بين الأخوين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، مجالا للتدخل في شئون الرياض ، لضمها إلى إمارته . وقد أراد هذا الأمير أن يظهر بمظهر السباحة والاعتماد على النفس ، بمعاملة الأميرين عبد الله وعبد الرحمن آل سعود ، فأذن لهما بالرجوع إلى الرياض ، والسكنى فيها إلى جانب عامله . وقد توفي عبد الله عقب العودة إلى بلده . وأما عبد الرحمن وهو والد جلالة الملك عبد العزيز ، فلم يطق صبرا على رؤية أولئك الذين كانوا بالأمس تابعين لأسرته يتحكمون اليوم في إمارتهم ، فانقض على ابن الرشيد وقاتله ، ثم اصطالحا على أن يتولى عبد الرحمن إمارة الرياض مستقلا ، ولكن عبد الرحمن أعاد الكرة على آل الرشيد ، بالاتفاق مع أمراء القصيم ، ولما لم ينل مأربا منهم اضطر للهجرة إلى الأحساء سنة ١٨٩١ م فالكويت ، واستقر فيها .

وخلا الجو منذ ذلك الوقت للأمير محمد بن الرشيد ، وأصبح زعيم نجد المطلق ، معززا بعطف تركية . وكان نفسه الطموح راودته أن يكتسح الكويت ، فيدرك منفذا على البحر ، أو لعل تركية حملته على أن يفكر في هذا الأمر حينما استشعرت الخطر الأجنبي يحيق بذلك القطر . ولكن إنكلترا سبقته إلى الكويت ، وأعلنت عليها حمايتها ، وجعلتها مركزا استراتيجيا لها في شرق الجزيرة . ومنذ ذلك الحين أصبح النزاع بين آل الرشيد وآل سعود لا يتعدى كونه ستارا يخفي وراءه نضالا آخر ، قائما بين سياسة كل من إنكلترا وتركية . فكان من الطبيعي أن تكون الغلبة للندن على الآستانة .

وقد أخذ شأن آل الرشيد ينحط من جراء الخلافات الداخلية ، وخصوصا بعد زعيمهم عبد العزيز بن متعب الذي قتل سنة ١٣٣٤ هـ . أما ابن سعود فإنه اهتبل هذه الفرصة ، وخرج على الترك في نجد سنة ١٩٠٦ م ، وأجلاهم عنها .

ثم كانت الحرب الكبرى الأولى ميدان عراك مكشوف بين الإنكليز والعثمانيين في سائر جزيرة العرب ، وانتهت الحرب بفوز الحلفاء ، وبالقضاء على كل نفوذ للترك في تلك البلاد . أما إمارة آل الرشيد فقد أخذت بعد آل عثمان تحاول الاتفاق مع كل من شريف مكة وحاكم الكويت على آل سعود ، فإذا بابن سعود ينقض عليهم انقضاء النسر ، ويطوى صحيفتهم سنة ١٩٢١ . وهام أولاء يعيشون في كنف جلالته طلقاء مكرمين ، كما كان والده وعمه من قبل أعزاء في رحاب آل الرشيد ، وكما تدين تدان .

و — آل سعود في حكم آل عثمان :

الوهابية وإمارة السعوديين الأولى :

أصاب تركية أواخر القرن السابع عشر ، في أثناء حروبها مع روسيا وفارس خذلان إثر خذلان ، خدم العرب وغيرهم في جهادهم القومي . ثم تعاقب على عرش السلطنة منذ مفتتح القرن التالي خمسة عواهل كانوا غير أكفاء . فاهتز البعث القومي خلال حكمهم وربما ، وانفسح المجال في جملة ذلك إلى حركة كانت قومية في العاطفة ، ودينية في الغاية ، حدثت في نجد ، وكادت تجمع شتات جزيرة العرب وتحررها ، وتنهض بها نهضة الإسلام الأولى ، وأعنى بها الوهابية .

واضع هذا المذهب رجل تسمى ، اسمه محمد بن عبد الوهاب ، طلب العلم في بغداد والبصرة ، ولما عاد إلى نجد في منتصف القرن الثامن عشر ، كبر عليه أن يرى وطنه وسائر الجزيرة يهيمان في جهالة لاحد لها ، فود النهوض بها ، فدعا إلى الاعتماد على القرآن ، وإلى شريعة بيضاء نقية ، كما تركها محمد ، ونهى عن الغلو في تقديس الأنبياء والأولياء . وكان خلال ذلك ينكر على الترك تحكمهم ، ويؤاخذهم على الأخلاق التي تعتبر في الشرع فسادا ، وربما كان يصورهم زنادقة ، إثارة لقومه إلى الجهاد .

وكانت قبائل نجد وغيرها لا تعرف من الدين إلا أنها مسلمة ، فأقبلت على دعوته ، واستمسكت بالآداب التي يبشر بها . وكان زعيم مريديه محمد ابن سعود يجمع بين الشجاعة والحكمة ، فعقد له عبد الوهاب راية القيادة ، وزوجه من ابنته ، فاستطاع بعقله الكبير أن يؤلف بين القبائل ، وأن يوجهها إلى أطراف الجزيرة ، لتتشر الوهابية . وكان الأمراء البارزون في جزيرة العرب وقتئذ هم أشراف الحجاز ، وبنو خالد في الأحساء ، وآل خليفة في البحرين ، وآل معمر في العينية ، وآل السعدون في العراق ، والإمام المتوكلي في صنعاء ، والسادة في نجران ، وسلطان بعمان . فأعلنت نجد عليهم حروبا دامية ، كان هدفها الإصلاح على أساس المذهب الوهابي .

توفي محمد بن سعود (١١٩٧ هـ = ١٧٦٦ م) ، وخلفه ولده البكر عبد العزيز ، وفتح الأحساء ، وقضى على إمارة بنى خالد ، وهادن شريف مكة ، وبسط حمايته على آل خليفة في البحرين . ثم أتيح لخليفته وابنه سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م — ١٢٩٩ هـ = ١٨١٤ م) ما لم يتح لغيره منهم ، فدخلت في طاعته مكة والمدينة والطائف وجدة حتى حران ما بين مكة ودمشق . هذا ، فضلا عن استيلائه على عسير وقسم من اليمن ، بالإضافة إلى الأحساء والبصرة والبحرين وتهامة . أما الدولة العثمانية فقد هالها الأمر ، وحسبت للخطر ألف حساب ، فوالت إصدار الأوامر إلى حكام البصرة وبغداد وجدة ومصر والشام ، تحضهم على إرسال الحملات لوقف تيار الوهابيين ، ووجه السلطان محمود الأول ومصطفى الثالث الهدايا الفاخرة إلى شريف مكة هذا ، وكان نابليون بونابرت قد فسخ المجال لهذا النجاح الذي أصابه الوهابيون : فهو بحملته على مصر صرف تركية عن جزيرة العرب برهة ، كما أنه شغلها عن كل شيء آخر ، كما شغل سائر الدول حينما صار أمبراطورا ، وفضلا عن ذلك فقد أوفد في تلك الأثناء المسيو لسقاريس إلى بلاد العرب ، قصد الاتفاق مع القبائل ، ليؤمن لجيشه عبور الطريق التي

سلحها الإسكندر إلى الهند وكان على هذا الرسول أن يؤيد القبائل الخاصة لتركية لأن تركية كانت حليفة لإنكلترة، وأن يزود هذه القبائل المال والعتاد . روى المؤرخ الفرنسى سديو Lexdeillot فى تاريخه عن العرب ، قال : « إن لسقاريس هذا كان على اتصال بالأمير سعود زعيم الوهايين .

ز — استعادة تركية جزيرة العرب وضمحلل السعوديين :

ثبت الباب العالى محمد على باشا على مصر ، بعد قضائه على المماليك ، وأضاف إليه ولاية الحجاز ، فكان عليه أن ينقذ هذه الولاية من الوهايين . فتمكن ابنه طوسون باشا بعد حرب سجال وقعت بينه وبينهم مدة عام ، من استرداد مكة والمدينة وجدة والطائف . ولكن آل سعود عادوا فجمعوا جمعهم ، وكرؤا على الحجاز بقوة ، ومن وراءهم الين تعززهم ، فبلغوا الطائف وحاصروها ، وتوفى الأمير سعود بن عبد العزيز وهم على حصار الطائف ، ولم يكن بين أولاده من يخلفه فى الجدارة والإقدام ، فنسنى لمحمد على باشا الذى تولى القيادة بنفسه أن يحلهم عن الحجاز ويفوز عليهم فوزا ميينا سنة ١٨١٥م . كما أتيح لولده إبراهيم باشا الذى أخذ يطاردهم أن يدخل فى العام التالى قاعدتهم الدرعية ، وحينئذ لم يسع شيخهم عبد الله بن سعود إلا الاستسلام ، فنقل مخفورا إلى إستامبول ، وقتل فيها .

ح — الإمارة السعودية الثانية :

لقد كان قتل عبد الله بن سعود حافزا لنشاط قومه على الاستبسال فى النضال ، فاستطاع تركى بن عبد الله فى أثناء الفوضى التى عادت إلى نجد استرداد الرياض . ولما صارت الإمارة لابنه فيصل كاد يمثل دور أجداده ، ويتبسط فى الجزيرة ، ولكن الخلاف الذى وقع بين السعوديين أنفسهم كان مساعدا للحملات التى تابعت على خضد شوكته ، وسوقه مأسورا إلى مصر .

وكان خالد بن سعود يرافق الحملة الأولى التي ساقها مصر على السعوديين، فكافأته الدولة على ذلك بِنصبه حاكماً على نجد، ولكنه ما كان لينجح في مهمته وهو يمثل الحكم الأجنبي، إذ أن أهل نجد كانوا حريصين على استقلالهم، لذلك أقبلوا على خصمه عبد الله بن ثنيان يعاضدونه .
وخلال ذلك تسنى لفیصل بن تركي أسير مصر الحرب منها، فأسلم له سائر الرؤساء قيادهم، واتحدوا تحت رايته، فاستردوا ما كان قد فتحه أجداده في جزيرة العرب، ماعدا الحجاز .

ويظن حافظ بك وهبة وزير الملك ابن سعود بلندن « أن قرار فیصل المشار إليه كان بعلم عباس باشا الأول حاكم مصر » . أما نجاحه فلعله يعود إلى انسحاب الجيوش المصرية من جزيرة العرب، عملاً بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م . ومهما يكن السبب، فالواقع أن ذلك النجاح كان قصير الأمد، من جراء الخصام الذي استفحل أمره بعد وفاته بين ولديه عبد الله وسعود، ففسح المجال لمدحت باشا والى بغداد، للقضاء على إمارة السعوديين مرة أخرى، مستعيناً عليهم بآل الرشيد .

ط — الإمارات السعودية الثالثة :

كان الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن « جلالة الملك الحالي » ينزل مع والده في رحاب الشيخ مبارك أمير الكويت، مذ قضى مدحت باشا على إمارتهم . أما نجد والرياض بلاده فقد كانت تطأطأ الرأس لآل الرشيد، كفاتهم بها الدولة العثمانية على مساعدتهم لها على آل سعود . فكان الألم يحز في قلب هذا الشاب، إذ يرى نفسه مهاجراً وهو على قيد أميال من وطنه العزيز . وفي مطلع القرن العشرين وطد عبد العزيز العزم على العمل، فأما الفوز والعز، وإما الموت دون ندامة . وفي الواقع كان عمله شديد الخطر، ولا يقدر نجاحه إلا بنسبة واحد في المئة .

دخل عبد العزيز الرياض ليلا ، على رأس كتية قليلة العدد ، وبات فيها مستخفيا ، حتى إذا تنفس الصبح ، وبكر عامل ابن الرشيد باستعراض خيله ، عاجله بالقتل ، وأعلن حكم آل سعود في قاعدة إمارتهم ، ثم قضى ما يزيد على عشرين سنة يناضل الخصوم : من نجديين ، وهاشميين ، وترك ، وهو يقابل القوة بالقوة حيناً ، ويستعمل اللين حيناً يراه أجدى ، حتى مكنته جدارته من ناصية نجد .

وكان العثمانيون خلال ذلك يناصرون ابن الرشيد على ابن سعود ، فكانت الحرب بين الإمارتين ، إلى أن انتهى الأمر ، وباء الترك بالخيبة ، وانسحبوا من نجد سنة (١٢٢٤هـ = ١٩٠٦م) فتسنى لابن سعود أن يضم القصيم إليه ، ذلك الإقليم المشهور بسهله الواسع الخصيب ، ثم رأى ابن سعود أن الفرصة سانحة عند خروج تركية منهوكة القوى من حربي إيطاليا والبلقان (١٩١١ - ١٩١٣م) ، فانقض على إقليم الأحساء مقام المتصرفية ، واستولى عليه ، فأصبح من ثم على اتصال سياسى وثيق مع بريطانيا العظمى . ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م لزم الحياد في بادئ الأمر ، ولكن الدوننج ستريت « مقر الوزارة البريطانية » ظل يستميله ، حتى وقع معاهدة القطيف سنة ١٩١٥م . وكانت كسائر المعاهدات التي عقدها أمراء خليج فارس ، تقضى بارتباط سياسته الخارجية بسياسة بريطانيا العظمى ، وبالحرى للدخول في حمايتها . ولكن هذا البطل لم يستسلم طويلا للأمر الواقع ، وإذا به ينقذ الموقف بمعاهدة جدة سنة ١٩٢٧م ، تلك المعاهدة التي اعترف فيها بالاستقلال التام للدولة العربية السعودية .

ى - سواحل الجزيرة في حكم آل عثمان :

كانت البر تغال باستيلائها على بعض الجزائر مما يلي السواحل العربية قد جعلت البحر الأحمر وخليج فارس والمحيط الهندي منطقة نفوذ لها .

ولما أتيح لتركيا التغلب على بلاد العرب ، عقدت العزم على الرجوع إلى السياسة السلمية التي كان ممالك مصر اتخذوها ضد البرتغال ، وبشرت ذلك بالحملة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني للجوزرات الهندية ، نجدة لحاكمها البرتغالي سنة ١٥٣٨ ، فكانت من قبيل الكشف ، ثم رأت أن تنبع خطة فعالة حازمة لمواجهة الخطر الأوربي هناك ، فنصبت في مرفأ السويس قبودان باشا ، وعهدت إليه منذ سنة ١٥٥١ مهام ما وراء البحر الأحمر . وفعلا تقدم أسطولها بإمرة برى باشا إلى خليج فارس ، وهدم مدينة مسقط التي كانت للبرتغال مركزا استراتيجيا تتحكم فيه بعمان ، وحاصر جزيرة هرمز ، فافتداه البرتغاليون بالمال الكثير . وهكذا أصبح خليج فارس من ثم ميدان نضال بين كل من العثمانيين والفرس من جهة ، وبين البرتغال من جهة ثانية . وكانت بريطانيا العظمى التي أخذت تبسط سلطتها على الهند قد أصبحت أشد حرصا من تركيا وفارس ، على تحطيم نفوذ البرتغال في الخليج الفارسي والبحر الهندي ، لذلك خفت شركة الهند الإنكليزية إلى الاشتراك مع الشاه عباس في قتال البرتغال ، فتعاونوا على طردهم من ثغر هرمز والبحرين سنة ١٦٢٢ م ، كما تولى العرب أنفسهم منذ ابتداء القرن السابع عشر مهمة إجلاء هذه الدولة اللاتينية عن سائر السواحل ، وقامت هناك إمارات عربية مستقلة ، بينها إمارة كانت تنسب إلى أشراف مكة ، شمل حكمها كلا من هرمز والبحرين والحساء وكووة وزنجبار .

هذا ، وقد قضى التنافس التجارى بين دول أوربة بأن تبرز للبيدان دول جديدة ، فاستولى الهولنديون سنة ١٧٥٥ على جزيرة كرك ، ومد الفرنسيون والإنكليز أعناقهم إلى مسقط ، فردهم العرب واستعادوا كرك ، وقد دخلت هذه الجزيرة من بعد في حوزة الفرس .

على أن فارس التي رضيت بمساعدة شركة الهند على البرتغال ، كانت كالمتستجير من الرضاء بالنار ، لأن إنكلترة لم تلبث أن استولت على جزيرة

كرك في خليج فارس ، متظاهرة بأنها تريد القضاء على القرصنة وتأمين
الاتجار هناك .

واتجهت بأنظارها إلى مسقط وعدن ، وانتهزت الفرص لنشر معتمدتها
في مني بالين والسويس وجدة والبحرين ، ثم احتلت عدن سنة ١٨٣٩ م ،
واتخذتها قاعدة بحرية قائمة بين الهند وبين الجزر البريطانية ، وضمت إليها
السلطنات السبع المحمية ، على حين واصلت من جهة أخرى مساعدتها للتوسع ،
حتى بسطت حمايتها على حكومات إمارات خليج فارس ، كما فصلنا ذلك
في كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » .

وهكذا استطاعت بريطانيا العظمى أن تطوق جزيرة العرب ، وتقيم
سلطانها على أنقاض البرتغاليين ، هازمة الفرنسيين الذين خفوا لمنافستها منذ
القرن السابع عشر ، ومخيبة آمال العثمانيين الذين حاولوا في القرن التاسع عشر
تمكين سيطرتهم على سواحل الجزيرة الشرقية ، وقد أصبحت الجزيرة
منطقة نفوذ لها ، بفضل مستعمراتها وحماياتها الآتي ذكرها :

المستعمرات :

- ١ - عدن .
- ٢ - باب المندب .
- ٣ - مشيخة قطر .
- ٤ - مشيخة دبي .
- ٥ - إمارة جزيرة البحرين .

الحميات العليا العوالق :

- (١) حميات عدن ، وتشمل :
 - ١ - سلطنة لحج .
 - ب - مشيخة الضالع .
 - ح - سلطنة يافع العليا .

و — سلطنة يافع السفلى .

ه — سلطنة الصبيحة .

و — سلطنة الفضلى .

ز — سلطنة العوالق .

ح — سلطنة الحواشب .

ط — سلطنة الواحدى .

ى — مشيخة القطيبي .

(٢) سلطنة حضر موت القعيطية .

(٣) سلطنة حضر موت الكثيرة .

(٤) سلطنة مسقط وعمان .

(٥) سلطنة جزيرة سقطرى وبلاد المهرة .

(٦) إمارات ساحل الخليج الفارسى .

(٧) إمارات الكويت .

تضاف إلى كل ذلك مملكة زنجبار، التى دخلت فى نطاق الحماية الإنكليزية منذ القرن الماضى . ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن إنقاذ بريطانيا العظمى لتركية من مخالب نابليون بونابرت ، وتحريرها بلاد الشام من الاحتلال المصرى ، كانا مساعدين لها على التيسط فى سواحل جزيرة العرب، من جراء النفوذ الذى صار لها عند الباب العالى .

هذا ، ولولا أن جلالة الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن ظل على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى ، ولم تؤثر فيه إغراءات لندن ، كان فى وسعنا القول أن جزيرة العرب كلها أمست وقتئذ منطقة نفوذ بريطانية ، خصوصا منذ أتيح لبريطانيا العظمى عقد معاهدة القطيف سنة ١٩١٥ مع جلالة الملك ابن سعود ، ومعاهدة الملك حسين (شريف مكة) سنة ١٩١٦ .

الفصل الثالث

تاريخ العرب السياسي في المغرب

خلال عهد آل عثمان

١ - تغلب آل عثمان على شمالى إفريقيا :

ظهرت السلطنة العثمانية فى أثناء العراك الذى كان ناشبا بين دول شبه جزيرة أسبانيا من جهة ، وحكومات تونس وتلسان ومراكش من جهة أخرى ، وكان عراكا أشبه شىء بمعالجة الذئب للحمل ، أغرى حكومة نابولى وأطمعها فى البلاد الإسلامية ، فخرجت إلى الميدان تسابق الطامعين فى مضمار الاستعمار . وقد وفقت الدول الأسبانية والبرتغالية لاحتلال ثغور المغرب والجزائر المهمة ، ثم لوضع الجزية على تونس ، كما تمكنت حكومة نابولى من احتلال طرابلس الغرب .

إزاء هذا الخطر المتفاقم ولت حكومات تلك البلاد وجوها شطر الدولة الإسلامية ، التى كانت قد فتحت عاصمة البينظيين ، وكانت أوشكت أن تجعل البحر المتوسط تحت سيادتها . وما أشد ما استولى على أوربة الجنوبية من القلق ، من جراء تسرب نفوذ العثمانيين إلى المغرب ، فتبادت لصددهم ، وتعاونت لدفعهم ، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سيلا . وكان النصر حتى حين حليف الترك ، على ما نينيه فيما يلى :

ب - مراكش خلال الحكم العثمانى :

قلق أهل المغرب الأقصى من جراء احتلال كل من أسبانيا والبرتغال الثغور المغربية ، وكاد يستولى عليهم اليأس ، لأن أصحاب البلاد من بنى مرين أضخوا غير أكفاء لدفع المكسحين ، وكانت تنقصهم النعمة الدينية . وفيما هم كذلك إذ وجدوا ضالهم المشودة فى أسرة من الأشراف ، كان الاضطهاد قد ألقى بها فى رحاب البادية ، وأعنى بهم الأشراف السعديين . وما إن ظهر هؤلاء فى المغرب حتى التف الشعب حولهم ، ناظرا إليهم نظر المنقذ . وفى الواقع قد حقق السعديون الأمل المعقود عليهم ، إذ استعادوا معظم

الحصون الساحلية ، وأظهروا خلافا لأسلافهم ، حكمة في الإدارة ، ودربة في التنظيم العسكري . وهكذا أقاموا دولة استطاعت أن تدفع الطامعين الأوربيين عن البلاد ، وأن تبلغ فتوحاتها السودان في عهد السلطان أحمد المنصور . واستعانت هذه السلطنة بالثروة التي جنبها من هذه الفتوحات ، على مباشرة الإصلاح والنهوض بالعمران .

ولما حاول السلطان سليمان القانوني أن يجتاز إلى مراکش ، خف الشرفاء السعديون للوقوف في وجهه ، فما استطاع أن يحقق أملا في وطنهم . ولكن السلطان سليمان الثاني لم يلبث أن أدرك الغاية التي فأت أباه ، فقد استنجد به بعض السعديين على بعض ، فأيدهم بجيش من الجزائر كان النصر حليفه ، فتقررت بذلك سيادة آل عثمان على حكومة السعديين ، واستمرت الخطبة لهم مدة من الزمن ، غير أن السعديين لم يعتبروا بما أصابهم ، وكسبت أيديهم ، بل ظلوا على تنازعهم ، حتى خرجت البلاد جميعا من سلطتهم .

وكانت هناك أسرة أخرى حجازية الأصل ، وثيقة النسب ، اشتهر عميدها الشريف محمد بالكفاية والنزاهة ، فالتف المراكشيون حوله ، وبايعوه سنة (١٠٣٠ هـ = ١٦٢٠ م) . ثم اجتمعت بقية الأحزاب على ولده من بعده ، ودانت له البلاد ، ولا يزال الحكم فيهم حتى الآن . وقد واطبت أسرة الشرفاء المشار إليها على الولاء لآل عثمان ، فاستنجد أحدهم ، وهو السلطان محمد ابن عبد الله بالسلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤ م) على الأفرنج ، الذين كانوا يغزون بلاده ، ووجه إليه الهدايا الثمينة ، فأنجده عاهل الترك ، وساق إليه سفينة محملة بالعتاد الحربي . على أن سلطان المغرب لم ينس لآل عثمان هذه العاطفة ، بل قابلهم بأحسن منها ، فأرسل إلى السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م) أربع سفن طافحة بالذخائر والهدايا ، حينما نشبت الحرب بينه وبين روسيا .

ومما يذكر لهذه الدولة الشريفة ، عنايتها بالمدينة العربية ، وبلغت العرب أشد عناية ، ولكنها كانت كثيرة الخوف من التجدد في الشؤون الإدارية والجندية ، وظلت إلى منتصف القرن التاسع عشر تعتمد في شؤونها العسكرية على قبائل تخصها بالرواتب والأسلحة ، ثم رأت الحاجة ماسة لإعداد جند منظم ، فاستعانت أول الأمر بتونس ، ثم تحولت إلى فرنسا .

وكانت إلى ذلك تتمتع الأجانب من سكنى البلاد ماعدا الساحل ، ولذلك كان قنصل الدول يقيمون في طنجة . أما اليهود المواطنون فكانوا طلقاء يسكنون حيث يشاءون ، وإذا بهم من بعد يصبحون مطية للاستعمار . ذلك أن كثيرين منهم اكتسبوا جنسية أوربية بالهجرة إلى أوربة ، فاتخذوا بعد عودتهم إلى مراكش هذه الجنسية سلاحا ضد السلطنة . وفي الواقع كان موقفهم هذا يؤدي إلى أزمات سياسية وفتن ، حتى إن مؤتمر مدريد الذي تنادت الدول لعقده (١٢٩٧ هـ = ١٨٧٩ م) كانت الغاية منه النظر في أحوال الرعايا الأجانب بمراكش . هذا وكانت فرنسا تتحين الفرص الدولية لبسط سلطانها على مراكش ، ولكن التوازن السياسي كان يكبح جماحها ، حتى إذا ما اتفقت مع إنكلترة سنة ١٩٠٤ م على اقتسام مناطق النفوذ في شمالي إفريقيا ، وعقد مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ م كان مقتل فرنسي واحد كافيا لاستئناف فرنسا الحملة على مراكش ، ومبررا لاحتلالها قسما منها . ولما حدثت فتنة سنة ١٩١١ ، اتخذتها فرنسا حجة أخرى للزحف على فاس القاعدة ، تلبية لدعوة مولاي عبد الحفيظ الذي طلب حمايتها .

وقد أثار احتلالها مراكش مساومات دولية ، انتهت في ٣٠ آذار سنة ١٩١٣ بالاعتراف لها بالحماية على تلك البلاد ، لقاء الاعتراف لأسبانيا ببلاد الريف المراكشي ، ولإيطاليا بليبيا ، فضلا عن الاعتراف لإنكلترا باحتلال

أما ألمانيا التي كانت قد مدت أصبعها إلى نطاق الاستعمار، فقد رشتها الدول المتآمرة، بآلاف الأميال المربعة في جوار الكونغو، بالإضافة إلى وعد أعطته إياها فرنسا، يتضمن المساواة بينهما بمراکش في المصالح الاقتصادية.

ح — باشوية إفريقية :

كان أوروچ رجلا روميا ولد في جزيرة موللي ، واستهوت منه صباه القرصنة التي استفحل أمرها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ وقد حمّله هذا الشغف بالقرصنة على الالتحاق بخدمة باي تونس ، واعتنق الإسلام ، فذاع صيته منذ ذلك الحين ، ولا سيما بعد احتلاله ثغر جبجلى في الجزائر سنة ١٥١٤ م .

كانت الجزائر في ذلك الحين تابعة لحكومة تلمسان ، وتمتع ببعض الاستقلال ، فلما ضيق الأسبان عليها الخناق ، ماوسعها إلا أن تستنجد أوروچ ، فأنجدها ليستولى عليها ، ثم ليتبع بها تلمسان نفسها . وشاء أوروچ أن يجعل له حقا شرعيا غير حق القوة ، فلجأ إلى الباب العالي بالاستانة ، ونال من لدنه براءة للولاية على الجزائر .

وقد حسب الأسبان له الحساب ، فانتضوا عليه بأساطيلهم سنة ١٥١٦ م ، ولكنه ردهم خائبين ، وانتصر عليهم ، ثم عجز عن لقاءهم بعد سنتين من ذلك ، وحاصروه في تلمسان وقتل . واستطاع أخوه خير الدين الملقب ببارباروس ، أن يحتفظ بثمر الجزائر ، ولكنه ظل قلقا حيال خطر الأسبان الذي يهدده ، في حين أنه لم يكن يتمتع هناك بعصية تحميه ، بل يعتبر دخيلا ، فما وسعه من جراء ذلك إلا أن يلجأ إلى السلطان سليم الأول ، ويعرض عليه احتلال المغرب باسمه احتلالا عسكريا ، وقد وجد هذا الاقتراح قبولا عند السلطان ، فأمدّه بالجيش والعدد ، ومنحه لقب بكركبك إفريقية ، أى أمير الأمراء ، وقد تفاقمت شهرة خير الدين منذ ذلك الحين وانتشرت ، لأنه ما استطاع أن يدفع

الأسبان ويطارد هم فحسب، بل تمكن أيضا من إخضاع خصومه المجاورين، وعلى رأسهم باي تونس . وقد قدر له السلطان جهوده ، فاختاره لقيادة الأسطول العثماني « قبودان باشا » ، بالإضافة إلى منصبه بـكربك إفريقيا . كانت أوربة تكاد تكون متحدة في ذلك الحين بشخص الأمبراطور شارلكان، الذي جمع بين تيجان دول هي أعظم دولها . وكان هذا الأمبراطور يجري بقوة الاستمرار مجرى أسلافه عواهل أسبانيا ، في صعيد مطاردة المسلمين بعد جلائهم عن الأندلس ، وقد تمكن من بسط سلطته على تونس وطرابلس الغرب ؛ ولما استفحل خطر بارباروس ، كبر على الأمبراطور أن يرى العثمانيين يتعرضون لكبح جماح أمانيه في البحر المتوسط ، فأعد العدة لقتالهم ، مستثيرا عليهم أوربة ، بالدعوة إلى حرب صليبية جديدة ، ولكن الظفر كان حليف العثمانيين برا وبحرا ، فقد خفوا للقاءه ، وطاردوا جيشه وجيوش حلفائه ، حتى حاصروا فينا لأول مرة سنة ١٥٢٩ م ، كما أزاخوا سلطته عن السواحل الإفريقية . واستقرت لهم سيادة البحر المتوسط عقب انتصارهم فيه على الأساطيل المتحدة سنة (٩٤٥ هـ = ١٥٤٤ م) .

وبعد وفاة خير الدين نصب السلطان مكانه على إمارة البحر وعلى ولاية أفريقية، الرئيس طورغود ، فأرغى به البحر وأزبد ، وكانت بينه وبين شارلكان معارك شديدة ، عقد له فيها لواء النصر الأخير ، فأصبح حاكما دون شريك على بلاد تمتد ما بين مراكش ولوليا ، وزعيا خيفا في البحر المتوسط . ولما خلفه أولوج على (١٥٦٥ — ١٥٨٧ م) أراد إنقاذ تونس من خطر أسبانيا ، التي كانت قد احتلت حلق الوادي ، فأمداه السلطان بنجدة حاولت أسبانيا دفعها ، فلم تغلح ، فاحتل بها تونس ، وبسط السيادة العثمانية على آل حفص حكامها ، وكانت العاقبة له أيضا في النضال المستمر الذي قام بينه وبين أسبانيا .

وبعد وفاة أولوج على ، صرح عزم الباب العالي بالاستانة أن يجرى على سياسة التجزئة ، فعمد إلى تقسيم ولاية إفريقية إلى ثلاث إيالات ، وكانت تسمى بشالق ، أى باشويات ، وهى :

الجزائر ، وتونس ، وطرابلس .

على أن يكون لكل منها وال مستقل عن الآخر ، ينصب لثلاث سنين . وأرادت تركية بهذه التجزئة أن تقوى نفوذها ، ولكن الضرر جاءها من حيث أرادت المنفعة ، لأن هذا التدبير بالإضافة إلى التطورات السياسية العالمية ، كان وسيلة لانقطاع صلتها تدريجيا بالمغرب ، ذلك أن ممثل السلطان فى كل ولاية من تلك الولايات ، أصبح من بعد محروما النفوذ إزاء ديوان الإنكشارية ، صاحب السلطة البرية ، وحيال طائفة رؤساء البحر ، أصحاب القوة البحرية . فكان يضطر من جراء ذلك لمسايرتهم ، والعمل معهم فى استثمار البلاد استثمارا شخصيا .

د - الجزائر فى عهد آل عثمان :

منذ غرة القرن السابع عشر انحصرت السلطة فى الجزائر بفرقة الإنكشارية ، وأصبح الداى الذى تنتخبه هذه الفرقة هو الحاكم الحقيقى . أما الباشا ممثل السلطنة فقد اقتصر نفوذه على إسداء المشورة ، ثم مازالت علاقات السلطنة بالجزائر تتضاءل ، حتى لم تعد تتجاوز تبادل الهدايا فى أثناء تنصيب كل داى ، وإرسال السلطان براءة الوظيفة لكل داى جديد . غير أن تدخل الباشوات الذين كان ينصبهم الباب العالي فى التنازع الذى كان كثير الوقوع بين المرشحين لمنصب الداى ، أتاح لعلى شاويش ، الذى انتخب لهذا المقام سنة ١٧١١ م الفرصة لإيجاد حجة يحتج بها لقطع كل صلة له بالعثمانيين ، فقد خف إلى منع ممثل السلطنة الجديد من دخول الجزائر ، مبرا عمله هذا بتدخل هؤلاء المندوبين بما لايعنيهم . وكانت أحوال تركية غير مواتية

وقتند لدفع معاذيره ، فاضطرت إلى المسائرة مكتفية بالسيادة الاسمية على الجزائر .

هذا ، وكانت فكرة الاستعمار قد اختمرت في رموس ساسة أوربة الحديثة ، فاتخذ هؤلاء من القرصنة التي كانت لا تزال رائجة في الجزائر حجة لإرسال الحملات عليها . بدموا ذلك منذ شارلكان ولويس الرابع عشر إلى حملة اللورد أكسموث سنة ١٨١٦ م . على أن الدايات حكام الجزائر لم يعتبروا بالخطر الخارجى الذى كان يهدد كيانهم ، بل استمروا يتنازعون أمرهم بينهم ، ويسئون معاملة الرعية ، مما أفضى إلى رواج دعاية فرنسا قبل الاحتلال كل الرواج بين الشعب المظلوم ، وكان من عواقبها أنه لما همت فرنسا بالجزائر سنة ١٨٢٧ م ، ثار الجزائريون على العنصر التركى الحاكم ، وحاصروا الفرقة المسماة « كوله » ، الموكول إليها الدفاع عن الحصون . ولكن ما إن رأى الجزائريون أنفسهم قد وقعوا داخل شبكة الصياد ، حتى انقلبوا على فرنسا يناضلونها ، وثبتوا فى نضالهم حتى سنة ١٨٤٦ م .

على أن استسلام الأمير عبد القادر زعيم المعارضة فى هذا العام ، وإن كان يعتبر بالنسبة للفرنسيين بداية عهد الاستقرار ، فإن الواقع أن الثورات الموضعية لم تنقطع إلى سنة ١٨٦٧ م ، ولا سيما فى جبال الأطلس . ثم لما بلغ الجزائريين خبر اندحار فرنسا فى موقعة سبدان ، ونبأ خلع نابليون الثالث ١٨٧٣ ، الذى كان يتحجب إليهم ، هبوا للثورة ، ولكن حكومة الاستعمار قابلت ثورتهم بالحديد والنار ، حتى قمعها سنة ١٨٧٥ م .

وتوالت من ثم سياسة التجارب فى صدد اختبار شكل الإدارة الفرنسية بالجزائر ، إلى أن صدرت شريعة سنة ١٨٩٦ ، وهى تقضى بأن يحكمها حاكم عام ، تشمل سلطته القوتين المدنية والعسكرية ، ويقوم إلى جانبه مجلس إدارى يتولى انتخابه فرنسيو الجزائر وحدهم . وأما أهل البلاد الذين

احتفظوا بجنسيتهم، فلهم إدارة خاصة يرأسها أغا، وهو مع القادة الوطنيين والشيوخ مكلف إدارة الشؤون الإسلامية .

ثم بالإضافة لقانون ١٨٦٥ أصدرت فرنسا قانونا آخر سنة ١٩١٩ ، أدخلت به الجزائر في الجنسية الفرنسية ، وعمدت إلى تجنيدهم ، ولكنها في الواقع فرضت بذلك على الجزائريين واجبات المواطن الفرنسي ، دون أن تمنحهم شيئا من حقوق هذا المواطن . وقد فصلنا عواقب سياستها الاستعمارية في تلك البلاد ، في كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » كما أنا سنلم بذلك مختصرا في أثناء كلامنا عن الشؤون الثقافية والاقتصادية ، في فصول آتية من هذا الكتاب .

هـ - تونس في عهد آل عثمان :

كانت تونس الخضراء قاعدة إفريقية ، ومقر ولاية العرب في المغرب . وقد مثلت دورا زاهرا خلال حكم بني الأغلب فالعبيدين . ثم ترامت سلطتها إلى حد بعيد بين مشرق إفريقية ومغربها ، في عهد بني حفص (٦٢٥ = ٩١٤ هـ) الذي خطب لهم في الحرمين . ودار الفلك دورته ، فإذا بها ملقاة في أحضان الفوضى ، يتنازعها عدوان : أسبانيا التي استولت على أهم ثغور الجزائر ، والنابوليتان الذين كانوا يحتلون طرابلس . وخلال ذلك نشأ خير الدين بارباروس ، وصارت له الولاية على إفريقية من قبل آل عثمان ، وكانت الجزائر قاعدة لها ، فانتشل الطريدة من أيدي الطامعين ، وكأنه أراد أن يقابل جميل السلطان ، وذلك بنصبه إياه أميرا للبحر ، فسارع إلى تونس ، متظاهرا بمساعدة ملكها الخليل ، واحتلها باسم جلالته . ولكن أسبانيا التي كانت قد بسطت حمايتها على تونس ، لم تقف مكتوفة الأيدي ، بل سارعت إلى نجدة آل حفص ، وأعادت العرش إليهم . فانقلبت تونس

من بعد إلى ميدان قتال بين الأسبان والترك ، وظلت كذلك إلى أن احتلها
نهائيا سنان باشا سنة ١٥٧٤ م باسم الأمبراطورية العثمانية .
وقبل أن يغادرها سنان باشا ألف فيها حكومة أشبه بالحكم الذي
وضعه خير الدين باشا في الجزائر ، فكانت فرقة الإنكشارية مدار السلطة ،
وزعماءؤها هم أعضاء مجلس الشورى الذي يرأسه الباشا ممثل السلطنة . وعلى
رأس هؤلاء الزعماء رئيس منهم ، يطلق عليه أغا أو داي ، وهو مستقل
بعض الاستقلال عن الباشا . وفي أواخر القرن السادس عشر أحدثت
وظيفة السيك لإدارة الخزانة والعشائر ، فأصبحت السلطة بذلك تتمثل
في ثلاثة أقانيم : الباشا ، والداي ، والسيك . ولكنها أقانيم طالما تفسخت
في سبيل السيطرة العليا ، وألقت البلاد في الفوضى .

هذا ، ولما تولى مراد مؤسس الأسرة المرادية وظيفة البكوية ، أهله
كفائته لنيل الباشوية من السلطان مع حق توارثها في عقبه .

وقد صفا الزمن لهذه الأسرة الحاكمة طوال القرن السابع عشر ، ثم
أصابها ما أصاب أسلافها من التنازع على العرش . فاستهان بهم الدايات ،
وزاحموهم على الحكم ، فقامت في تونس من جراء ذلك فتن حادثة ، أطمعت
بها حكام الجزائر وطرابلس الغرب . ولقد استطاع إبراهيم شريف أن
يدفع الطرابلسيين عن تونس ، ولكنه عجز عن رد الجزائريين ، فأسر سنة
١٧٠٥ م ، وصارت القيادة العامة بعد أسره إلى حسين بن علي ، وهو جد
أسرة البايات الذين لا يزالون يحكمون حتى الآن . وكان حسين وقتئذ أغا
الإنكشارية ، فتمكن من إجلاء الجزائريين عن الولاية ، واكنسب
عواطف أهلها ، فبايعوه بيكا عليهم ، وأقرت السلطنة ولايته سنة
(١١١٧ هـ = ١٧٠٥ م) . وقد أنشأ البابات قوة عسكرية لا بأس بها من
التونسيين والقبائل ، وألغوا الإنكشارية ، ليقيموا مقامها الجند النظامي
(١٨٢٩) .

وكان النفوذ الأوربي قد شرع يتسرب إلى تونس وسائر إفريقية ، خصوصا مذ وقعت حكومة الباب العالي في مشاغل داخلية وخارجية صرفتها عن شمالي إفريقية . وبلغ من تدخل الدول في شؤون تركية ، أنها لم تقتصر على توزيع الأمصار الأوربية في مؤتمر فينا إلى هذا وذاك فقط ، بل تطرقت في هذا المؤتمر إلى بحث قضايا البحر المتوسط ، ثم استأنفت هذا البحث في مؤتمر إكس لاشابل . وكانت مطامع فرنسا قد امتدت إلى تونس مذ احتلت ثغر الجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ولما أراد السلطان محمود الثاني أن يتدارك الخطر ، وعهد إلى تثبيت حقوقه على الإيالة ، تصدت له فرنسا جهارا ، وذلك بإرسالها الأميرال هوكون سنة ١٨٤٥ م ، ليقف في وجه عمارة عثمانية كانت تقل حملة إلى تونس . ثم تفاقم هذا الخلاف بينهما أعوام ١٨٤٥ ، و١٨٥٤ ، و١٨٦٤ م ، وبلغ من عدوانها أنها حاولت منع البايات الجدد من قبول براءة التنصيب الصادرة عن دار السلطنة ، ثم شاء القدر أن تساعدوا الأحوال ، فتبلغ أمنيته ، ذلك أن فرنسا وجدت في الباي أحمد (١٨٣٧ م) طموحا للتمثل بمحمد على الكبير عاهل مصر والنشبه به ، ففتحت له خزائنها ، وعملت على تنشيطه ، للإتفاق في سبيل التجديد ، ودعته إلى باريس ، حيث استقبلته أحسن استقبال . فإذا هو بعد قليل سجين الرساميل الفرنسية ، وإذا به في الواقع يفتح باب الإيالة الموحد على مصرعيه لدائنيه . ثم شاء الباي محمد (١٨٥٥ م) أن يتدارك الأمر ، فتحول إلى سياسة الجامعة الإسلامية يشد أزره بها ، وولى وجهه شطر الباب العالي ؛ وهو فضلا عن الاعتراف للسلطان بالسيادة ، برهن فعلا على إخلاصه لجلالته ، وساق نجدة له في حربه ضد روسيا . ومع ذلك فإن الباي محمد لم يتخل عن خطة سلفه الإصلاحية ، بل زاد عليها بأن أصدر القانون الأساسي . ولكن المستعمرين كانوا له بالمرصاد ، واستعانوا عليه

بالدعاية، فتمكنوا بها من جعل الشعب التونسي يقابل تلك الإصلاحات بالتذمر والشكوى، على أساس أن الباي يثقل عاتق المكلفين .

هذا، وكادت الخزانة تنفلس في عهد خلفه محمد الصادق (١٨٥٩ م)، ومع ذلك لزم هذا الباي خطة سلفه، من حيث توثيق العلاقات بينه وبين تركيا، والحذر من فرنسا، متحاميا عقد القروض معها .

ورأى السلطان عبد العزيز بانكسار الجمهورية الفرنسية سنة ١٨٧١ في الحرب بينها وبين الألمان فرصة سانحة، فأصدر فرمانا اعتبر به تونس ولاية عثمانية . ولكن فرنسا لم تعترف بهذا فرمان، وظلت تعمل في سبيل توسيع نطاق نفوذها بتونس، حتى إذا كانت سنة ١٨٨١ بسطت حمايتها عليها . ولم تصطدم فرنسا في تونس بمثل ما اصطدمت به من المقاومة الشديدة بالجزائر، فشرعت - خلافا لما تعهدت به في معاهدة « قصر سعيد » - تعمل على تحديد سلطة الباي وحكومته، حتى تسنى لها الاستقلال في الشؤون الداخلية والخارجية . وقد حملت الباي على توقيع معاهدات تبيح لها هذا الاستقلال . ونذكر منها معاهدة « المرسى » سنة ١٨٨٣ . أما الباي فيظل حاكما بالإرث تحت إشراف المقيم الفرنسي، ولا تتعدى سلطته حكومة أصبحت قاصرة، وجندابات لا يتعدى حرسه الخاص .

وفضلا عن ذلك قطعت دولة الحماية أوصال كل تدخل أجنبي سواها، فألغت المجلس الدولي المالي، وعطلت المحاكم القنصلية، وأغلقت إدارات البريد الأجنبية .

وكما أنها بسطت يدها على مرافق البلاد، تصرفت بشبابها فسقت الجند التونسي إلى خطوط النار الأمامية في الحربين العالميتين ١٩١٤ و ١٩٣٩ . وفي الفصول التالية أمثلة على تصرفاتها في الشؤون الاقتصادية والثقافية، رغبة في إصابة أهداف الاستعمار والاستثمار .

و — طرابلس الغرب في عهد آل عثمان :

دخلت ليبيا في حوزة العرب إبان خلافة عمر بن الخطاب ، وكان مصيرها السياسي مرتبطا أكثر الأزمان بمصير تونس : فقد خضعت لبني الأغلب وبني زيري ، إلى أن استقل فيه بنو حماد (٣٩٨ — ٥٤٧ هـ) وهم فرع من بني زيري ، ثم عادت مرة أخرى للخضوع إلى تونس خلال حكم آل حفص ، ولكنها انتقلت منهم إلى الأسبان إبان التنازع الذي وقع بين هذه الأسرة ، ثم طمح بها النابوليتان ، فتدخلوا أيضا بين أولئك المتنازعين على العرش واحتلوها .

وكانت دولة آل عثمان تراقب هذه الأحداث وغيرها مما يقع في المغرب ، ولما جهزت أسطولا بقيادة سنان باشا لفتح تونس ، أصدرت إليه الأمر بأن يعرج على طرابلس ، وكان شارلكان قد وهبها لرهبانية مالطة بعد أن أضاع هؤلاء رودس ، فاستولى سنان باشا عليها (١٥٥١ م) وأقام فيها حكومة على أساس التنظيم الإداري الذي سنده خير الدين بارباروس للجزائر . وكانت هذه الولاية مؤلفة من برقة وغدامس وفزان ، بالإضافة إلى طرابلس . وأما منطقة بني غازي فكانت تارة تلتحق بها وأخرى تنفرد عنها . وقد وقعت في طرابلس أحداث سياسية كثيرة الشبه بأحداث الجزائر وتونس ، استبد فيها الدايات على التوالي ، حتى انتهى بهم الأمر إلى رفض الباشا مثل السلطنة سنة ١٧١٢ م . ومنذ ذلك استأثر آل القرمل بالسلطة المطلقة ، على أنهم احتفظوا للباب العالي بالسيادة الاسمية فقط ، ومن مظاهر هذه السيادة توجيه السلطان براءة للأمير كل ثلاثة أعوام ، إشارة لتعيينه ، وكان الأمير يقابلها بدفع الهدايا إلى جلالته .

هذا ، وكانت القارة الإفريقية حتى ذلك الوقت مجهولة المسالك عند الأوربيين ، على حين أنها جلية معروفة عند العرب ، ولا سيما تلك الطريق

التجارية الكبرى التي تصل السودان - موطن العاج وريش النعام والجلود وغيرها - بساحل البحر المتوسط . فلما وضع آل القرملي يدهم على السلطة في ليبيا مستقلين، انصرفوا إلى العناية بهذه الطريق التجارية، كما عنوا بتجديد الأسطول وتعميره . فأدركوا كثيرا من الثروة ، وجعلوا بعض مدنها في الساحل تحتل مكانة مرموقة في نظر الأوروبيين . وعلاوة على ذلك أصبحت عمارتهم البحرية تلقى الرعب في البحر المتوسط . وهذه المكانة التي صارت لآل القرملي في الناحيتين السياسية والاقتصادية ، كانت حافزا للدول الأوروبية، لأن تتقدم إليهم، وتتعقد معهم الاتفاقات . وكانت بريطانيا العظمى أسبقها إلى ذلك . فوقعت معاهدة سنة ١٧١٥ م . وتلاها الهنديون سنة ١٧٦٥ م فغيرهم .

واشتبكت ليبيا فيما بعد بحرب مع حكومة السويد ، ثم مع الولايات المتحدة ، فرجحت كفتها اعتمادا على القرصنة ، وكان ذلك مما أتاح لها أن تتقاضى جعلا من بعض الدول باسم حماية التجارة ، هو من نوع « الخوة » . وقد أثير هذا الموضوع في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، فاتخذت الدول قرارا يرمى إلى مكافحة خطر البحرية اللوية . وكان الفرنسيون قد احتلوا سنة ١٨١٣ م الجزائر ، فكان هذا الاحتلال بمثابة نقطة ارتكاز للدول ، لتحقيق ما قررت في ذلك المؤتمر . كما كان به القضاء المبرم على قوى آل القرملي البحرية . وعلاوة على ذلك منيت تلك الإيالة بأزمات داخلية متسabee كانت حافزا للدولة العثمانية على إرسال أسطولها سنة ١٨٣٥ م لاحتلالها وإعادةها إلى حظيرة السلطنة . وظلت من بعد تتردى في الفوضى وسوء الإدارة ، حتى كانت إيطاليا الناشئة تشخص إليها بأنظارها ، وتحنين الفرص لاحتلالها ، فلما كانت سنة ١٩١١ م وثبتت إيطاليا عليها ، فقابلها أهل البلاد بمقاومة عنيفة ، بالاشتراك مع جيوش السلطنة، وقفتها عند حدود الساحل . غير أن الحرب التي شنتها الدول البلقانية متحدة على تركيا في العام

التالى بالاتفاق مع إيطاليا، خلقت لهذه الدولة فرصة سانحة لإجبار الباب العالى على الاعتراف لها بهذا الاحتلال .

ز — القبائل العربية المستقلة فى إفريقية فى عهد آل عثمان :

كانت تركية تحكم شمالى إفريقية فى أكثر الأزمان حكما اسميا يكاد يقتصر على الأمصار الساحلية . أما فى الداخل ، فقد استمرت السلطنة فى حوزة القبائل ، من بربرية مستعربة وعربية وغيرها .

وكانت القبائل من البربر التى تنتشر فى سلسلة أطلس الممتدة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، كانت هذه القبائل مستقلة ، ومثلها قبائل أخرى تنزل فى جبال الريف ، على مقربة من الساحل .

وكان أهل الطرق ولا سيما آل الإدريسي وآل السنوسى يوغلون فى الداخل لنشر الإسلام ، وقد حببوا الدين لأهل تلك البيئات ، وبثوا فكرة الإخاء بينهم . هذا إلى أن إماما جديدا اسمه صالح ظهر فى بداية القرن السابع عشر فى بلاد السودان ، ينتسب إلى الخلفاء العباسيين ، وقد ساح فى الوادى مبشرا بالإسلام ، فأسلم سكانه ، والتفوا حوله .

وفى ذلك العصر استولى السلطان صابون حاكم السودان ، على بلاد بجيرمة ، وتقدم حتى بلغ بحيرة تشاد ، وكان يحمل فى يده السيف ، وفى اليد الأخرى القرآن ، فأمن على يديه كثيرون ، وانتشر الإسلام .

وفضلا عن ذلك ، قامت سنة ١٨١٠ فى الداخل فيما بين الجزائر ومراكش ، مملكة صغيرة عرفت بمملكة سيدى هشام ، كانت مدينة طالان قاعدتها ، وكان أهل هذه المملكة من العرب وشيلوق . وقد اشتهرت هذه المملكة بأنها كانت محط رجال القوافل التى تنقل التجارة ما بين تمبيكو ومراكش .

على أن تيار الاستعمار لم يقف فى وجهه جبال ولا قفار ، بل جرف فيما جرف كل هذه البلاد التى كانت الصحراء حى لها ومناعة .

العرب خلال حكم آل عثمان

تاريخهم الاقتصادي :

١ - لمحة عن تطور اقتصاديات العرب قبل آل عثمان :

(١) كانت البلاد العربية مركزا استراتيجيا لتبادل التجارة فيما بين الشرق والغرب ، فكان الملاحون في البحر الهندي ينقلون إليها من الهند وما بعدها المنسوجات القطنية والحريرية والأفاوية والأبازير والعاج والماس ، على حين كانت القوافل تحمل منها الصدف واللؤلؤ والتمور من شواطئ خليج فارس ، والبخور والبان والجلود والصمغ من مرافئ البحر الأحمر ، فنشجن سفن البحر المتوسط هذه السلع إلى الغرب ، من ثغرى الإسكندرية والسويس ، ثم تعود منه مثقلة بأحمال من الزجاج والخرز والحديد والنيحاس والأنسجة المختلفة ، وتحط أثقالها في ثغور الشام ومصر .

وكان العرب في عصرهم الذهبي يسيطرون على منظمات القوافل ، كما كانوا يهيمنون أيضا على ملاحية المحيط الهندي والبحر المتوسط وتجارتهما . فلم يسع البلاد الأوربية التجارية إلا أن تحف لتعاقد معهم . ومنذ سنة ٨٧٥ م وقع أمراء سالون ونابل وأماثي معاهدات مع بلاد الشام ومصر ، أفضت إلى تبادل المنافع ، وازدهار التجارة .

ولما تسنى للصليبيين أن يسيطروا حكمهم على سورية ، على الطريقة الإقطاعية التي كانت منتشرة في أوطانهم ، ساءت أحوالهمادة من الزمن ، حتى إذا استتب لهم الأمر ، نشطت الحالة الاقتصادية نشاطا محسوسا ، وخصوصا لتبادل التجارة بينهم وبين أوطانهم الأولى .

غير أن عهد الاستقرار أيام الصليبيين لم يكن طويل الأجل . فالخطر الإسلامي لم يلبث أن عاد لتهديدهم ، وكانت حروب انتهى أمرها بأن أضاع هؤلاء بلاد الشام ، ولجئوا إلى بعض ثغورها ؛ على أنهم لم يطمئئوا فيها أيضا على المصير ، فصاروا يتحولون بأنظارهم إلى من ينجدهم . وكان المغول

قوم جنكيز وهلاكوا قد استفحل أمرهم وقتئذ ، فعلق الصليبيون الآمال بهم ، ووسطوا إخوانهم النسطوريين الذين كانوا عند الخانات من أهل الشورى ، لإقناع هؤلاء بمقاومة الشرق الإسلامى . وقد شجعهم على هذا الاتصال أن هلاكوا أحد قادة جيش الخان منكو ، كان محاطا بالنصرانية ، ويعطف على أهلها ، وكانت أمه سر كوتانى وزوجته طوقوز خاتون مسيحية ، مثلها كان قائد جيشه كيت بوقا نصرانيا أيضا .

وقد نجح الصليبيون فى الواقع بإغراء هلاكوا فى الحملة على المسلمين . واستعدادا لذلك وجه وفدا إلى قبرص ، للاتفاق مع القديس لويس ملك فرنسا على هذه الغاية ، وإذا بهذا الملك يقابله بتوجيه راهبين إلى هلاكوا ، مثقلين بالهدايا ، فضلا عن هدايا غيرها كان بابوات روما لا يزالون يرسلونها إلى عواهل المغول .

وكان ما كان بعد ، من زحف هلاكوا منذ عام ١٢٥٥ م على بغداد ، وما تلاه من هجوم المغول على الأمصار الإسلامية ، حتى بلغوا الشام فى سنتي ١٢٨١ و ١٢٩٩ م ، تعاونهم متطوعة من الصليبيين ، انضم أكثرهم إلى المغول من جزيرة قبرص ، وتسهل السبل لهم دولة الأرمن فى كيليكيا .

وكانت عاقبة هذا الغزو من الشرق والغرب على الشرق الأوسط الإسلامى ، الخراب والدمار . كما فصلنا ذلك فى كتابنا « فلسفة التاريخ العثمانى » . على أن الصليبيين وإن خسروا الحرب فى النهاية ، فإنهم شاءوا ألا يتركوا السلاح ، فعملوا على استئناف القتال ضد العالم الإسلامى فى الناحية الاقتصادية . وبالاتفاق مع حلفائهم خانات المغول أصحاب أواسط آسيا ، عمدوا إلى تحويل طرق التجارة التى تصل بينهم وبين تركستان وما بعدها ، عن مصر والسودان وبلاد الشام ، إلى قبرص وإرمينية « كيليكيا » وبيزنطة .

وكان لهذا التدبير أثر سيئ فى اقتصاديات الشرق العربى ، وازدادت الحالة سوءا على سوء ، من جراء تلك السياسة الاقتصادية الخرقاء ، التى لجأ إليها بعض ممالك مصر ، قصد تأمين المكاسب لأنفسهم . من ذلك أن المملوك

بيرس البندقدارى (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) الذى يرجع إليه الفضل إبان الحروب الصليبية فى استرداد كثير من بلاد الشام ، والذى اشتهر بصدده المغول عن تلك الديار ، احتكر لنفسه كما قالوا ، أو لدولته كما نطن ، البضائع الهندية وزارعة قصب السكر ، كما فرض الرسوم على الحجاج والسائحين ، مما أدى إلى نقص موارد البلاد .

وقد زار بعض السائحين ديار الشام أواخر القرن الخامس عشر ، فتحدثوا عن الخراب الذى كان يحقق بأمهات المدن الشامية وقتئذ ، ومن هؤلاء ده لا بروكيار وبرايدي نباخ وييلون .

غير أن المؤامرة الاقتصادية التى حاكها الصليبيون بالاتفاق مع المغول ، لم تؤت ثمرها إلا حيناً من الدهر ، لأن ملوك المغول لم يلبثوا أن انشغلوا بخلافاتهم الداخلية ، وأسلم منهم من أسلم ، كما أن المنافسة الاقتصادية التى كانت قائمة أبداً بين الأمصار الأوربية ، حملت الأوربيين على التخلي عن سياسة مقاطعة المسلمين ، وهكذا . وحينما كان البنادقة يحسنون علاقاتهم مع بلاد الشام ، كان الجنويون يحرصون على استمرار اتفاقاتهم مع وادى النيل . وقد نشرت فى العصر الحاضر مخبرات رسمية ومعاهدات كانت قد تبودلت فيما بين المماليك سلاطين مصر والشام ، وبين الديلات الإيطالية ، ونشرت كذلك مفاوضات أخرى كانت جرت بين هؤلاء السلاطين وبين تجار قبرص ومرسليا . ويقول (بيكولوتى) إن أربع مرافئ بالشام وهى عكا وبيروت وطرابلس واللاذقية بالإضافة إلى خمس مدن فى الداخل ، وهى : الرملة ودمشق وحماة وأنطاكية وحلب ، استفادت كلها من هذا التبادل مع البلاد اللاتينية فوائد كثيرة .

هذا ، وكانت عدن من أغنى الأصقاع التجارية ، لمركزها الجغرافى ، ولتحصينها ، كما أن حضر موت وعمان والبحرين كانت تبنى أرباحاً موفورة ، ليس من الغوص على اللؤلؤ والمرجان فحسب ، بل لما كان بينها وبين الهند

من تجارة واسعة ، ولا انتشار أبناء تلك الأمصار في شرق إفريقيا وجزائر الهند وسواحل مالابار ومالقا ، حتى بلغوا الصين ؛ وكانوا قوما تجارا .

وإلى ذلك كانت ثغور العراق ، وفي مقدمتها سيراف ، والبصرة تتمتع بمركز ممتاز في خليج فارس ، لتوسطها بين الهند وبغداد ، التي كانت نقطة ارتكاز التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وهكذا عادت التجارة بين أوربة والشرق الأوسط إلى مجاريها ، بعد مضي برهة من الزمن على الحروب الصليبية ، فتغلبت بذلك المنافع المتبادلة بين الأمم على النعرة الدينية ، والعواطف العصبية .

(٢) بينما كانت البندقية تقبض على زمام البحر المتوسط في الناحية الاقتصادية ، وكان المماليك سلاطين مصر والشام يحنون الأرباح الوفيرة من تجارة الوساطة « الترانسيت » بين الشرق والغرب ، إذا بخطر يدهمهما جميعا ، وأعنى به كشف طريق الهند البحري سنة ١٤٩٧ الذي حول التجارة عن مجراها القديم في البحر المتوسط ، إلى الخطوط الجديدة بطريق رأس الرجاء الصالح .

وكان هذا الخطر حافزا للبندقية ولمصر على الاتحاد ضد البرتغال صاحبة الكشف ، اتحادا بلغ من متانته أنه لما علمت البندقية بخبر إحراق البرتغال لأسطول مصر في أحد ثغور الهند ، خفت لتقديم ما عندها من مواد في سبيل تجديد عمارة بحرية جديدة للمماليك . غير أن جهود الدولتين ذهبت أدراج الرياح حينما أتيح للقبطان البرتغالي البوقرف أن يحرق للمرة الثانية سفن المماليك الحديثة . وقد استطاعت البرتغال بذلك أن تنفرد بالزعامة في الملاحة بين الهند وجزيرة العرب ، وأن تقيم هناك لحماية التجارة القلاع والحصون ، ولا سيما في الخليج الفارسي .

ويؤخذ على البرتغال استعمالها الشدة والقسوة في معاملة العرب ، أشار إلى ذلك رمزي ميور في كتابه : « سر توسع أوروبة الدولي » ، وقال :

« إن روح هؤلاء الصليبيين لم تكن تساعد على إيجاد روابط ودية بينهم وبين جماعة غير مسيحيين . وقد ارتكبوا في أثناء منافستهم للعرب في المحيط الهندي أساليب القسوة جمعاء ، حتى تمكنوا من القضاء عليهم » .
ومن ثمة لم تقم قائمة للتجارة في جزيرة العرب . ذلك أن اختراع البخار من بعد قضى على القوافل ، كما قضى على الملاحة الشراعية ، هذا فضلا عن أن التمدن الحديث حول العالم عن أصناف البان والليف والحناء والصمغ ، وجعل اللؤلؤ والمرجان والبن اليمني على شيء من الكساد ؛ وهو إلى ذلك قد حارب منتوجات العرب الصناعية بالمصانع الميكانيكية ، وغمر الأسواق بالمحاصيل الزراعية .

ب - التجارة في مصر :

أخذت مكانة مصر التجارية ومقامها السياسي يهبطان منذ كشف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م ، وآية ذلك السقوط الشديد الذي أصاب موارد حكومتها . فعلى تقدير الأمير عمر طوسون في كتابه « مالية مصر » ، نجد أن هذه الواردات كانت في عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ = ١٢٦٠ - ٦٧٦ = ١٢٧٧ م) تبلغ ما يعادل ٧,٢٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى ، فإذا بها تستمر في النقص ، وخصوصا في عهد المماليك البكوات (١١١٩ = ١٧٠٧ - ١١٨٩ = ١٧٧٥ م) حتى بلغت في القرن الثامن عشر ٢٠٣,٥٠٧,٢٠٠ جنيه ، على تقدير أستيف Esteve ؛ ولم يكن هذا التدهور الاقتصادي في وادى النيل نتيجة لتحول خطوط التجارة ما بين أوربة والهند إلى طريق رأس الرجاء الصالح فحسب ، بل يعود أيضا إلى فوضى الأحكام التي استفحلت إبان عهد هؤلاء المماليك .

واحتلت الحملة الفرنسية وادى النيل (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) وكانت حالته الاقتصادية على أسوأ ما يكون ، وعدد سكانه لا يزيد على ثلاثة ملايين

خفف بونابرت لوضع برامج الإصلاح ، ولكن أمر تحقيقها لم يتأت له ولا خلفائه ، لانصرافهم إلى دفع الغارات ، بل إنهم زادوا الحالة سوءا على سوء من جراء إرهاب الشعب بالضرائب .

وقد سقطت موارد الخزانة في آخر عهدهم ، حتى وصلت إلى ٨١٠,٠٧٥ جنيهها ، تبعا لسقوط موارد الجمارك . وكان السبب في ذلك تشديد الحصار البحري على مصر من قبل الأسطول البريطاني ، فضلا عن بقاء القسم الأكبر من الوجه القبلي تحت سلطة المملوك مراد بك .

على أن الحملة الفرنسية وإن كانت سببا مباشرا لتلك الازمة المالية الخانقة ، التي أصابت وادى النيل ، فإنها جاءت عاملا من أفضل العوامل لنهضته الحديثة ، وذلك من جراء تهديدها ، دون قصد ، لقيام الأسرة العلوية ، وللتراث النفيس الفني الذي تركته لهذه الأسرة ، وهو تراث يقوم على دروس عنيت بها الحملة ، من علمية وفنية ترمى إلى إصلاح وادى النيل . استفادت منها مصر أوفر فائدة في عهد الحكم العلوي .

ولما رأى محمد علي باشا مؤسس هذه الأسرة نجاح مساعيه الزراعية ، بكمية محصولات البلاد ، شرع يعمل على رواج التجارة ، فاحتقر الترع الموصلة بين الإسكندرية ووادى النيل سنة ١٨٢٠ ، وأصلح مرفأ بلاق ، فأصابت الإسكندرية نجاحا باهرا ، وتقاطر تجار العالم إليها ، بل تضاعفت موارد التجارة في مصر كلها ، كما يبدو ذلك في الجدول الآتي :

سنة	موارد الحكومة بالجنيه	الرسوم الجمركية	على رواية
١٨٢١ م	١,١٩٩,٧٠٠	٧٧, ٨٩٠	ماتجن
١٨٣٣ م	٢, ٤٢١, ٦٩٠	١١٨, ٤٤٥	كلوت بك
١٨٤٧ م	٣, ٩٥٠, ٠٠٠		غوطا

هذا ، وكانت علاقات مصر بالبندقية قديمة ، وكان للبنادقة منذ عهد المماليك
قنصل بالإسكندرية ، ولكن ما إن استقرت الأحوال لأسرة محمد علي
وساد الأمن في ربوع مصر والسودان ، حتى تسابقت الدول إليها تخطب
ودها ، وكان في طليعتها فرنسا وإنكلترة . وهما وإن كانتا تتنافسان ظاهرا
في ميدان التجارة ، إلا أن كل واحدة منهما كانت ترجو أن تستولى بمصر
على طريق الهند ؛ وقد تجلى هذا التنافس في أثناء حملة على الكبير على تركية .
غير أن الأحداث السياسية التي وقعت خلال ولايتي إبراهيم باشا
وعباس باشا الأول ، وأهمها تعرض أوربة لمصر ، وإزاحها بالقوة عما
استولت عليه في الديار الشامية والأناضولية ، أفضت إلى أزمة تجارية
شديدة ، يدل عليها سقوط موارد الخزانة على أثر ذلك إلى مليوني جنيه
مصرى ونصف مليون .

ثم أخذت من بعد تستعيد نشاطها الاقتصادي تدريجيا ، فبلغ مورد
الخزانة سنة ١٨٦٢ ، خلال ولاية سعيد باشا ٧٠٧,٠٠٠,٣ جنيه ، حتى إذا
صارت الولاية لإسماعيل باشا ، وثبتت اقتصادياتها وثبة جبارة ، رافقت تلك
المشروعات العمرانية .

هذا ، وكان حصول الباشا سنة ١٨٧٣ على فرمان السلطان الذي منحه
حق الاستقلال الإداري ، ومنح أولاده توارث الولاية - كان هذا فرمان
حافزا كبيرا لنشاطه في حقل الإصلاحات ؛ فانهت في أيامه أعمال حفر قناة
السويس (١٨٦٩) ، ومرفأ الإسكندرية وأرصفتها ، وأصلحت ترع النيل ،
ومدت الأسلاك التلغرافية والخطوط الحديدية ، ونظمت شئون البريد .
وكان كل ذلك مسهلا سبيل التجارة ، ودافعا للأجانب إلى الرغبة في السكنى
بمصر أفواجا أفواجا ، وبلغت موارد الخزانة سنة ١٨٧٩ نحو ثمانى ملايين
ونصف مليون جنيه .

وقد هبط مصر في ذلك الحين الشيخ محمد يبرم التونسي ، ودون في كتابه « صفوة الاعتبار » عن التجارة فيها ما يلي : « التجارة بابها متسع جدا في السلع الوطنية والهندية والسودانية والأوربية ، وأغلب الأوربية بيد الأجانب ، وأما غيرها فييد الأهالي .

إلى أن قال : وإن مصر تنافس أوربة في الغنى بالتجارة على أنواعها . ونوه بزيادة صادرات مصر على الواردات إليها ، إذ قدر قيمة الصادرات سنة (١٢٨٩ هـ = ١٨٧٩ م) بثلاثمائة وستين مليون فرنك ، حين كانت قيمة الواردات تناهز مائة وستين مليون فرنك فحسب . وانتهى إلى القول بأن هذا الفائض هو ثروة لوادى النيل ، لولا ذهاب ثلاثة أرباعه في سبيل تغطية فوائد الديون الأجنبية .

وفي الواقع ، إن إسراف الخديو إسماعيل أثقل كاهل الخزانة ، وفتح ثغرة لأصابع الدول الطامعة ، كما ترك لحكومة خلفه الخديو توفيق معاناة الصعاب ، بل كان من عواقب ذلك الإسراف الاحتلال الإنكليزي . غير أن مجلة العمران في القطر المصري استمرت مع ذلك تتقدم إلى الأمام بقوة الدفع الأول ، وبقيت التجارة في تقدمها على مر السنين . وآية ذلك أن دخل الخزانة بلغ في آخر عهد الخديو توفيق أي سنة ١٨٩١ نيفا وعشرة ملايين ونصف مليون جنيه .

إن الاحتلال أعاد الثقة إلى أسواق مصر ، وهو بما رافقه من استمرار الأعمال العمرانية ، وخصوصا من حيث توافر أسباب النقل ، كان حافزا لتقدم الشؤون الاقتصادية كافة . ويظهر ذلك جليا بمضاهاة كل من أرقام الصادرات والواردات مابين السنين الأولى من الاحتلال والسنين الأخيرة من العهد العثماني ، وذلك بالجنيهات المصرية :

الصادرات	الواردات	السنة
١٢,٠٦٦,٤٩٩	٧,٠٢٠,٩٦٦	١٨٨٩ م
٢٤,٠٩١,٧٩٦	٢١,٧٢٤,٦٠٦	١٩١٤ م

على أنه يلاحظ أيضا في هذا الجدول ، ما حصل في عهد الاحتلال من الزيادة المستمرة فيما تستورده مصر من الخارج .

هذا ، ويؤخذ من تقرير إدارة البرق والبريد سنة ١٩٠٥ أن الرسائل التي كانت عددها سنة ١٨٨٥ لا يزيد على اثني عشر مليونا ونصف مليون ، بلغت وقتئذ ستين مليونا ؛ كما أن الحوالات المالية تضاعفت أيضا في تلك الحقبة . وهذا دليل كاف على التطور التجاري في هذا العهد ، وهو بالإضافة إلى مضاهاة دخل الجمارك سنة بعد سنة ، يعطى أحسن فكرة عن مدى التقدم .

ففي آخر حكم الخديو توفيق (١٨٩١ م) بلغ هذا الدخل : ٥٢٩ , ٦٣٧ , ١ جنيه ، وقد بلغ سنة ١٩١٢ م في عهد الخديو عباس الثاني ٧٥٧ , ٨٣٣ , ٣ . وظل هذا الدخل يزداد ، ولم تؤثر فيه الحرب العامة الأولى حتى قدر سنة ١٩١٦ أيام السلطان حسين كامل بمبلغ ١٦٣ , ٨٤٠ , ٤ جنيه .

ونحن لانزعم أن هذا الانتعاش التجاري في وادى النيل خلال تلك الحقبة ، هو نتيجة لوجود الإنكليز فيه ، وما رافق ذلك من اطمئنان أصحاب رموس الأموال خصب ، بل هو في الواقع راجع أيضا إلى أمرين : أولهما مركز مصر بالنسبة للتجارة العالمية ، وثانيهما تقدم عالمي عام في المرافق التجارية ، أسهمت مصر في نصيبها منه .

ح - التجارة في السودان :

مازالت أقطار السودان منذ الأيام الغابرة على اتصال مع مصر في ميدان التجارة ؛ لأن النيل الذي هو مصدر حياة واديه ، من أقصاه إلى أدناه ، كان ولا سيما قبل اختراع السيارات والطائرات ، أفضل السبل لنقل السلع وتبادل التجارة .

غير أن تجارة السودان كانت جد ضئيلة من جراء تغلب البداوة على تلك البلاد، والبداوة لا تتفق مع استغلال الأراضى واستثمارها. هذا فضلا عن أن السودان هو بلد زراعى، يحتاج فى ميدان الاستثمار إلى علم وفن؛ ولذلك كانت تجارة الرقيق أهم تجارات البلاد فى العهد العثمانى، وكان النخاسون أولياؤها من زعماء السودان، وقد جمع بعضهم منها الثروات الضخمة، وعدا ذلك كان السودان يصدر، ولا سيما إلى مصر، الجلود والعاج وريش النعام، فضلا عن المواشى والإبل وبعض الحيوانات. وكانت مدينة بربر الواقعة على ضفة النيل الشرقية ذات مركز تجارى كبير، وقد أهلها لهذا المركز توسطها بين معظم اتحاد السودان. ثم صارت الخرطوم بعد الاحتلال المصرى أعظم مدن السودان بلا استثناء، وأوسعها تجارة، إذ يلتقى عندها فرعا النيل الأبيض والأزرق، فيتكون منهما هناك النيل الأصلى، وقد أصبحت مركز حكمدارية السودان؛ كما عمرت سواكن على البحر الأحمر.

على أن تجارة السودان لم تنهض النهضة المرتجاة خلال الحكم الثنائى، بل تشبه أن تكون قد ظلت على حالها البدائى، وخصوصا أن زراعة القطن فى أراضى الجزيرة التى عنيت بها الحكومة منذ سنة ١٩١١، احتكرتها شركة سودانية بالاسم، إنكليزية بالفعل، فلم تكن من العناصر الوطنية الفعالة فى تحسين تجارة البلاد.

هذا، إلى أن شركات الاحتكار الإنكليزية مثل متشل كوتس وجلاقى هانكى، قد حلت محل البيوت التجارية الفردية، وسيطرت على الجزء الأعظم من صادرات البلاد و وارداتها.

و - التجارة فى بلاد الشام :

(١) خلال هذا التنازع الشديد بين ممالك مصر، ومن ورائهم العرب، وبين البرتغال، برزت دولة آل عثمان إلى الميدان.

ظهرت تركية إثر الحروب الصليبية إبان كان العالم لا يحس إلا الجامعة الدينية، فانصبّت على أوربة، تحاول فتحها باسم الإسلام، وكان هذا الخطر حافزا للدول الأوربية على اتحاد كلمتها، فاجتمعت ووقفت في وجه مطامع تركية متحدة باسم النصرانية. ولما لم تقو أول الأمر على إزاحتها، خضعت حيناً للأمر الواقع، وتسابقت تحت تأثير المنافع الاقتصادية للتعاقد معها. وكانت أسبقها في هذا المضمار جمهورية البندقية (٨٨٣ هـ = ١٤٧٩ م) التي اعترفت للسلطان محمد الفاتح بما احتله في ألبانيا، وتخلّت له عن مدينة شقودرة الحصينة، تلقاء بعض امتيازات تجارية.

وما إن خلفه على العرش السلطان بايزيد الثاني، الذي كان ميالاً إلى السلم، حتى بادر كل من البابا إسكندر الثالث وملك نابولي ودولة ميلانو وجمهورية فلورنسا، إلى عقد المعاهدات بينهم وبينه، وجرت مجراهم روسيا وبولونيا. وقد أقر السلطان سليم فاتح مصر والشام (١٥١٧ م) هذه الاتفاقات، وأضاف إليها معاهدة أخرى مع أسبانيا (١٥١٩ م).

وجاء دور فرنسا في عهد ابنته السلطان سليمان القانوني، فكان اتحاد هذا العاهل مع فرانسوا ملك فرنسا على الإمبراطور شارلكان، موافقاً لحكومة باريس لاستثمار الموقف، فعقدت مع الباب العالي، فسحت المجال للنفوذ الفرنسي أن يعلو على كل نفوذ في البلاد العثمانية والمغربية أيضاً، أن يساعد التجارة الفرنسية على الرواج أشد من سواها في الشرق الأوسط.

وكانت هذه المعاهدة مصدراً للامتيازات التي أصبحت خلال عهد الانحطاط العثماني ذات طابع خاص، جعل الأجانب فوق القانون، حتى في المكوس والضرائب، وحاطها بهالة من الميزات، وأصبحت هذه الامتيازات من جملة الأسباب لنجاح الأجانب دون العثمانيين في السلطنة.

(٢) لقد كان لكشف فاسكودى جاما طريق الهند البحرية أثره السيء في بلاد الشام ، وكما قلّ على أثر ذلك عدد القوافل التجارية التي كانت ترتاد ما بين بغداد وحلب ، نقص كثيرا عدد السفن التي كانت تتصل بالثغور السورية ، كطرابلس ويبروت ويافا . ثم ازدادت الحالة سوءا على سوء بعد دخول الشام في حكم آل عثمان ، ذلك أن السلطان سليمان فاتح مصر وسورية ، عمل على منع دخول البضاعة الهندية إليهما ، قاصدا أن يجعل الآستانة سوقها الوحيد . ولكن هذا التضائل الاقتصادي لم يدم طويلا ، إذ أن البرتغاليين لم يحسنوا الاستفادة من مستعمراتهم الأفريقية والهندية ، كما أن تهافت الأمم الأوروبية على التعاقد مع الإمبراطورية العثمانية ، والتعامل مع أمصارها ، كان عوناً لبلاد الشام على استرداد نشاطها الاقتصادي ، وحافزا لكل دولة كانت لها في الهند أراض ووكالات تجارية على أن تنشئ في سورية بيوتا تجارية ، وتقيم القناصل ، وكان أسبقهم إلى ذلك هولندا ، ففرنسا ، فإنكلترا .

وقد أخذت دمشق ، منذ ذلك الحين تتخلى في الناحية الاقتصادية عن المقام الأول ، ففسحت المجال لحلب ، التي أصبحت في القرن السادس عشر المقر الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب . ويرجع هذا الانتعاش الذى أصابته حلب عقب دخولها مع سورية ومصر في حوزة آل عثمان ، إلى أنها أصبحت سوقا تجارية عامرة بين تركيا ومصر ، فضلا عن كونها مركزا وسطا للتجارة بين الشرق والغرب . وقد وصفها ييلون Belon P 301 الذى زار سورية سنة ١٥٣٧ م بقوله : قوافل متصلة من الهند والعراق تضع فيها أثقالها . وكل من أراد السفر إلى تلك الأمصار البعيدة ، يجد في حلب أناسا على أهبة الرحيل وقد أصبحوا رفقاء متصاحبين . هذا ، إلى أن تلك المدينة كانت مستودع صناعات الشرق المختلفة ، ومركزا لقنصل البندقية الذى كان بمثابة سفير خاص .

أما البضائع المعدة للتصدير إلى أوربة، فكانت تشحن من طرابلس ثغر حلب. وفي الجملة، كانت السلع التي تصل إليها تباع يوم وصولها، لكثرة ما فيها من التجارة اهـ.

وبقيت حلب حتى أواسط القرن السابع عشر أهم مدينة في تركيا بعد الآستانة والقاهرة، نوه بذلك السائح الفرنسي بوجولاد، وأطرى تجارتها. غير أن أحداثا سياسية واقتصادية وقعت في القرن السابع عشر، أفضت إلى تضائل مكانة حلب التجارية، ومكانة ثغرها طرابلس، ليفسح المجال لدمشق وصيدا. وظلت تزداد ضعفا على ضعف سنة فسنة، إلى حد أن عدد سكانها الذي كان يناهز مائتي ألف شخص سنة ١٦٥٢ «بمقتضى إحصاء الراهب الفرنسي بيسون Besson P. 47 الذي سكن سورية في منتصف القرن السابع عشر»، أمسى هذا العدد لا يتجاوز ستين ألفا في منتصف القرن التاسع عشر، بموجب إحصاء غوى guys، وكذا طرابلس التي كانت مرفأ حلب؛ فقد أخذ عدد سكانها ينقص حتى بلغ سنة ١٨٨٤ خمسة آلاف نفس، على رواية قولني Vulney T. II P. 160

(٣) منذ أوائل القرن السابع عشر بسم الحظ لدمشق وصيدا، فأصبحت دمشق مقاما لأعلى باشا في بلاد الشام، وأضحى لبنان وما حوله في عهدة أمير كانت نفسه لا تبرح تسمو للاستقلال، وأعنى به الأمير نحر الدين المعنى الثاني. توخى هذا الأمير منذ بدء ولايته توثيق عرا العلاقات الاقتصادية بينه وبين الغرب. ثم بعد إيايه من إيطاليا، حيث أتيح له أن يرى بأمر عينه مظاهر التمدن الحديث ونهجه، ازداد جنوحا للإصلاح، فتوسع في منح الامتيازات للأوربيين والرخص. من ذلك أنه سمح لحكومة فلورنسة بإقامة قنصلية لها في صيدا، وأذن للفرنسيين أن ينشئوا لهم فيها خانا «فندقا» عظيما للتجارة وللمسافرين، كما رخص للرسليين في الإقامة بلبنان، وساعد مؤسساتهم.

وفي عهده أصبحت صيدا ، وهى قاعدة ولايته ، مرفأً لدمشق ، وأعظم ثغر فى الساحل السورى ، بل إن السائح الفرنسى ده روزل De Rozel P23 الذى زارها سنة ١٦٤٤ م ، قال عنها : « إن صيدا فى الوقت الحاضر أكبر ثغر فى السواحل الشرقية ، وفيها كثير من التجار ومقدار كبير من الحرير ، وفيها قنصل فرنسا » .

ولكن عهد نجر الدين المعنى لم يطل ، ومضى لبنان بعده وسائر الساحل السورى ، كما منيت البلاد الشامية جميعها بفوضى الأحكام واستبداد الجند ، وفضلا عن ذلك نزلت فيها نوازل حرمتها نعمة الاستقرار ؛ وأهمها ثورة الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا ، وحملة على بك الكبير صاحب مصر ، وحكم الجزار الذى شمل الساحل والداخل ، وغزوة نابليون الأول .

هذا عدا ثورات الإنكشارية ؛ وأهمها فى سنتى (١٨١٤ و ١٨٢٦) وعدا الحروب التى كانت كثيرا ما تقع من بعض الولاة ضد بعضهم الآخر .

وكان من جملة المصائب التى نزلت بسورية فى تلك الحقبة ، وأفضت إلى وقف عجلة الحركة الاقتصادية بعض النوازل السماوية ، فالزلازل تواترت فيها فى سنى ١٨٢٢ ، و ١٨٢٧ و ١٨٣٢ ، كما اكتسحها وباء الكوليرا سنة ١٨٣٢ ، فالطاعون سنة ١٨٣٧ .

ومن المؤسف أن أهل البلاد كانوا يتحملون فوق هذه الكوارث ظلم النظم أيضا ، أجل . بينما كان الأجانب الذين أصبحوا بفضل الامتيازات فى حصن حصين ومعفين من المكوس والضرائب ، كان أهل البلاد يتحملون وحدهم أثقالها ، فما يستطيعون مجارة الأجانب فى مضار التجارة ، وقد أشار إلى ذلك السيد سليمان أبو عز الدين فى كتابه « الشام على عهد محمد على » حيث قال : « وقبل أن يفتح محمد على هذه البلاد ، كان التجار الوطنيون يدفعون إلى الإفرنج ثلاثة ونصفا أو أربعة فى المئة ، ليتأتى لهم أن يتجروا بأسمائهم ، تهربا من جور هذه الأنظمة » .

وبسبب هذه الفوضى ، وظلم الحكام ، وهجوم البدو ، ونهب الأكراد ،
تضاءل شأن البلاد الشامية ، وأحاط بها الخراب .

وقد أشرنا إلى مآميت به كل من حلب وطرابلس من نقص
الأنفس والثروة ؛ والواقع أن التأخر كان شاملا ، وكان النقص
في سكان الثغور لا يقتصر على طرابلس ، بل كان يتجلى وقتئذ في كل منها ، من
غزة في الجنوب إلى السويدية في الشمال . وكان سكان كل منها يتراوحون
ما بين ٦٠٠٠ ٧٠٠٠ نسمة فقط ، مما يشير إلى انحطاط كبير في اقتصاديات
البلاد .

ثم لما أتيح لإبراهيم باشا قائد الحملة المصرية الاستيلاء على بلاد الشام ،
اعترضته ظروف سياسية جعلت حكمه قاسيا ، بما رافقه من العنف وزيادة
الضرائب : حروب ضد العثمانيين ، تلتها ثورات داخلية انتهت بالتصادم مع
الدول . فاضطر بدافع الإصلاح أولا وتحت ضغط الحاجة إلى المال ،
ليجعل الأهالي رهن تصرف الحكومة ، سواء ، أكان ذلك بتجنيد الرجال
أم باستيفاء الأموال .

غير أن ثغر بيروت الذي بدأ نجمه يلمع من مطلع القرن الخامس عشر ،
أخذ يتأهب منذ الاحتلال المصري لأن يكون في الطليعة بين ثغور الشام ؛
فالبحر الصحي الذي أقيم في بيروت وقتئذ حمل البواخر التي تقصد إلى
المرافئ السورية على أن ترسو فيه دون غيره ، وخصوصا في أثناء مواسم
الحج . وفضلا عن ذلك أصبحت بيروت منذ أوائل القرن التاسع عشر
ثغر دمشق ، بدلا من صيدا ، على رغم أن الطريق بينهما لم تكن صالحة إلا من
ناحية صيدا نفسها . ولهذا الأسباب نقص عدد سكان صيدا في سنة ١٨٤٦
إلى تسعة آلاف نسمة ، على حين ازداد عدد سكان بيروت إلى عشرين ألفا .
ثم كان افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ من جملة الأسباب التي جعلت
بيروت تثب وثوبا جبارا في مضمار التجارة ، ويزداد سكانها ، ومثلها بعض ثغور

فلسطين بنسبة أضعف ، بل إن النشاط التجارى شمل بعد شق ترعة السويس بلاد الشام كافة ، ولا سيما دمشق ، التى كانت تستعيد مكاتها خلال اضمحلال حلب .

(٤) دخلت الأمبراطورية العثمانية بعد إنقاذها من الخطر المصرى فى طور جديد عرف بعهد الإصلاحات ، ذلك أن الدول التى تولت إنقاذها ورد جيوش مصر عنها إلى وادى النيل ، وجدت لها فى اعتراف الباب العالى بمعروفها مسوغا للتدخل فى شئون الدولة ، ومشجعا على تكرار المطالبة بالإصلاح .

وصادف أنه كان إلى جانب السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) رجل من أعظم الساسة ، وهو رشيد باشا ، فحسن للسلطان الإصغاء للدول الأوربية ، فإذا بجلالته يصدر خط كلخانة المعروف بالتنظيمات سنة ١٨٣٩ ، ثم شفعه بعد ستة عشر سنة بخط همايون ، الذى جاء مكملًا للأول فى ميدان الإصلاح . ومنذ ذلك دخلت الدولة بقوانينها ومالياتها وسياساتها الداخلية فى عهد جديد ، وهذا ما حمل دوفالى De Valuy fonan cesè de la Turquai P. 127 على أن يقول إن هذه التنظيمات بالنسبة لتركية كالثورة الفرنسية ، من حيث إنها كانت فيصلا بين القديم والحديث .

على أن هذا التطور فى نظم السلطنة وسياستها ، وإن أفضى إلى اكسباب ثقة الشركات الأجنبية بعض الشئ ، وأدى تبعا لذلك إلى إنعاش اقتصاديات البلاد ، فإن الإصلاح ببق فى الواقع حبرا على ورق ، إلى أيام السلطان عبد العزيز ، وفى عهده (١٨٦١ — ١٨٧٦) أصدرت الدولة أول ميزانية لها ، وبشرت بالترخيص بمد الخطوط الحديدية ، وتأسيس الشركات المالية الأجنبية .

أما البلاد العربية ، فقد ظلت مع ذلك فى عزلة عن الإصلاحات العمرانية ، ولم تمتد إليها أيدي الشركات الكبرى إلا أيام السلطان عبد الحميد

الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) حيث أعطيت الامتيازات بمد الخطوط الحديدية فيها على الوجه التالي .

سنة ١٨٨٨ يافا - القدس .

» ١٨٩٠ الشام - المزيريب .

» ١٨٩١ بيروت - دمشق .

» ١٨٩٣ الشام - حلب - براجيك .

» ١٨٩٨ الترام اللبناني : بيروت - جونيه .

» ١٩٠٢ قونية - بغداد .

» ١٩٠٢ - ١٩٠٤ رياق - حلب .

» ١٩١١ طرابلس - حمص .

» ١٩١٢ حلب - الصلاحية .

وكانت هذه الامتيازات تمنح لشركات فرنسية ، ما عدا خط قونية - بغداد ، فقد اختصت به شركة ألمانية ، ثم لم يتم لها مده .

وبالإضافة إلى ذلك ، وفقت الدولة العثمانية في حكم السلطان عبد الحميد إلى مد الخط الحجازي سنة ١٩٠٢ الذي وصل بين دمشق والمدينة ، فأدر على بلاد الشام وخصوصا دمشق وبيروت ، مكاسب كانت تجنيها في مواسم الحج غير قليلة .

إن هذه الخطوط الحديدية بالإضافة إلى الطرق الكثيرة التي شقت وعبدت في ديار الشام ، وبالإضافة إلى الأسلاك البرقية التي وصلت بينها ، كانت للتجارة كالشرايين في جسم الحيوان ، سهلت أعمال الصادرات والواردات تسهلا عظيما ، خصوصا بعد أن قام في ثغر بيروت مرفأ جعلها المرسى الأمين للبواخر .

وبفضل هذه الإصلاحات العمرانية ، أصبحت سورية وثغرها بيروت

سوقا تجارية عظيمة للأمصار العربية المجاورة والبعيدة ، كما يقصدها تجار الأناضول فضلا عن الحجاج في الموسم ، فتمتلي خزائنها بالذهب الوهاج . وكانت حصّة بيروت من هذه الثروة حصّة الأسد ، فتكاثر سكانها ، وازداد عمرانها ، خصوصا منذ أمدت بالمياه العذبة من مغارة جعيتا في الجبل القريب (١٨٧٠) وطاب سكنها .

(٥) أحصى ج شارم في كتابه سياحة بسورية
G, Charmes. Vayagenen Syrie P. 222 صادرات سورية و وارداتها
لسنة ١٨٨٤ كما يلي : « الصادرات ٧٤ مليون فرنك ونصف مليون والواردات ٧٠ مليوناً على وجه التقريب » . فكانت الصادرات تزيد في أواخر القرن التاسع عشر على المستوردات . ولكن ما إن دخل القرن العشرون حتى سجل انقلاباً في هذا الموضوع ، فأصبحت الصادرات أقل من المستوردات . ويستفاد من جدول أورده السيد جاك ثابت في الكتاب الذي أصدره باللغة الفرنسية ، وأسماه « سورية » ، أن الصادرات كانت سنة ١٩٠٩ تبلغ ٧٥٠ ، ٠٠٠ ، ١٠٨ فرنك ، تعادل ٤٠٦ ، ٤٣٢ جنيه إنكليزي ، بينما بلغت المستوردات ٧٥٠ ، ٠٠٠ ، ١٩٣ فرنك ، تعادل ٣٧٧ ، ٧٧٠ جنيه إنكليزي .

يرجع السبب في هذا الانقلاب إلى إقبال بلاد الشام منذ أواخر القرن التاسع عشر على محاكاة أوربة في الحياة الحديثة وأساليبها . وكان هذا الإقبال يزيد على مرّ الزمان ، ويزيد معه الإقبال على الحاجيات العصرية ، حتى أصبح البون بين صادرات البلاد والمستوردات إليها رقماً عالياً .

ولبنان الذي هو في طليعة بلاد الشام رغبة في الأخذ بالتمدن الحديث ، كان أشدها شعوراً بمخبة الاتفاق زيادة على الموارد ، وذلك إبان الحرب العالمية الأولى ، حينما سدت في وجه أبنائه البررة المهاجرين سبل إرسال المساعدات المالية ، التي اعتادوا إرسالها لذويهم المتخلفين . وأما سائر البلاد السورية فقد وجدت في الحرب نفسها محالاً ، ليس لسد الفراغ فحسب ، بل

لزيادة ثروتها أيضا بالاعتماد على الزراعة . فخوران وأمثالها أصبحت تكنز الذهب خلال تلك الحرب ، بدلا من القمح وسائر الغلال ، ودمشق انتعشت وأثرت ، إذ صارت مقرا للجيش العثماني الرابع وجيوش حلفائه . وحلب أصابت أرباحا ضخمة من جراء إغلاق سبل البحر ، وتحول تجارة (أوروبة — الشرق الأدنى) إلى طريق آخر يجتاز (تركية — حلب) .

وأما بيروت فلوفرة رؤوس الأموال بين أيدي تجارها ، ولقبضهم على زمام التجارة من قبل ، ظلت بقوة الاستمرار محورا للتجارة في سورية كافة وما يليها .

هـ — التجارة في العراق :

من المفروض أن يتمتع العراق بمقام اقتصادي عظيم ، وذلك لتوسطه بين المحيط الهندي وخطوط الاتصال بين المشرق والمغرب والشمال . غير أن الكوارث التي حاقت به خلال تنازع السلجوقيين ، والفظائع التي ارتكبت في ربوعه في أثناء غارتى هلاكو وتيمورلنك ، حولت ازدهاره إلى خراب ، خصوصا وأنه أمسى من بعد ميدان نضال بين الفرس والعثمانيين نيفا ومائة سنة . وما إن تقرر النصر للسلطان مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) على فارس ، حتى كانت الأمبراطورية التركية قد أدركت عهد الهرم ، وأن للعراق أن يتنفس الصعداء في هذا العهد الذي يبتدىء بعسف المالك والإنكشارية ، وينتهي بمغارم ملتزمى الولايات ؟ لذلك قضى العراق خلال حكم آل عثمان حياة طويلة هي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة ، فنزح عنه سكانه ، حتى صارت كثافة المتخلفين فيه سنة ١٨٩٧ م لا تتجاوز ثلاثة عشر شخصا في الميل المربع ، وذلك على رواية دائرة معارف البستاني ، وعدددهم لا يزيد على ٣٠٠ ، ٣٥٠ نفس .

غير أن مركز العراق الجغرافي الممتاز، كان من شأنه الاحتفاظ بنصيب من التجارة غير قليل، وخصوصاً حينما أقبل عليه المستعمرون الأوروبيون، يتزاحمون في أمهات مدنه على ترويج مصنوعاتهم، ويتساقون إلى أسواق البصرة. هذا، وقد دخل تاريخ بغداد في دور جديد منذ ولاية حسن باشا (١٧٠٤م) مؤسس أسرة المماليك، التي استقلت بحكم العراق مدة تناهز ١٢٠ سنة؛ فإن هذا الولى بتوطيده الأمن، ونشره العدل، بالإضافة إلى تعييده الطرق، وإصلاح الجسور، وترميم الخانات، نشط التجارة في العراق إلى حد بعيد، واستمرت زاهرة كذلك خلال ولاية مملوكة سليمان الكبير. ولكن التجارة لم تلبث أن أصيبت بالشلل بعدموت سليمان (١١٧٦ هـ = ١٧٦٢ م)، لأن الفوضى التي شرعت تستحكم يوماً بعد يوم إبان حكم سائر المماليك خلفائه، ما كانت تتلاءم مع أى ازدهار اقتصادى.

أما البصرة فقد كان للتزاحم بين الدول في أسواقها تأثير شديد في مصيرها الاقتصادى. ولما تولت أسرة أفراسياب الحكم في البصرة، وذلك في صدر القرن السابع عشر، رافق عهدها نشاط في التجارة غير قليل، ويرجع السبب في ذلك إلى أن البرتغاليين الذين خسروا نفوذهم في خليج العجم، تحولوا إلى البصرة، قصد أن يجدوا في منطقتها مجالا جديدا لجهودهم، يعتاضون به عما خسروه. ولكن الإنكليز جاءوا يزاحمونهم أيضا في هذا البلد، بشركة الهند الشرقية، وما زالوا بهم حتى أزاحوهم عنها في أواسط القرن التالى.

على أن الإنكليز لم يتسن لهم مع ذلك التفرد في أسواق البصرة، بل ظهر لهم بعد البرتغاليين مزاحمون جدد من الأوروبيين، وأعنى بهم الفرنسيين والإيطاليين. أقبل هؤلاء على العراق تجارا سائحين ورهبانا، وأنشأ بعضهم المحال التجارية في البصرة، فكان تنافسا شديدا، جعل بريطانيا العظمى تزداد اهتماما بالعراق؛ وكيف لا وهى

طريق الهند ؟ ... وترفع شأن ممثلي شركة الهند الشرقية في هذا المرفأ سنة ١٧٦٣ م إلى رتبة وكيل ، ثم تعيينه قنصلا عاما لها .

استمرت البصرة بفضل هذا التنافس الأوربي تتمتع بشيء من الازدهار ، غير متأثرة كغيرها بعوامل الانحطاط التي أصابت العراق في عهد آل عثمان . ولا أدل على ذلك من الأرقام ؛ فإن قيمة صادراتها سنة ١٨٩٧ م ، بلغت ٢٥٠,٠٢٠ جنيه إنكليزي ، على حين بلغت الواردات إليها ٤٣٤,٧١٩ جنيه إنكليزي . وهذا مبلغ يبدو كبيرا بالنسبة لصادرات بغداد و وارداتها سنة ١٩١٢ م ، وخصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار التقدم العام الذي شمل العالم في الفترة التي تخللت سنتي ١٨٩٧ م ، و ١٩١٢ م . أجل فقد كانت قيمة صادرات بغداد في سنة ١٩١٢ م ، لا تتجاوز ٨٣٣,٩٦٢ جنيه إنكليزي ، و وارداتها ٠,٨٧ ، ٣٠٢ جنيه إنكليزي . ومهما يكن من فرق فإن هذه الأرقام كانت تبعث على الاطمئنان ، من حيث زيادة الصادرات على الواردات ، وهي ثروة وإن قلت .

وبجمل القول أن تجارة العراق التي أصيبت بالشلل بعد سليمان الكبير ، استعادت نشاطها بعد سقوط المماليك ، وعودة هذا القطر إلى حظيرة السلطنة . ولم يكن مرد ذلك إلى التنافس الأوربي فحسب ، بل لأن قضاء السلطان محمود على الإنكشارية رافقه اتجاه السلطنة للتجديد ، وميل للأخذ بالأساليب العمرانية الأوربية . فكثرت التحدث عن مواصلات تكون أشد سرعة بين أوربة والهند عن طريق نهر الفرات .

هذا ، وفضلا عما أدته تلك المواصلات الحديثة النهرية من خدمات كثيرة للتجارة في العراق ، فإن عوامل أخرى خارجية شرعت تقربه من التمدن الحديث سياسيا واقتصاديا ؛ فاللجان الدولية التي ألقت لحسم قضايا الحدود ، والبعثات الأجنبية العالمية وغيرها ، وشيوع المواصلات التلغرافية ، وبعثات التنقيب عن الآثار ، كل ذلك بالإضافة إلى نشاط التجارة الخارجية العالمية ،

أفضى إلى انقلاب شديد في اقتصاديات بلاد الرافدين، وإلى توجيهها وجهات حديثة . على أن فتح قناة السويس وإن حول عن العراق - ولا سيما عن الموصل وبغداد - مجرى التجارة العالمية ، فإن آمالا كبارا لم تلبث أن برزت الهيدان في غرة هذا القرن ، عقدها العراقيون على امتيازى خط بغداد وشركة استثمار البترول ، اللذين منحهما السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) الألمان . على أن الحرب العامة الأولى قضت على مشروع هذا الخط ، وحولت الامتياز الثانى إلى شركات أخرى ، فاستثمرته وحققت كثيرا من الآمال .

و — التجارة فى جزيرة العرب :

تتمتع جزيرة العرب بمركز تجارى عظيم ، لأنها تقع بين إفريقية وحوض البحر المتوسط ، وبين البحر الهندى وخليج فارس ، وتحيط بها ثلاثة أبحر : فالبحر الأحمر يصلها بمصر والسودان والحبشة والصومال ؛ والبحر المتوسط يصلها بالشرق الأدنى وأوربة ؛ وبحر العرب ، وهو فرع من المحيط الهندى ، يربطها تجاريا بالهند وجزائر سيلان وجاوه والصين وما بعدها ، هذا فضلا عن الخليج الفارسى الذى يصلها بالعراق وإيران .

وبفضل هذا المركز الجغرافى الممتاز ، استطاعت جزيرة العرب أن تلعب دورا كبيرا فى تاريخ العالم الاقتصادى ، أيام كان الناس يعتمدون على القوافل والسفن الشراعية . وأشهر مرافئها على تلك الأبحر : الوجه وينبع وجدة ورابع وقنفذة وجيزان والحديدة ومخا على شاطئ البحر الأحمر ، وعدن ومكلا ومسناة ومرباط على ساحل بحر العرب ، ثم مسقط وسمار وبدعة والقطيف والكويت على خليج فارس .

وكانت جزيرة العرب ولا تزال تصدر التمر والبن واللؤلؤ والمرجان والبنخور والعاج والملح والسّمك المجفف والجلود المجففة والمواشى وغيرها

من نسيج وسلاح . وتستورد المأكولات والمنسوجات والمواعين . ولكن ثروتها التي كانت تتمتع بها في الأجيال الماضية ، وخصوصا في اليمن الخضراء ؛ لم تكن تقوم على تجارتها الداخلية ، وإنما كانت تركز على الأرباح الوفيرة التي تجنيها من تجارة الوساطة « الترانسيت » ، والنقل بين أجزاء العالم . ومثلما كان بعض مراقبي أسواق عالمية ، كانت قوافلها وسفنها الشراعية ألف الوصل بين القارات الأرضية .

غير أن بعض الأحداث العالمية وبعض التطورات الاجتماعية ، التي رافقت التمدن الحديث ، عملت على عزل جزيرة العرب وأهلها عن النطاق التجاري العالمي ، وأهمها ما يلي :

- ١- كشف طريق رأس الرجاء الصالح .
- ٢- تبدل وسائل النقل واختراع البخار .
- ٣- المزاومة الخارجية لمنتجات الجزيرة .

١- فكشف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، صرف سبل التجارة عن البحر الأحمر وعن بلاد العرب إلى المحيط الإتلاقي ، وأصبحت جزيرة مدغشقر محطاً متوسطاً لتلك المواصلات .

٢- واختراع البخار وما تلاه من قيام البواخر بمهمة نقل السلع من أقصى العالم إلى أقصاه قضى على أهمية السفن الشراعية التي كانت للعرب ، كما قضى على مكانة القوافل التي تجتاز بلدانهم ، فضاعت على الجزيرة من جراء ذلك تلك الأرباح الوفيرة ، التي كانت تجنيها من تجارة الوساطة (الترانسيت) .

٣- والتحول الاجتماعي في الأذواق والتقاليد ، بالإضافة إلى الاختراعات التي رافقت التمدن الحديث ، عمل على سقوط أثمان كثير من الأصناف التي كانت تصدرها جزيرة العرب : كاللؤلؤ والتمور والبن ، فضلاً عن أنه سد أبواب الأسواق العالمية في وجه كثير غيرها ، كاللبان والليف والصمغ والحناء .

هذا ، وكان المفروض أن تستفيد جزيرة العرب من فتح قناة السويس في القرن التاسع عشر ، وذلك من جراء عودة التبادل التجارى بين الشرق والغرب إلى طريقه القديم ؛ ولكن شروط الحياة فى المدن الحديث ، بالإضافة إلى الاختراعات الحديثة ، جعلت هذه الجزيرة تستمر على العزلة التامة ، ماعدا بعض المرافىء والمدن لطروف خاصة بها ، فعدن مثلا التى أصبحت من أملاك التاج البريطانى منذ سنة ١٨٣٩م ، وهى محطة تجارية بين الشرق والغرب ، أصابت نجاحا كبيرا فى نطاق التجارة ، كما أصابت رقىا محسوسا فى الحياة الاجتماعية ؛ والكويت ومسقط وجزيرة البحرين فى الخليج الفارسى التى خضعت للنفوذ البريطانى ، وصارت مقرا لبعض الشركات الأجنبية ، استثمرت التنافس الذى وقع بين الأجانب فى ذلك المحيط منذ مئات السنين ، فأصابت بعض الانتعاش .

هذا إلى أن الخط الحجازى الذى وصل دمشق وسورية بالمدينة والحجاز فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، كان مصدرا لنشاط تجارى مرموق فى الحجاز وأواخر العهد العثمانى ؛ كما أن بلاد اليمن وجدت لها ثروة لا بأس بها فى صادراتها ، وأهمها الجلود والحبوب والملح والبن ، ولا سيما قبل أن يزاحمه البرازيل ، فانتعشت بعض الانتعاش .

ز - التجارة فى المغرب :

كان المغرب قبل دخوله فى حوزة العرب يعتمد فى تجارته على أوربة . فلما احتل العرب الشمال الأفريق ، وتوثقت بينهم وبينه شتى العلاقات ، تحولت وجهة هذه البلاد عن إيطاليا وبلاد المغول إلى الشرق . ثم كان النزاع بين النصرانية والإسلام ، الذى تجلى فى أثناء الحروب الصليبية ، سواء ما كان منها فى الشرق حول بيت المقدس ، وما كان منها فى الغرب بأسبانيا وما يليها ، فاشتد التقاطع بين المغرب الإسلامى وأوربة المسيحية

خلال ذلك الخصام الطويل ، غير أن مصالح الفريقين كانت مع ذلك تتحيز كل سائحة لاختراق جهتي الخصام ، في سبيل التفاهم على المنافع المتبادلة .

ح - مراكش :

ما زال المراكشيون حذرين من الأوربيين ، بسبب العداوة التاريخية التي كانت بينهما منذ عهد الكفاح في أسبانيا . ولم يكن أحد من الأجانب غير اليهود يؤذن له بالسكنى عندهم ، والتجوال في بلادهم . وأما سائر التجار الأوربيين فكانوا على قلة عددهم يلزمون الثغور . وقد ذكر أندره ليختنبرجر أن عدد الأجانب بمراكش لم يكن يتعدى سنة ١٩٠٧ ثلاثمائة شخص .

لذلك ظلت تجارة مراكش داخلية ، وظلت كثرة علاقاتها الخارجية تنحصر بالبلاد الإسلامية المجاورة . وقد تعرض كتاب « منجم العمران » المطبوع سنة ١٩٠٧ م ، أي قبل خمس سنين من الاحتلال الفرنسي ، لوصف التجارة في مراكش . فقال : « وأشهر صادراتها الطرابيش والسختيان وبعض منسوجات قيمتها تبلغ نحو مليوني جنيه مصري . وواردها أكثر من ذلك . وليس عندها مراكب تجارية إلا القليل ، ثم إلى الآن لم تأخذ البلاد وسائل المدنية والعمران ، بل لم تزل فاقدة الطرق الزراعية والعمومية ، ولم يرسم بها خط حديدى ، كما أنها لم تزل عارية عن سائر وسائل الانتقال ، ولم يزل الخوف من تعدى اللصوص والأشقياء ضاربا أطنابه ، .

ولكن ما إن دخلت مراكش في الحماية الفرنسية سنة ١٩١٢ حتى فتحت مصاريع أبوابها للأجانب ، فبلغ عددهم في ذلك العام ٣٠٠٠ نفس ، ثم مازالوا يكثررون ، حتى أصبحوا نحو ثلاثة ملايين في سنة ١٩١٦ .

هذا ، إلى أن المراكشيين أنفسهم كانوا قد أخذوا يوسعون دائرة أشغالهم مع أوربة ، فشرع فريق من تجارهم يرتادون بعض مدنها التجارية . وقد اجتمعت إلى فريق منهم فى سنى ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣ فى بريطانيا العظمى ، لاسيما فى منشستر ، فرأيتهم فوق تكتلهم هناك ، يحتفظون بثقة تجارية لا يتمتع بها غيرهم من الجاليات الأخرى .

« كل مشروع اقتصادى تحققه فرنسا فى مراكش يوازى فيلقا » . هكذا صرح الجنرال ليوتى المقيم العام فى مراكش ، ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى لم يسمح لفرنسا بمثل هذه المشروعات . ومع ذلك فإن الحاجة خلال الحرب لتأمين نقل الجيوش ، كانت حافزا لها على العناية بمد الخطوط الحديدية ، وتعبيد الطرق ، وإصلاح المرافئ . وما وضعت الحرب أوزارها حتى بلغ طول هذه الخطوط نحو ألف كيلو متر ، بالإضافة إلى خطوط حديدية عسكرية ضيقة ، طولها ٨٠٠ كيلومتر أيضا .

وقد حولت هذه الخطوط بعد الحرب إلى أعمال مدنية ، استثمرتها شركات المناجم الفرنسية بصورة خاصة . والمناجم فى مراكش هى أعظم ثروة بعد الزراعة .

وفى الجملة ، إن المعدل التجارى العام الذى كان يقدر سنة ١٩١١ بـ ١٣٩ مليون فرنك ، أخذ يزداد من بعد على التوالى ، حتى بلغ ٣١٠ مليون فرنك سنة ١٩١٦ ، إبان الحرب العالمية الأولى ، ولكنها فى الواقع زيادات كانت من نصيب الأجانب ، الذين قبضوا بفضل الحماية على ناصية التجارة . وأما المراكشيون فكان مثلهم حيال هذه الثروة :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ط — الجزائر :

رافق عهد آل عثمان في الجزائر نضال بين أوربة والمغرب ، كان اعتماده على القرصنة . وقد أخذت القرصنة طابعا جديدا حينما استند أبطالها المناضلون عن شمالي إفريقيا على الأمبراطورية العثمانية ، فأصبح أوروغ وأخوه خير الدين (١٤٧٤ — ١٥١٨) زعيمى قرصان البحر المتوسط ، وأصبحت الجزائر تبعا لذلك وكرا للقرصنة المنظمة . ثم أفضى تدخل آل عثمان في شئون شمالي إفريقيا إلى اشتباك أسطولها مرات كثيرة بأساطيل الدول الأوربية المتألبة عليه ، فكانت حقبة ملتزمة بالحروب ، خالية من الأمن ، ولا سيما في غرب البحر المتوسط . فانقطع التبادل التجارى من جراء ذلك النضال بين الأمصار المتقابلة في هذا البحر وغيرها .

وكان المظنون بفرنسا أن تبادر منذ احتلالها الجزائر (١٢٤٦ هـ = ١٨٣٠ م) إلى الأعمال العمرانية ، وإلى تنشيط أسباب التجارة ، وفقا لرسالة التمدين التي حملتها على زعمها إلى المغرب ، وخصوصا أنها كانت تبرر احتلالها الجزائر بعزمها على الفتك بالقرصنة ، ولكنها في الواقع كانت جد بطيئة في الإصلاح ، ثم لم ترسم أية خطة من هذا القبيل ، إلا أن تكون مستمدة من هدفها الاستعماري . فقد وضع الشيخ محمد يبرم كتابه « صفوة الاعتبار » بعد خمسين سنة من احتلال فرنسا للجزائر ، وقال في معرض الاستخفاف بهذه الإصلاحات ، في الناحيتين التجارية والصناعية بالجزائر ، مايلي : « إنها تلى التجارة بتونس إذ لم يحدث بها معامل ولا كبير حركة تجارية سوى بعض المعادن » .

هذا ، وقد واجهت فرنسا هناك أمة قوية الشكيمة ، ظلت تناضل عن حريتها حتى سنة ١٨٤٠ ، ثم لم تستسلم ، ولا سيما في جبال الأطلس الكبير والواحات ، حتى سنة ١٨٦٧ .

لذلك عني الفرنسيون عناية خاصة بمد الخطوط الحديدية، قصد تسهيل نقل القوى العسكرية، فنجحوا سنة ١٨٦٠ امتيازاً لشركة فرنسية، كانت باكورة أعمالها مد خط يصل قسطنطينة بالبحر، ثم واصلت هذه الشركة وغيرها مد الخطوط الحديدية في كثير من الأنحاء، حتى بلغ طولها سنة ١٩١٤ : ٣٣٣٧ كيلومتر. وفي عدادها خط يمتد من قابس إلى « كازابلانكا » الفضاء الأبيض، هذا فضلاً عن الأسلاك البرقية الكثيرة، وفي جملتها سلك يصل الجزائر بفرنسا « ١٨٧٠ » .

ولما كانت الجزائر غنية بمعادنها، تنافست الشركات الفرنسية على طلب الامتيازات للتنقيب عنها، فوفقت لاستخراج كثير من المعادن المختلفة، وأهمها الحديد والرصاص والزنك، فضلاً عن بعض المواد الكيميائية. وقامت إلى جانب ذلك شركات أخرى فرنسية لتبادل التجارة، وخصوصاً مع فرنسا. وقد رافق نشاطها نشاط مماثل لإنشاء المرافئ في مدن الجزائر ووهران وبونة وفيليفيل وبوجي، وقامت بها الشركات الفرنسية أيضاً قصد الاستثمار.

على أن فرنسا والفرنسيين وإن كانوا يتوخون، قبل كل شيء من مد الخطوط الحديدية وإنشاء المرافئ العصرية، تأمين أغراضهم العسكرية، وتسهيل سبل المواصلات لشركاتهم الاستثمارية؛ فإنهم عملوا مع ذلك على تحسين الحالة الاقتصادية، وعلى زيادة السكان، إلا أن حصة الأسد في ذلك الإصلاح وفوائده كانت من نصيب المستعمرين أنفسهم؛ ولا أدل على ذلك من وجود تسعين في المئة من هؤلاء السكان في خدمة العصابة الفرنسية الرأسمالية. هذا عدا أن معظم الصادرات من الجزائر والواردات إليها تذهب إلى فرنسا، وتصدر عنها؛ كل ذلك بمقتضى سياسة جمركية وضعتها، تحد مدى الاتصال التجاري مع غير فرنسا وتضييقه.

ي — تونس :

قلنا إن الحروب الصليبية كانت قد قطعت العلاقات الاقتصادية بين الدول الإسلامية والدول المسيحية . ولكن هذه الحروب الطويلة تخللتها فترات من الزمن كانت بمثابة هوة منقطعة تركت المجال للبصالح المتبادلة بين الفريقين المتخاصمين لإحلال التفاهم محل التخاصم في الشؤون التجارية .

وربما كان فردريك الثاني ملك صقلية وأمباطور ألمانيا وصديق المسلمين ، أول من تقدم لمثل هذا التفاهم على المنافع المتبادلة ، فقد عقد معاهدة تجارية بينه وبين ملوك بني حفص أصحاب تونس لمدة عشر سنين . كما أن المعاهدة التي عقدت سنة ١٢٧٠ م ما بين المنتصر الحفصي وشارل أنجو ، الذي خلف الملك سان لويس على قيادة آخر حملة صليبية ، كانت معاهدة شبه تجارية .

وكانت تونس أدركت عصرها الذهبي أيام المستنصر المشار إليه ، وقد بايعه شريف مكة بالخلافة بعد سقوط بغداد في حوزة المغول ، على اعتبار أنه أعظم عاهل في العالم الإسلامي .

ولكن الفوضى لم تلبث أن استحكمت في حكم خلفائه ، وعملت على إثارة مطامع الأوربيين في شمالي إفريقيا . ثم ازدادت هذه المطامع نشاطا إثر اندحار العرب في أسبانيا ، وأخذهم بالجللاء عنها ؛ وحينئذ لم يكتف الأاسبان والبرتغال باسترداد بلادهم ، بل ركبوا البحر يطاردون المسلمين في شمالي إفريقيا . وعند ما عجزت حكومات هذه البلاد عن مقاومتهم وجها لوجه ، تحولت إلى القرصنة ، وهي أشبه شيء بحرب العصابات في البر .

على أنه برغم ما انتاب تونس في عهد الدولة الحفصية من فوضى الأحكام بعد المستنصر ، وبرغم استفحال شأن القرصنة ، فإن عهدهم هذا لم يخل من

الازدهار الاقتصادي ؛ وقد عقدت خلاله عدة معاهدات مع أوربة لتنظيم الملاحة وتبادل التجارة ، ولا سيما مع برشلونة وجنوة وبيزة وصقلية والبندقية ومرسيليا ، أرسل ملك فرنسا هنري الثالث قنصلا إلى تونس لتمتين العلاقات التجارية ، وذلك بموافقة تركية .

ثم ما استقرت الأمور في تونس للدولة الحسينية الحاضرة ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، حتى أصبح التبادل التجارى بين المغرب وأوربة أشد توثيقا . وخصوصا عهد الباي حمودة (١١٩٦ = ١٧٨٢ - ١٢٢٩ = ١٨١٤ م) الذى اشتهر بعلاقاته الحسنة مع أوربة . وقد ساعد على ذلك أن أعمال القرصنة لم تعد على حال من شأنها أن تحول دون ربط الصلات بين تونس وأوربة ، فاستؤنفت العلاقات التجارية مع أسبانيا وفرنسا والدانمرك ، ومع الولايات المتحدة .

وقد وصف الشيخ محمد يبرم التونسى تجارة تونس فى كتابه « صفوة الاعتبار » سنة ١٨٨١ م وصفا وإن جاء قبيل الاحتلال الفرنسى ، إلا أنه يصدق على الزمان كله ، الذى كانت فيه هذه الإيالة تابعة لآل عثمان . قال ما ملخصه : « إنهم يتجرون فى البضائع التى تنفق فى البلاد الإسلامية ، بإخراجها إليها ، ويجلب ما يروج من بضائعها ، وأغلب الصادر والوارد من أوربة محصور فى الأوربيين ، وقيمة الداخل والخارج لا يتجاوز أربعين مليون فرنك بالسنة . والبضائع الصادرة هى الجبوب والبقول والزيت والصوف والقطن والأسفنج وبيض السمك « بطارخ » واللحم والمنسوجات ولا سيما الشاشية . وأما البضائع الداخلية فهى كثيرة ، فمنها المنسوجات وأنواع الأخشاب والحديد والقرميد والأبازير وغيرها مما هو محتاج إليه فى الحضارة . ويجرى حمل السلع إلى خارج القطر فى السفن البحرية . وقد رسا بأعظم مراسى القطر ، وهو حلق الوادى سنة ١٢٩٥ هـ

و ١٨٧٨ م : ٢٨٥ باخرة و ٤٨٠ سفينة شراعية ، كلها للأجانب إلا عدد يسير للعرب .

« وأغلب التجارة الأجنبية رواجها هي الفرنسية والإيطالية . وأما حمل السلع في البر فهو على ظهور الدواب والعجلات ، وأما القبايل فلهم القوافل . ولما كانت الطرق الصناعية قليلة ، كان أغلب التجارة يتعطل زمن الشتاء داخل القطر ، ولكن الطريق الحديدية المارة إلى الجزائر سهلت التجارة إلى الجهات القريبة ، كما أنه رتبت بواخر للبريد والسلع بين مراسي القطر الشهيرة ، زيادة على البرد التي تأتي من أوربة . »

والخط الحديدي الذي يشير إليه الشيخ محمد بيرم هو لشركة فرنسية ، استطاعت الحصول على امتياز من الباي محمد الصادق (١٨٥٩ — ١٨٨٢ م) مع امتياز آخر لمد الأسلاك التلغرافية ، وذلك قبل الاحتلال الفرنسي ، كما منح الباي المشار إليه شركة روباتينو الإيطالية امتيازاً آخر لخط حديدي ، بين حلق الوادي ومدينة تونس .

ولما وقع هذا الباي معاهدة قصر سعيد سنة ١٨٨١ معترفاً فيها بحماية فرنسا ، خولها بمقتضى هذه المعاهدة حق التصرف بالإدارتين الاقتصادية والمالية . والواقع أنها لم تلبث أن تصرفت بكل الإدارات ، وكانت تعمل فيها للاستثمار بكل معنى الكلمة .

وتسهيلاً لأعمال الشركات الفرنسية ، عني المقيم العام شارل روفيه بمرافق التجارة ، فأصلح المرافق ، ومد الخطوط الحديدية ، وشق الطرق ، ومنح هذه الشركات امتيازات للتعدين ، فأصبحت تونس تصدر - وخصوصاً إلى فرنسا - المعادن بالإضافة إلى الحبوب وزيت الزيتون . على أن حكومتها وضعت قوانين جمركية حصرت في الفرنسيين بعض نواحي الاستثمار .

هذا ، وقد اتجهت أنظار فرنسا منذ الاحتلال إلى ناحية إقامة نظام جمركي ، يجعل من تونس سوقاً لمصنوعاتها ، بالإضافة إلى جعلها مزرعة لأبنائها ،

ولما كانت رغبتها هذه تتعارض مع الاتفاقات التجارية التي كانت تونس مرتبطة بها قبل الحماية مع دول أوربية أخرى ، وتتعارض كذلك أيضا مع تعهداتها التي وردت في معاهدة باردو ، عملت أولا على أخذ موافقة هذه الدول على التنازل عن حقها في الامتيازات الأجنبية ، ثم استصدرت « أمرا عاليا » مؤرخا في ٢ مارس ١٩٢٨ جعل فرنسا تتمتع بامتيازات جمركية خاصة ، كان بها القضاء على استقلال تونس الاقتصادي .

وشفعت من ثم هذا الأمر العالى بإنشاء شبه اتحاد جمركى ، يخول كثيرا من البضائع الفرنسية الدخول إلى تونس دون دفع رسوم جمركية ، ويحرم صادراتها إلى فرنسا مثل هذا الحق .

وإن هذا الاتحاد الجمركى ، كما سهل لفرنسا الحصول على المواد التي تستوردها من تونس بأثمان أرخص من البلدان الأخرى ، حرم على هذه البلاد « تونس » أيضا حرية تقرير الرسوم الجمركية المتفقة مع مصالحها ، وجعلها مجبرة أن تفرض على البضائع الأجنبية كلها مثل المكوس الجمركية التي حددتها فرنسا عليها عند دخولها البلاد اه .

وكان من نتيجة هذه السياسة الاحتكارية ، وقوف الحركة التجارية فيما عدا نطاق المؤسسات الأجنبية ، وفي غير المصالح الفرنسية .

ك - ليبيا :

وأما طرابلس الغرب فكان شأنها شأن سائر المغرب : ضيق فى نقل التجارة فى البحر المتوسط إبان استفحال القرصنة . ولكن ما إن قضت الأساطيل الأوربية على هذه العصابات البحرية ، واستقر الأمن فى هذا البحر ، حتى تسابقت لعقد الاتفاقات التجارية مع عواهل مراکش والجزائر وتونس وأمرأ ليبيا ، زيادة على المحالفات والمعاهدات التى خفت إلى توقيعها مع الأمبراطورية العثمانية .

وكانت ليبيا تحتل بين بلاد الشمال الأفريقي منزلة مرموقة في التبادل التجاري منذ أوائل التمدن الحديث ، وذلك من جراء وقوعها بين أوربة والسودان والحيشة وما حولهما من أواسط إفريقية ، وللخط التجاري الذي كان يخترقها بقوافل منظمة ، مارا بغدامس وفزان . ومع ذلك فإن كشف البرتغال طريقا للهند من ناحية رأس الرجاء الصالح ، كان شديدا الأثر في تجارة ليبيا ، أسوة بسائر بلاد البحر المتوسط .

هذا ، وكان عهد آل القرمنلي فيها عهدا حافلا بالعلاقات التجارية مع الشرق والغرب ، مزدهرا بالتجارة ، من جراء نفوذ هذه الأسرة الحاكمة في البر ، وسلطة أسطولها في البحر ، ولكن الفوضى التي استحكمت حلقاتها في ولاية طرابلس في الغرب عهد الحكم العثماني المباشر ، بعد آل القرمنلي ، أفضت إلى عرقلة أسباب التجارة ، وكساد أسواقها .

ثم إنه لما أفلتت تونس من مطامع الطليان ، تحولوا إلى ليبيا يمهدون السبل لاحتلالها ، وذلك بتعزيز مشروعاتهم الاقتصادية فيها ، ولاسيما الملاحة التي تصلها بإيطاليا ، ثم انتهزت روما فرصة الاتفاق الذي وقعته مع بريطانيا العظمى وفرنسا ، وعمدت إلى احتلال ليبيا سنة ١٩١١ ، وحيال المقاومة الشديدة التي اصطدمت بها هناك من أصحاب البلاد ، ورغبة منها في تأمين سبل الاستعمار والاستثمار ، خفت حكومة روما إلى تعبيد الطرق ، ومد الخطوط الحديدية ، وتوسيع شبكة الأسلاك البرقية والهاتفية ، فضلا عن زيادة الخطوط البحرية .

ولكن سياسة القهر التي جرت عليها في معاملة أصحاب البلاد ، حملتهم على الهجرة تباعا ، حتى امتلأت بهم الأمصار العربية .

الزراعة في بلاد العرب في عهد آل عثمان

١ — التطور الزراعى ونظامه الحكومى :

جرى العرب منذ فتحوا الفتوح ، على نظام « من أحيا أرضا مواتا فهي له » ، فأقبل الناس على الزراعة . وأما الأراضى المزروعة فإن بعض الفاتحين العرب من قادة وأجناد ساورت نفوسهم المطامع بقسمتها فيما بينهم ؛ ولكنهم مع ذلك أرادوا أن يتقيدوا بأمر عمر ابن الخطاب ، فرفعوا إليه هذا المطلب ، ولكن الخليفة خف إلى توجيه أوامره إلى عمرو بن العاص فاتح مصر ، وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق ، يحذرهما من استجابة طلب المجاهدين ، ويأمرهما باستبقاء المزارع والأراضى فى حوزة أصحابها أهل البلاد ، يستثمرونها بكل حرية ، فتستفيد الحكومة من خبرتهم ، وتتغذى الخزانة من خراجها . وقد وقف الخليفة عمر موقفا حازما فى هذا الشأن حيال الصحابة أيضا من أهل شوره ، الذين كانوا يحاولون إقناعه أن يبدل رأيه هذا ، قصد مكافأة المجاهدين بهذه الأراضى وتنشيطهم .

وأما آل عثمان فما تقيدوا بعدل عمر ، بل إنهم مثلا اعتمدوا على نظام الحكم العسكرى المطلق فى إدارة البلاد التى كانوا يفتحونها ، جعلوا أراضى ومزارع تلك البلاد من نصيب الأجناد أيضا . وقد وصف جودت باشا فى تاريخه إدارة السلطنة فى ذلك العهد ، بقوله : « وكانت الإدارة فى حوزة الأمراء العسكرين ، وهم مرجع السلطة العسكرية أيضا ، فكان أمراء السناجق إبان الحرب هم الضباط الأمرين ، كما أن أمراء الأمراء كانوا رؤساء الفرق . أما أمراء الإيالات فكانوا المرجع الأعلى ، وعلى عاتقهم تقع مهمة تنظيم الجند ، وبمقتضى عرضهم للباب العالى تمنح التوجيهات والرتب . على أن أمراء الأمراء كانوا يوجهون « المرتبات المحولة » إلى مستحقها ، وتصدر الإرادة السنية بذلك ، استنادا إلى التماساتهم .

والمقصود بالمرتبات المحولة هنا، الأراضي الزراعية التي كانت تمنح للغزاة والجنود، وهي على قسمين : فمنها ما كان يسمى «زعامت» ، ومنها ما كان يسمى «التيار» . على أن هذه المزارع التي كانت الغاية من توزيعها على الأجناد مكافأتهم وتنشيطهم ، لم تلبث أن صارت إلى البوار ، وتحولت تدريجاً إلى أملاك خاصة ، استقل بها أهل النفوذ في السلطنة ، ولا سيما الحكام والوزراء ، ووقفوها على أعقابهم .

وربما كان رستم باشا الصدر الأعظم صهر السلطان سليمان القانوني أول من ارتكب هذه البدعة ، ثم استفحل أمرها بعده إلى حد أن وزراء السلطان مراد الثالث وجهوا الزعامات والتيار إلى خدمهم . ومن السهل معرفة مصير مزارع كانت تنتقل من أيدي الجند إلى أيدي الخدم ، وكان يتولى زرعها واستغلالها أمثال هؤلاء الجهال .

يضاف إلى ذلك فوضى الضرائب ؛ فإن الفاتحين الأولين من سلاطين آل عثمان كانوا يحجرون في جباية المكوس المرتبة على الأراضي المزروعة على سنة العرب ، فيستوفون العشر فقط ، بيد أن عمالهم وجباة الدولة ، ما كانوا يتقيدون بالنظام ، بل يجورون ويظلمون . فبدأ للسلطان محمد الفاتح أن يجري في صدد استيفاء الضرائب المقررة على طريقة التلزيم ، رغبة منه في دفع الخلل ورفع الشكاوى .

بيد أن التلزيم نفسه لم يلبث أن اعتوره سوء الاستعمال أيضاً ، ولا سيما منذ عهد السلطان سليمان القانوني ، حتى إن الصدر الأعظم رستم باشا المشار إليه ، عهد إليه في تلزيم الإيالات والإقطاعات فضلاً عن الضرائب .

ومضى علمنا بأن هذه الالتزامات سواء أكانت للإيالات أم للضرائب ، إنما يتوخى المقبولون عليها المكاسب ، قدرنا من فورنا قدر إرهاب هؤلاء للشعب في بلاد مترامية الأطراف ، إلى حد لا يمكن معه إجراء أية مراقبة . على أن هذه الالتزامات وإن كانت تجري على طريقة الخراج ، إلا أنها كانت تتم

في الواقع بمواطأة بين الملتزمين وبين الوزراء والحكام . وكان الملتزمون كثيرا ما يقترضون الأموال من صيارف غلطة بالاستانة بربا فاحش ، ثم متى بلغوا مقر التزامهم تقننوا بأساليب الإرهاق والاختلاس ، يحمي ظهورهم شركاؤهم من الحكام والوزراء .

أما مجلس الولاية الذي كان يؤلف من أعيان البلاد ، فكان أعضاؤه خشبا مسندة ، إما لجهلهم أو خوфهم من الحاكم ؛ بل كان بعضهم مطية للإضرار بمواطنيهم . ويقول أوسون Ohsoon « إنه كان في أيام السلطان محمود الثاني اثنان وعشرون لواء ملزمة لعمال طوال حياتهم ، وكان هؤلاء العمال يلزمون الإقطاعات التي في ألويتهم ، هذا فضلا عن ثلاث ولايات كانت وقتئذ ملزمة لحكامها الباشوات » .

وقد بسط دوڤالي De valey تأثير هذه القوضى الإدارية والمالية ، وأجلها جودت باشا بقوله : « ولما أبى الأعيان أصحاب الدين والإنصاف التقدم لأخذ الالتزامات ، تراحم عليها حثالة الناس ، فكان هذا سببا آخر لخراب القرى والمزارع مثلها خربت المدن ، ومصدرا لدفع الرعية إلى مهاوى الفقر » .

كل ذلك كان حافزا للسلطان محمود الثاني الذي اعتزم القيام بالإصلاح بعد قضائه على الإنكشارية ، لأن يصدر إرادة سنية في سنة ١٨٢٦ يمنع فيها تلزيم الولايات مدى العمر ، حاضرا على الوالى أن يكون ملتزما .

ثم لما أصدر السلطان عبد المجيد الأول خطى كلخانة (١٨٣٩) وهمايون (١٨٥٦) ألغيت بمقتضاها بعض ضروب الالتزام . ولم تكتف الحكومة بإصلاح أصول جباية الضرائب ، بل عمدت إلى إصلاح الضرائب نفسها ، على أساس العشر وويركو الأرض ؛ ولكنها إذ لم تجد وسيلة لإبطال تلزيم الأعشار ، قامت سنة ١٨٧٠ بإصلاح أساليب استيفائها .

على أن هذه النظم والقوانين ما كان بوسعها أن تستأصل الخلل الذي استقر

مع الزمن ، هذا فضلا عن أن الأحوال المالية بالإضافة إلى المفاجآت السياسية ، لم تترك للسلطنة الفرصة للعناية الخاصة بتنشيط الزراعة ، ومباشرة أعمال الري والسدود .

والآن وبعد أن أجمعنا الكلام على أحوال السلطنة ، نعود إلى التخصيص ، فنلم بشئون كل قطر على حدة .

ب — الزراعة في مصر :

« إن مصر هبة النيل » قال هذا هيرودت . وهو في الواقع إنما كان يردد ما كان يعلنه كهنة المصريين ، معربا عن الحقيقة المجردة .

بلى ، ليست مصر إلا هذا النهر المبارك ، الذي يجري في وسط واد طويل يبلغ امتداده من مدخل مصر حتى البحر مائة وثلاثة وعشرين مريا متر^(١) على تقدير أمير الألاي جاكوتان Jacotin .

وقد أيد هذا إستيف Esteve في كتابه « وصف مصر » حيث قال :
إنما يرجع الفضل في وجود الزراعة بمصر إلى فيضان النيل ، ولولاها لما أخضبت تربتها ، بل كانت عرصة للرمال ؛ وإن درجة الفيضان في هذا القطر ، هي المقياس الوحيد للمحاصيل الزراعية .

فمصر إذا هي قطر زراعي قبل كل شيء آخر ، كانت ولا تزال كذلك .
وبينما كانت العراق ميدان فتن بين المتنازعين على المناصب ، وكانت بلاد الشام ساحة حرب بين المسلمين والصليبيين ، كان هذا القطر منصرفا إلى الزراعة يوفيهما حقها ، ويستثمر خيراتها .

ثم كان من نصيبه الدخول في حوزة آل عثمان في أوائل القرن السادس عشر ، فما تبدل مستوى نشاطه في الحقل الزراعي برغم تبدل الحكم ؛ وليس أدل على ذلك من خراج مصر في ذلك الحين ، وما كان يترتب منه على القسم الزراعي ، وكان يقدر بمليون جنيه مصرى .

(١) الريامتر المربع : يعادل ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ هكتار .

وقد ظل هذا المرتب على حاله مع زيادة طفيفة في عهد السلاطين العثمانيين محمد وأحمد ومصطفى ، وذلك خلال القرن السابع عشر .
 بيد أنه لما صار الحكم إلى المماليك البكوات ، الذين حكموا باسم آل عثمان وتحت إشرافهم ، لحق الأهالي الذل والإهانة ، على رواية على باشا مبارك في الخطط الجديدة التوفيقية ، قال : « فقد هاجر كثير منهم إلى الديار الشامية والحجازية وغيرها ، وخربت البلاد ، وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين ، وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان ، الذي عليه مدار الخصب » . ولما احتلت الحملة الفرنسية البلاد المصرية ، كان حالها لا يزال على ما وصف على باشا .

على أن الفرنسيين ، برغم إمعانهم في درس المشروعات الإصلاحية لمصر ، ووضع برامجها ، تعذر عليهم مع ذلك تحقيق أى مشروع منها ، لأنهم لم يتمتعوا هنالك بشيء من الاستقرار . بل إن الأراضي المستغلة تناقصت مساحتها في عهدهم ، وتناقص خراجها إلى ما يعادل ٦١٣ ، ٨٩٦ جنيهاً فقط ، ثم أخذت الفلاحة تنتعش وتزدهر منذ صار حكم مصر إلى الأسرة المحمدية العلوية ؛ لأن محمد على باشا خف إلى إنقاذ الفلاح من مخالب الملتزمين ، وصرف عنايته إلى الزراعة وإصلاح شئونها ، فكان من مساعيه جلب بزور القطن من سورية وغيرها ، والنيلة من الهند ، كما استقدم العمال الفنيين من شتى البلاد ، وأكثر من غرس الأشجار . وعلى رواية باتن Paten إن موارد الأقطان وحدها التي عني هذا الوالى بزراعتها ، مكنته من الثورة على الباب العالي . وعلى رواية كلوت بك بلغ خراج الزراعة سنة ١٨٣٣ م : ١٠٨٤,٩٢٢ جنيهاً مصرياً ، وهذا المبلغ وإن كان لا يدل على تحسن محسوس في الزراعة ، ولكنه كان مع ذلك بمثابة باكورة تقدم ظهر فيما بعد ، وخصوصاً أيام الخديو إسماعيل باشا ؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى الأخذ بالأساليب الفنية الحديثة ، بالإضافة إلى الاستقرار السياسي . هذا ، وكان

وادی النيل ، وفي ذلك الوجه البحرى ، خاضعا لنظام الرى القديم ، الذى يرجع إلى آلاف السنين . ولما وجد محمد على باشا الكبير نفسه حرا طليقا ، قرر تغيير هذا النظام ، فأمر مهندسيه ، وعلى رأسهم « لينان » و « موجل » سنة ١٨٤٥ م ، بإقامة القناطر الخيرية ، فكانت باكورة الأعمال الهندسية على النيل : ومع أن هذه القناطر بقيت معطلة لظهور عيوب فى تصميماتها ، فإن ذلك لم يثبط الخديو إسماعيل عن مواصلة السعى للاستفادة من النهر استفادة حقا ، فعمد إلى إنشاء الترعة الإبراهيمية ، وهى أكبر وأطول ترعة فى العالم ؛ كما أنه اهتم بإقامة المضخات على النيل نفسه .

هذا ، وكانت بريطانيا العظمى قد انتدبت مستر كليف سنة ١٨٧١ م لدرس مالية مصر ، فجاء فى تقريره الذى رفعه إليها : « إن الأراضى المزروعة بلغت وقتئذ ١٠٧ ، ٨٠٥ ، ٤ فدان ، وإن الأراضى القابلة للزراعة والبقية دون استغلال تبلغ ٩٨٠ ، ٠٠٠ ، ١ فدان » على أن بعض المؤرخين روى أن الحملة الفرنسية أحصت أراضى مصر المزروعة ، فكانت تناهز ٢٧٩ ، ٥٤١ ، ٤ فدان . فإذا صح هذا الرقم تكون الزيادة فى الأراضى المزروعة حتى عام ١٨٧١ م قليلة جدا ، خلافا لما رواه مستر كليف المذكور حيث قال : « وإن مساحة الأراضى المزروعة زادت خلال الثلاث عشرة سنة التى قضاهما الخديو إسماعيل فى الحكم ٥ ، ٣٣ . / على ما كان من قبل » .

هذا ، وقد دخلت زراعة وادى النيل عهدا جديدا فى أثناء حكم خلفه الخديو توفيق باشا وما بعده . وذلك من جراء تقدم العلوم الزراعية الحديثة وأواخر القرن التاسع عشر ، وما رافقها من اختراعات قلبت أساليب الفلاحة رأسا على عقب ، وخصوصا أن الاحتلال الإنكليزى لمصر عمل على تسهيل أسباب الاستفادة من هذه العلوم والاختراعات .

وقد عيّنت مصر منذ ذلك الحين بالمنشآت الزراعية . وفى سنة ١٨٨٩ م قامت مدرسة الزراعة فى الجيزة ، وما زالت تتقدم حتى أصبحت اليوم من

أهم كليات الجامعة المصرية، وفي سنة ١٨٩٨م تألفت الجمعية الزراعية الخديوية، وفي سنة ١٩٠٩ أنشئت مصلحة الزراعة، وأصبحت وزارة سنة ١٩١٥ م، هذا فضلا عن قيام الأعمال التعاونية.

وعلى هذه الأسس، وبفضل المشروعات المهمة، وخصوصا الخزانات الكثيرة أصبحت المساحة المزروعة أوسع كثيرا مما كانت. كما أن نسبة الإنتاج زادت أيضا على قدر الخبرة والتحول من أساليب الري القديمة إلى الطرق الحديثة، أكثر منها بالنسبة لاتساع الأراضي المزروعة. ففي سنة ١٨٩٢م كانت مساحة الأراضي المزروعة قطنًا نحو مليون فدان، محصولها قرابة خمسة ملايين قنطار؛ فأصبحت هذه المساحة بعد سنين نحو مليون وثلاثة أرباع مليون من الأفدنة ذات محصول يقارب تسعة ملايين قنطار.

ومثل ذلك القمح، فقد كانت مساحة الأراضي المزروعة منه سنة ١٩٠٢م مليونًا وربع مليون فدان، تغل سبعة ملايين أردب فقط، فأصبحت بعد قليل نحو مليون ونصف مليون من الأفدنة، تعطى تسعة ملايين أردب تقريبًا، فسجلت مصر بجهود أهلها وحكوماتها نهضة زراعية مباركة، جعلتها في مقدمة البلاد العربية ثروة وعمرانا.

ح - الزراعة في السودان :

يمكن تقسيم بلاد السودان من حيث الثروة الزراعية الطبيعية إلى ثلاث مناطق :

(١) المنطقة الشمالية المتاخمة لمصر، وقد استطاعت بأساليب الزراعة البدائية أن تغل ما يسد حاجة سكانها؛ وأهم حاصلاتها النخيل والقمح وبعض الفواكه، وشرعت تزرع القطن منذ مستهل هذا القرن.

(٢) المنطقة الوسطى، وهي خصبة التربة، سهلة الري، حافلة بالأنهر والسواقي. ومع أنها تشمل نحو ثلاثمائة مليون من الأفدنة الصالحة

للزراعة ، كانت الزراعة فيها وما زالت مقتصرة على جزء صغير من مساحتها الواسعة ، وهى إنما تعتمد على أساليب الزراعة الأولية ، والأهالى فيها يزرعون لسد حاجاتهم الضرورية وليس للتجار .

(٣) المنطقة الجنوبية عند خط الاستواء ، وهى ملأى بالغابات ، وتطفح بمياه المستنقعات ، ومع ذلك تأتى فى المرتبة الثانية من حيث الثروة الزراعية بعد المنطقة الوسطى . وفيها ينمو الموز والأنج «المانجو» والأناناس والباباى عفوا دون زرع .

وقد فكر الإنكليز منذ استعادوا السودان ، أن يجعلوا من تلك البلاد مزرعة للقطن تغذى معاملهم ؛ وقد أثار اللورد كيتشنر منذ دخوله البلاد موضوع بناء خزان عند سنار ، وزراعة القطن فى الجزيرة ، وشجعت حكومة الخرطوم السودانين على زراعة القطن ، فأنشأت منذ عام ١٩٠٣ مكتبا للتجارب الزراعية فى مدينة شندي ، ولبنى المزارع السودانى هذه الدعوة ، فأقبل على زراعة القطن منذ سنة ١٩٠٠ ، وبلغت المساحة المزروعة منذ سنة ١٩٠٥ : ٨٩٨ ، ٢٣ فدانا .

ومن ثم تحركت لانكشير ، فأنشأت نقابة السودان الزراعية فى سنة ١٩١٠ ، وباشرت زراعة الأقطان فى الزيداب والدامر ، وبدأت بزراعة خمسة آلاف فدان فى الجزيرة ، وكانت هذه المساحة تزداد عاما بعد عام . وخصوصا بعد أن قامت الحكومة بمشروع كبير لرى أرض الجزيرة فى سنة ١٩١١ ، ساعد على زراعة القطن فى نطاق واسع تحت إشراف شركة السودان الزراعية .

على أن محاصيل القطن فى السودان قدر لها أن تكون فى النتيجة من حظ الإنكليز دون غيرهم ؛ لأن هذه الشركة ومعها شركة كسلا التابعة لها ، هما صاحبتا الحق فى احتكار هذا المحصول . والواقع أن القطن ليس خاضعا وحده للاحتكار فى السودان ، بل إن الحكومة تشتري بوساطة الشركة

المتحدة من المزارع السوداني إنتاجاته الأخرى ، من فاصوليا وبطاطس وقمح وسمسم ، بأثمان معتدلة ، لتبيعها في أسواق مصر وغيرها بأثمان عالية .

و — الزراعة في بلاد الشام في عهد آل عثمان :

(١) روى خليل الظاهري ، وهو من أهل المئة التاسعة للهجرة ، وعاصر دخول الشام في حوزة السلطنة العثمانية : أنه كان على عهده نيف وألف قرية ومدن صغار في حوران ، وأنه كان في إقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية ، فضلا عن المدن الصغار وبلدان تشبه المدن ، وأنه كان في وادي التيم وما إليه ، ثلاثمائة وستون قرية .

وقد علق الأستاذ محمد كرد علي في كتابه خطط الشام على هذه الرواية بقوله : « وإذا أحصيت قرى هذه الأقاليم الثلاثة اليوم لاتجدها في حوران تزيد على أربعمائة قرية ومنها الحرب ، وفي الغوطة على خمسين ، وفي وادي التيم على ثلاثين إلى أربعين . وهكذا سائر بلاد الشام ، فإن حلب كان فيها قبل العثمانيين ٣٢٠٠ قرية ، فأصبحت ٤٠٠ في القرن الحادي عشر ، ومنها ما ظل خرابا إلى النصف الأخير من القرن الماضي ، لأن معظم عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم ، وكان من جندها ، ولا سيما الإنكشارية في آخر عهدهم ، أدوات تخريب لم يشهد الناس أفطع منها » .

وترجع أسباب انحطاط الزراعة في بلاد الشام ، وخراب دساكرها في العهد العثماني ، إلى أسباب متعددة تلخص فيما يلي :

- (١) الاعتماد على طريقة تلزيم الأمصار والإقطاعات .
- (٢) كثرة تبدل متولى السناجق وغيرها ، حتى لم يكن في وسع أحدهم مباشرة الإصلاح .
- (٣) قلة الأمن على الأرواح والأموال ، وتعرض أهل البادية للندن وتخريبها .

- (٤) النقص في كل من رموس الأموال والأيدى العاملة .
- (٥) الفوضى في الضرائب .
- (٦) انتقال ملكية المزارع إلى رجال الحكم وذوى النفوذ ، وهم غير قادرين على الفلاحة إلا القليل منها .
- (٧) عدم وجود الطرق لنقل المحاصيل .
- هذا فضلا عن الفتن الداخلية التي كانت تحدث بين المتولين أنفسهم ، وعدا القتال الذي كان كثيرا ما يقع بين طوائف الأجناد بعضهم مع بعض ، وعلاوة على الغزوات الخارجية التي كانت سورية عرضة لها حيناً بعد حين ، ومنها حملات نابليون الأول وعلى بك الكبير وإبراهيم باشا المصرى ، وغزوات الوهابيين .
- غير أن لبنان الذى قدر له فى عهد المعنيين والشهابيين السلامة من هؤلاء الباشوات والغزاة ، كان أحسن حالا من غيره ، يتجلى لنا هذا بكتاب وضعه سنة ١٧٨٤ ثولنى Volney السائح المعروف ، وأسماء : Voyage en Syrie فهو عقب إطرأ نشاط اللبنانيين ، ذلك النشاط الذى حول صخورهم إلى تربة مخصبة ، قال « فأمام هذا المنظر الخلاب نسيت أنى موجود على أرض تركية ، ثم إذ ذكرت هذه الحقيقة فلا أقدر ما للحرية من التأثير الكبير فى مقدرة الشعوب » .
- (٢) كانت الحبوب على أنواعها والبقول أهم أنواع الزراعة فى بلاد الشام ، ولا سيما القمح والشعير ، وذلك لأنها لا تحتاج إلى الرى ، ولا تتطلب رموس أموال كبيرة .
- وكانت زراعة القطن وقصب السكر من الزراعات التى تدر على سورية الخيرات ، ومثلها الكرمة والمشمش والزيتون وتوت الحرير .
- وقد بلغت صادرات بلاد الشام من القطن سنة ١٨٦٩ : ٢،١٠٠،٠٠٠ كيلو ، ثم كان افتتاح قناة السويس فى ذلك العام بداية عهد اضمحلال زراعة

هذا الصنف في بلادنا، وذلك من جراء المنافسة التي منى بها من قبل قطن مصر وأمريكا .

غير أن الزراعة السورية شرعت منذ صدر القرن التاسع عشر ، تنتعش وتزدهر ، من جراء الإصلاحات الإدارية والعسكرية التي قامت بها السلطنة ، بالإضافة إلى أخذها بأسباب العمران المدني ، فالأُنظمة التي وضعها السلاطين محمود وعبد المجيد وعبد العزيز ، التي ترمى إلى إصلاح الشئون الزراعية ، وذلك بتقرير العدل والأمن وإنصاف المزارع ، رافقتها أحداث جديدة ، ساعدت هؤلاء السلاطين على بلوغ الأمانة . ونحن نجملها فيما يلي :

أولاً : افتتاح قناة السويس ، وهي بتقصيرها طريق الهند عملت على زيادة ارتياد البواخر لمرافئ سورية ، وتسهيل نقل محاصيلها إلى الأسواق التي تحتاج إليها .

ثانياً : بالإضافة إلى تأمين النقل البحري مدت في الأراضي السورية الخطوط الحديدية التي ذكرناها ، وبلغ طولها نحو ألفي كيلو متر ، وفتحت الطرق الكثيرة ، وبلغ امتدادها سنة ١٩١٦ (٣١٤٣ كيلو متر) .

وكان أهم هذه الطرق :

- (١) بيروت — دمشق وقد نال امتيازها الكنت برتوى سنة ١٨٥٧ .
- (٢) حمص — طرابلس سنة ١٨٨٣ .
- (٣) حوران — دمشق سنة ١٨٨٨ .

هذا ، إلى أن حكومة الآستانة تمكنت منذ سنة ١٨٨٩ من توسيع الطرق العامة في سورية ، بمقتضى قانون أصدرته ، خصص عشرة في المئة من ريع البنك الزراعي لتعمير الطريق وتعييدها .

وبهذه الخطوط الحديدية والطرق ، نشط المزارع والفلاح إلى العمل ،

وذلك بإحياء الأراضي الموات ، وتسميد التربة ، بعد أن كان قد هرب من الزراعة حينما كانت أجور النقل تزيد على أثمان الإنتاج .

ثالثا : دخول رموس الأموال الأجنبية ، وهي فضلا عن قيامها بتعمير المرافق الضرورية ، تسربت إلى أيدي الزارع والتاجر عن طريق المصارف وغيرها .

رابعا : نزول جاليات في سورية كانوا أعرف من أهلها بأصول الزراعة ، ومنهم الجركس ومهاجرو أوربة ، فأنشأ هؤلاء مزارع على الطراز الحديث ، كانت نماذج لأهل البلاد .

خامسا : المدارس الزراعية ، فقد أقام الآباء البيض واليهود بفلسطين مدارس للزراعة ومشاتل ، كما أنشأ اليسوعيون في تعنيل مشاتل أخرى إلى جانب مزارعهم التي قامت على الفن ، ثم تحققت نية حكومة سورية على إنشاء مدرسة سلبية الزراعية سنة ١٩١٠ .

بفضل هذه التطورات التي حدثت في بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبفضل توافر أسباب النقل العالمية ورخص أجورها ، أخذت الزراعة تتقدم بسورية تقدما مطردا محسوسا ، وقد قدر روبن Ruppin إنتاج القمح فيها أواخر عهد آل عثمان بمليون طن ، والشعير بنصف مليون ، فضلا عن البقول كالقول والحمص والعدس والسمسم وغيرها .

وإلى هذا ، فإن سهولة تصدير الأثمار أفضت إلى زيادة التشجير . فالزيتون تضاعف عدد أشجاره ما بين سنتي ١٨٨٠ و ١٨٨٥ ، ثم ما زالت زراعته تزداد ، والكرمة تكاثرت ، حتى إن مساحة الأراضي المغروسة منها قدرت بنحو ٨٤٧٩٩ هكتارا . وذلك سنة ١٩٠٩ . والثوت أصبح محط الأنظار منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حتى بلغ إنتاجه من الفياج «الشرانق» قبل الحرب العالمية الأولى ستة آلاف طن . ولكن ظهور الحرير الصناعي أفضى إلى كساده ، وجعل الناس يتحولون عنه إلى الحمضيات والموز ، ويقبلون

على زراعتها إقبالا باهرا . فيبروت التي كانت سنة (١٩٠٢) تصدر خمسين طنا من البر تقال فقط ، أصبحت تصدر منه سنة ١٩١٠ أربعائة وثمانين طنا . وأما المشمش فلم تقتصر زراعته على دمشق ، بل شملت أنطاكية وفلسطين ، وقد قال القنصل الفرنسي جليبرت في أحد تقاريره الرسمية : « إن محصول دمشق من المشمش أصبح سنة ١٨٩١ نحو ٦٦ ألف قنطار ، وكان لا يتعدى في سنة ١٨٨٤ مقدار ٤٥٠٠ قنطار .

هذا بالإضافة إلى نشاط قليل في زراعة القطن ، وإقبال كثير على زرع التبغ . وقد بلغ إنتاجهما قبل الحرب العالمية الأولى : القطن ١,٥٠٠ طن ، والتبغ ١,٥٦٤ طن .

ولكننا مع ذلك لانزعم أن الزراعة في هذه الحقبة بلغت المستوى المطلوب ، وذلك لأن الأراضي السورية التي تعتبر قابلة للاستثمار ، والتي كانت تبلغ مساحتها ١٥٠ ألف كيلو متر مربع ، لم يكن يستثمر منها إلا أربعون ألف كيلو متر مربع تقريبا ، منها ألفا كيلو متر في لبنان .

هـ - الزراعة في العراق :

يخترق العراق نهران عظيمان : دجلة والفرات وتنساب إلى جانبيهما أنهر أخرى وجداول ، جعلت هذا القطر أوفى من مصر في مساحة الأراضي الزراعية : فبينما هذه المساحة لا تتجاوز في أرض الكنانة ٨٥٥٠٠٠٠٠٠ و٩٢٥٠٠٠٠٠٠ دونم ، فهي في بلاد الرافدين تبلغ ٢٠٠٠٠٠٠ و٩٢٥٠٠٠٠٠ دونم .

يبد أن الأراضي المروية والصالحة للرى في العراق ، هي دون مافي مصر اتساعا ، وتعادل نحو الثلث منها ، ولا تتجاوز أحد عشر مليون دونم ، ومع ذلك يعتبر العراق قطرا زراعيّا ، لأن ثمانين في المئة من أهله يمارسون الفلاحة ، ويعنون على الأكثر بزراعة الحبوب .

فتح العرب العراق في خلافة عمر بن الخطاب ، فكتب إلى قائد الحملة سعد بن أبي وقاص يأمره بترك الأرضين والأنهار لعمالها ، وذلك برغم معارضة بعض رجال شوره ، وبرغم هوى بعض أركان الحملة ، فتمتع العراق في صدر الإسلام ، وخصوصا بعد أن استتب الأمر للأمويين بشيء كثير من الاطمئنان والازدهار .

ثم ما كاد ينتقل الملك إلى ربوعه زمن العباسيين ، ويصبح هذا القطر ألف الوصل بين الشرقين الأقصى والأدنى ، حتى أصاب الزراعة فيه نجاح مرموق ، إلى درجة أن مساحة أراضيه المستغلة بلغت على رواية بعضهم ستة عشر مليون فدان .

غير أن هذا الازدهار أخذ يضمحل تدريجيا منذ جاء الترك ينازعون العرب والفرس على الزعامة في بلاد العباسيين وقاعدتهم ، وخصوصا منذ انقلبوا إلى القتال فيما بينهم ، مما أطمع المغول وغيرهم في بلاد الإسلام ، وأفضى في النهاية إلى وقوع تلك الكوارث فيها . وحسبنا ذكر هلاكو وتيمورلنك للإشارة إلى فظاعة تلك الكوارث التي ألمت بالعراق .

أجيال أربعة توالى على الشرق الأدنى قبل قيام السلطنة العثمانية ، فكانت القاضية على عمرانه . ولا غرو ، فهل يكون نصيب قطر أمسى ميدانا للقتال غير الخراب ؟ أجل فبسبب تلك الفتن الحالكة ، سدت الترع والأنهر التي كان الخلفاء قد احتفروها وأصلحوها ، وضاع الأمن ، فانصرف الناس عن الزراعة إلى الحروب طوعا أو كرها . وكانت مغبة ذلك مجاعات عامة في العراق وغيرها ، رافقها الجلاء في بعض السنين والوباء ، حتى أكل الناس فيه الميتة والكلاب والسنانير ، على ما رواه ابن العبري وابن الأثير وغيرهما . ولما استولى آل عثمان على العراق كان خصبه قد تحول محلا ، وأصبح محط رحال بدو نجد والجزيرة ، يعبرون الفرات إليه للرعى . هذا ، إلى أن بعد العراق عن دار السلطنة ، وانصرف العثمانيون في الجملة إلى

الحروب عن تعهد سلطنتهم بالإصلاح والعمران ، كل ذلك كان مدعاة لاستمراره على حالة من البوار حتى حين قريب .

ولا نكران بأن مساعي فردية برزت خلال العهد العثماني ، كان القصد منها العناية بالزراعة ، ولكن تلك المساعي لم تثمر على وجه عام ، إما لأنها كانت موضعية أووقفية ، أو أنها كانت من قبيل المظاهر ، يقصد منها الدعاية فحسب . من ذلك أنه لما استتب الأمر للسلطان سليمان القانوني ، أعار جانب الزراعة عنايته ، ورفع مستوى روف السليمانية ، لوقاية كربلاء من الفيضان ، ثم وسع التربة المعروفة بالحسينية ، وزاد في عمقها . وهو إذ اقتصر على هذه المشروعات لم يكن في الواقع يريد إحياء الزراعة فعلا ، وإنما أراد استرضاء إخواننا الشيعة ، الذين كانوا أنصار الفرس ، وتطبيب خواطرهم .

ثم اقتضت إصلاحات الولاية من بعده على بناء الجوامع ، وترميم المزارات ، وتعهد ما لا بد منه من أعمال الري الجزئية . حتى إذا صارت الولاية لحسن باشا في صدر القرن الثامن عشر ، تعدى ذلك إلى مباشرة العمران الحقيقي . فكان في جملة إصلاحاته : أعمال الري ، وإنشاء الجسور ، وشق الجداول والأنهر الصغيرة ، رغبة منه في إسكان العشائر مناطق الحضر . غير أن خلفاء المماليك الذين حكموا العراق حكما شبه مستقل ، عادوا إلى إهمال الزراعة . واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أتيح للسلطنة استعادة الحكم على العراق ، وأخذت في التجديد ، فعرف عهد الولاية منذ ذلك بكثير من الإصلاحات الزراعية . وفي سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م نصب على ولاية بغداد رجل لا يزال ذكره عطرا ، وهو محمد رشيد باشا ، الملقب بكوزلكي . فقضى فيها عهدا قصيرا ، ولكنه كان مليئا بالإصلاح . وربما كانت سياسته القائمة على شق الترع الكثيرة ، وتنظيف ما كان

موجودا منها ، وإصلاح الآقنية ، ترتكز على شيء من السياسة الحكيمة ،
الرامية إلى توسيع الأصقاع المأهولة ، وزيادة الواردات .

وخلفه بعد بضع سنين مدحت باشا (١٨٦٩) وهو كما عني
بالإصلاحات العسكرية والمدنية ، اهتم جد الاهتمام بتعمير العراق من
الجهة الزراعية . وفوق ذلك شملت جهوده التي لا تعرف الكلل ،
وسائل الانتقال فأصبح أسطوله المؤلف من زوارق بخارية ، يخر بين
بغداد والبصرة . وما أشد ما كان لهذه الملاحة من خدمات لإحياء زراعة
العراق ؟ .

كان الفلاح العراقي يؤدي للدولة عن الأرض الأميرية التي يستغلها
ثلاثة أرباع إنتاجها ، فضلا عن الأجرة . وكان هذا الحيف كثيرا ما يفضي إلى
المشادة بين الحكومة والبدو والفلاحين . وقد عمل مدحت باشا على تغيير
هذا القانون ، وبادر إلى قسمة الأراضي الأميرية قطعا صغيرة ، وعرضها على
الفلاحين للتملك بشروط سهلة ، وكان من نتيجة ذلك أن زادت
الغلال ، وقل التردد !

ويبدو أن ثروة العراق الزراعية لفتت في ذلك الحين نظر إسماعيل
باشا خديو مصر ، ففكر في أن يكون لبلاد الرافدين نظام للرى ، يقوم على
أساس نظام مصر ، فانتدب وفدا سافر للعراق ، ودرس فيه مواضع السدود
والترع القديمة ، ولا سيما سد الهندية . ولكن أزمة مصر المالية التي
استحكمت حلقاتها أواخر عهد هذا الخديو حالت دون تحقيق أى مشروع .
وكأن مركز العراق الاستراتيجى حمل السلطان عبد الحميد الثانى
(١٨٧٦ — ١٩٠٩) على الاهتمام بهذا القطر أيضا ، ولا سيما أن بريطانيا
العظمى كانت لا تبرح تضاعف نفوذها فيه ، وبالإضافة إلى منح جلالته
للألمان امتياز خط بغداد وامتياز آخر للتنقيب عن البترول صحت نيته
على القيام ببعض المشاريع التي تحمى الزراعة . وقد عهد إلى المهندس السير

ومصدر ثروة اليمن منذ القديم . ففيه عيون جارية تنسكب ، فتشكل أنهارا في أودية متسعة . وقد قال عنها صاحب « الرحلة اليمنية » إنها تزرع ثلاث مرات كل عام . ومنها جبل عمان الشهير بالجبل الأخضر ، فضلا عن غيرهما من الجبال في شمر ونجد والحجاز ، وكلها صالح للزراعة .

وإذا كان خصب بلاد القصيم الواقعة بين شمر والرياض غير معروف على وجه عام ، فمن ذا الذي يجهل ثمار الطائف وهوائها ، حيث يصطف أمراء مكة وسراتها ؟ ومن ذا الذي لا يرى النخيل يغطي أمانة مسقط ؟ بل من ذا الذي يجهل تلك الواحات الخضبة التي تنتشر في أودية الجزيرة الكثيرة الحافلة بالمزارع ، والقرى المشهورة بخصبها وجنتها ، كوادى العقيق ووادى حضرموت ؟ ..

وتدل الآثار والأخبار على أن العرب في صدر الإسلام كانوا يعنون بالزراعة ، ويعتمدون على بلادهم في ادخار مؤنهم . فقد أشار « كتاب وفاء الوفا » في أخبار دار هجرة المصطفى « إلى عيون وآبار كثيرة لم يبق لها أثر في زمننا . وروى الشيخ محمد بيرم أن عشر ماحول المدينة وحدها كان ينتج في خلافة عمر بن الخطاب حوالى أربعمئة ألف أردب من الشعير دون سواه ، فضلا عن بقية الجهات . وعلق على قوله هذا « أنه لو جمع حاصل جميع ما في الحجاز لما بلغ جزءا من مائة من ذلك المقدار . وروى أيضا أن الخليفة المشار إليه حمى في وادى القرى منطقة تكفى لرعى أربعين ألفا من الخيل المسبلة . ثم عمده الخليفة عثمان بن عفان والذين خلفوه إلى زيادة ذلك المقدار أضعافا .

وكانت اليمن قديما ولا تزال مشهورة بخيراتها الزراعية ، وإن لم تكن فيها أنهر بالمعنى المفهوم ، وإنما تعتمد زراعتها على سيول تروى مع الأمطار البساتين والحقول .

وإلى وفرة الجبوب والبقول والخنضر في اليمن ، تنتج الوديان الجنوبية الفواكه الكثيرة ، التي تنتجها المناطق الحارة ، على حين أن البقاع الجبلية تعطي الأثمار الكثيرة الأخرى .

ولكن الخراب والبوار حاقا بجزيرة العرب منذ صدر عنها أهلها إلى الأمصار الأخرى ، مهاجرين أو فاتحين ، واتخذوا منها مواطن جديدة ، فكان من مغبة ذلك اقتحام البداوة معظم أطراف الجزيرة ، فأجذب خصبها ، وأصبحت كثرتها تعتمد حتى في تأمين قوتها على موارد غيرها ، وعلى المهاجرين من أبنائها . وفضلا عن ذلك رافق العهد العثماني أحداث عالمية ، زادت فقرها على فقر ، ولا سيما تحول سبل التجارة إلى المحيط الأطلنطي ؛ فإن كشف رأس الرجاء الصالح ، أفضى إلى حرمانها تلك الموارد ، التي كانت تجنيها بقيامها مقام الوسيط بين الشرق والغرب ، وبنقل السلع المتبادلة بينهما بقوافلها وسفنها الشراعية ؛ كما أن اختراع البخار من بعد ، قضى القضاء المبرم على هذه الموارد .

وهذا ما كان يحمل الدولة العثمانية ومصر وتونس على أن ترسل كل عام الإعانات إلى أهل الحرمين ، تأمينا لمعاشهم ، وفي جملة ذلك مقادير من القمح كانت مرتبة على مصر . على أن اليمن وبعض أطراف الجزيرة استمرت تعيش بالكفاف ، مستغنية عن الواردات الأجنبية ، واستمرت تصدر البن وغيره ؛ ولكن الزراعة على وجه عام أُمست في الجزيرة محدودة النطاق ، ومحصورة في بعض النواحي ، وهي مع ذلك لاتسمن ولا تغنى من جوع .

ز - الزراعة في المغرب :

قال أوغسطين برنار Augustin Bernard : تقدر مساحة إفريقية الشمالية ، عدا المتسع الخالي الذي يمتد شطر الجنوب بنحو مليون كيلو متر مربع . وهو يعادل تقريبا مساحتي فرنسا وأسبانيا معا ، بيد أن المساحة المثمرة

في شمالى إفريقية هى فى الواقع غير متسعة ، وذلك لوجود عدة مقاطعات لا تصلح للفلاحة ، لأن أراضيها صخرية ، أو لتواءات بارزة فيها ، أو لشح فى أمطارها . على أن هناك منطقة ضيقة تجاور البحر ، تعتبر فى الحقيقة جد ملائمة ، وأعنى بها المعروفة بالتل « الجزائر » .

والواقع أن الأمصار التى تمتد فى شمالى إفريقية كانت برغم ذلك ولا تزال ، تعتمد فى حياتها الاقتصادية على الفلاحة وتربية المواشى ، حتى يمكن القول إن تسعة أعشار مواردها تقوم على الفلاحة وما إليها . وكانت تستعيض إبان ازدهارها السياسى ، عما بخلت عليها به الطبيعة ، بالنشاط فى العمل والحيلة للاستثمار . ولما كانت هذه البلاد بين الأندلس والشرق الأدنى : القطرين اللذين تنافسا خلال التمدن العربى فى كل مظهر من مظاهر العمران ، اقتبست عن المشرق والمغرب العربيين شيئا كثيرا من ميزاتهم ، فعمرت وازدهرت زراعتها .

إن طرابلس الغرب التى أصبحت الآن قاحلة ، إلا فى الناحية الشمالية الغربية منها ، كانت تسقى وقتئذ من آبار صناعية وعيون طبيعية ، فتكثر فيها الغابات والبساتين . وكانت تونس تسمى بالخضراء ، لكثرة خيراتها ، وسعة رزقها . وقد أثنى ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م الثناء الجليل على فواكهها . أما الجزائر ، وإن كانت رملية التربة ، فإن الجزء الواقع منها بين المقاطعات الجبلية اشتهر بخصبه . وكذلك مراکش التى تقسمها جبال الأطلس ثلاثة أقسام : فقسمان منها على غاية الخصب ، والقسم الثالث جبلى وملىء بالغابات .

غير أن شمالى إفريقية منى بمفاجآت جعلته خلال حقبة طويلة ميدان حروب طاحنة ، فخربت منه فى أثناء سنين معدودة ، ما عمر فى أجيال ، وتضاءلت من جراء ذلك الزراعة ، اللهم إلا فى بعض أمصاره التى ظلت تتمتع بشيء من الاستقرار . هذا إلى أن الحروب التى قامت فيه بين العرب والبربر ، ثم

بين بعض هؤلاء وبعض ، كادت تكون أمرا هينا حيال حملات بني هلال
وبني سليم على أمصاره في القرنين الحادى عشر والثانى عشر . إن هذه الحملات
وإن أفادت العروبة بتأييد أركانها ، والإسلام بانتشاره ، أفقرت شمالى
إفريقية ودمرت معالمه .

ويمكن أن يقال : إن العصر العثمانى فى المغرب كان عصرا إصلاحيا
بالنسبة لما سبقه ، وليس ذلك لأن آل عثمان باثروا شيئا من الإصلاحات
إبان سيادتهم على تلك الأمصار الواسعة ، لا ، وإنما كان هذا نتيجة لنزول
جاليات من مهاجرى الأندلس فى أمصار المغرب ، عملوا على إحياء العمران
ومرافقه ؛ ومن أمثلة ذلك حكم آل حفص بتونس ، فقد وصفه أرتور
بليكران Arthur Pellegrin بقوله : « كان عهدا انتظمت فيه شئون الإدارة ،
وروعيت فيه المنافع العامة ، برغم ما رافقه من العسف والاختلال .
وفى ذلك العهد أجريت بتونس أعمال الرى ، وأقيمت الينابيع فى أمهات
المدن ، وأنشئ سد الباتان Al bathan فضلا عن الجسور والمرافىء ؛ كما أن
ابن أبى دينار ، وهو من أبناء القرن الثامن عشر ، أطرى تونس وخيراتها
فى أيامه » .

ثم قضى على المغربين الأقصى والأدنى أن يسقطا تباعا فى قبضة
المستعمرين الأوربيين الذين جاءوا للاستثمار ، وكان ذلك إبان تقدم عالمى
شامل ، فشاهدا بعض الإصلاحات ، وإن كان قصد المستعمرين منها خير
حكوماتهم ورعاياهم ، كما نلم بذلك فيما يلى :

ح - مراكش :

دخلت مراكش فى نطاق الحماية الفرنسية قبل سنتين من الحرب العالمية
الأولى ، ثم كانت الحاجة ماسة إبان الحرب إلى وسائل النقل ، فبادر الجنرال
ليوتى المقيم العام وقتئذ إلى مد الخطوط الحديدية وشق الطرق ، فاستفادت

الزراعة منها فائدة كبيرة ، ولا سيما بعد أن حولت هذه الخطوط لخدمة الأعمال المدنية .

أضف إلى هذا أن تدرب المراكشيين في الفلاحة على الأساليب العصرية ، وقيام المدارس الزراعية ، أديا إلى تحسين الإنتاج في دائرة واسعة النطاق ، كما أن الشركات الفرنسية التي قامت هناك في ذلك الحين بالأعمال الزراعية ، جاءت مؤسساتها نموذجا للفلاحة الحديثة .

على أن الجبوب هي أهم المزروعات المراكشية ، من حيث المساحات المزروعة ، ومن حيث قيمة الإنتاج ؛ كما أن المناجم أهم ثروة مغربية بعد الفلاحة .

ط - الجزائر :

بينما كانت فرنسا تناضل لتأمين الاستقرار في الجزائر ، كانت تلح في نفس الوقت على القيام بالمشروعات التي تؤمن لها ولشعبها أسباب الاستثمار ؛ فضلا عن الخطوط الحديدية والأسلاك البرقية فإن عملها هناك ، رأوا الحاجة ماسة إلى حفر الآبار الإرتوازية في الصحراء ، فجدوا في تحقيق ذلك منذ سنة ١٨٥٦ . هذا إلى أنهم عنوا عناية خاصة بالرى في منطقة التل ، عنايتهم بالتنقيب عن المعادن واستثمارها ؛ ولم يمض إلا وقت قصير ، حتى بلغت مساحة الأراضي الزراعية في التل المذكور نحو مائتي ألف هكتار ، ثم لم تقتصر الشركات الفرنسية على فلاحة هذه الناحية ، بل انتشرت في كل ناحية ، ولا سيما في السواحل ، واستعانن بالعلم والأدوات الميكانيكية ؛ كما استندت إلى المساعدات الحكومية للقبض على زمام الزراعة في تلك البلاد .

ى - تونس :

ما إن بسطت فرنسا حمايتها على تونس ، حتى انصرفت للاستثمار ، وخصوصا فى الناحية الزراعية ، لأن هذه البلاد زراعية قبل كل شى آخر ؛ ولا أدل على ذلك من اتساع الأراضى الصالحة فيها للزراعة ، فهى تقدر بتسعة ملايين من الهكتارات ، وذلك من اثنى عشر مليوناً ونصف مليون ، وهى جملة مساحة المملكة التونسية .

وقد تركت الإدارة الفرنسية فى مستهل عهد الحماية المجال الواسع للفرنسيين لامتلاك الأراضى التونسية ، استنادا إلى وسائلهم الخاصة . ثم لما استقرت لها الأحوال ، شرعت فى تنظيم الخطط لاستملاك تلك الأراضى بحيل ذات صيغة قانونية ، من القانون العقارى (١٨٨٥) وقانونى ١٨٩٠ و ١٩٠٣ المتعلقين بأراضى الغابات ، والأمر المختص بأراضى القبائل « ١٩٠١ » فضلا عن المرسوم الصادر فى ١٣ نوفمبر (١٨٩٨) الذى يفرض على إدارة الأوقاف العامة أن تضع كل عام تحت تصرف إدارة الاستعمار جزءا من أراضىها ، تختاره هذه الإدارة ، ولا تقل مساحته عن ألى هكتار ، على أن يتم نقل الملكية مباشرة دون إشهار .

وفضلا عن ذلك كانت السلطة الفرنسية تضع تحت تصرف إدارة الفلاحة والاستعمار ، الأراضى التى تنزعها من أيدي العرب ، تاركة إليها توزيع تلك الأراضى الزراعية على الفرنسيين ، بأثمان صورية ومقسطة . وتسهيلا للاستملاك أنشأت صندوق الاستعمار ، وغذته تباعا بأموال كانت خزانة تونس كثيرا ماتسهم فيها . كما أن السلطة ساعدت على تأسيس البنوك الفرنسية ، لإقراض هؤلاء المستملكين .

وهكذا تسنى للمستعمرين أن يضعوا يدهم على قسم كبير من الأراضى الصالحة للزراعة ، بلغت مساحتها بمقتضى الإحصاءات الرسمية حتى سنة ١٩١٤ :

٧٥٧٧٠٠٠ هكتار ، ثم ازدادت اتساعا بين الحربين العالميتين ، حتى أصبح كثير من الفلاحين رهن الفقر والبطالة .

ك — ليبيا :

أعلنت إيطاليا فتح ليبيا نهائيا سنة ١٩١٢ ، وأدخلتها في نطاق المستعمرات ، فاهتمت بتعميد الطرق ، ومدا الخطوط الحديدية ، تأمينا لأسباب الاستعمار ، وإرواء لغيل شعبها الذي كان يترقب بفارغ الصبر انتهاء مهمة الفتح ، للبادرة بجشع إلى الاستثمار .

ولكن الحرب العالمية الأولى لم تلبث أن صدمت أعمالها ، ثم كانت سياسة العنف التي استعانت بها في سبيل تحقيق برامجها الاستعمارية من أسباب هجرة السكان وبوار الأعمال . وانقضى عهد آل عثمان دون أن تسجل ولاية طرابلس الغرب ، إبان الاحتلال الإيطالي أي تقدم في الحقل الزراعي .

الفصل السادس

الصناعة ببلاد العرب في عهد آل عثمان

١ - الصناعات في دنيا العرب على وجه عام :

انتهى ابن خلدون من وضع مقدمته المعروفة في سنة (٥٧٧٩ = ١٣٧٧م) وذلك في أواخر أيام دولة بني حفص في تونس ، وأوائل العصر العثماني زمن حكم السلطان مراد الأول . وقد تطرق فيها إلى الكلام عن الصنائع ، فجاء كلامه بمثابة وصف لحالة الصناعة في بلاد العرب كافة خلال زمانه .

وتحت عنوان : « إن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدھا » ، سرد ابن خلدون فلسفته العمرانية ، وقال : « ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة ، لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ، ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران وإن بلغت مبالغها في الوفور والكثرة . وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة ، بطول الأحقاب ، وتداول الأحوال وتكررها ، وهذه لم تبلغ الغاية بعد . وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد « دولة بني الأحمر » ، فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالملباني والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، من الآلات والأوتار والرقص ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين ، وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها ، وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم . فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الأمصار ، وإن كان عمرانها قد تناقص ، والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو « المغرب » ؛ وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم ، برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة

الطوائف ، إلى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مباحا لم تبلغه في قطر ، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا ، لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتعميق ، وبقيت صيغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه ، إلى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ إذا رسخ في الثوب . وكذا أيضا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية « المرابطين » والموحدين من بعدهم ، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وإن كان ذلك دون الأندلس ... وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد « الجزائر » أثرا باقيا من ذلك ، وإن كانت هذه كلها اليوم خرابا أو في حكم الخراب ^(١) .

هكذا وصف ابن خلدون حال الصناعة في عصره بالأمصار العربية ، المغربية والمشرقية ، وأشار إلى نصيب كل قطر منها . ويدل كلامه على أنها كانت لا تزال قائمة بقوة الاستمرار ، على درجة موفورة ومرتفعة . وجاء التاريخ مؤيدا قوله ، وذلك بما كان يفعله مكنتسحو الأمصار العربية من الأعاجم الصنائع منها إلى قواعد مما لكهم ، رغبة في اقتباس فنون العرب وصناعاتهم . وآخر من فعل ذلك السلطان ياوز سليم ؛ فقد ساق من بغداد إلى إستانبول أربعين ألفا من أمهر الصنائع « على رواية محمد فريد بك في كتابه الدولة العلية » ، وحمل إليها أيضا من دمشق كل صاحب صنعة « على قول محمد كرد علي في خطط الشام » . فضلا عن إقبال كثير من الممالك الشرقية على قواعد بلاد العرب ، لاقتباس بعض صناعاتها وفنونها ، وفي جملة هؤلاء معلون جاءوا دمشق من إستانبول ، وتعلموا فيها صنعة القاشاني .

غير أن انهيار العمران العربي ظهر على أتمه خلال العهد العثماني ، حيث فقد العرب من جراء ضياع عمرانهم ، صناعاتهم النفيسة ، وفنونهم الجميلة .

(١) ابن خلدون : المقدمة طبع بلاق سنة ١٤٧٤ هـ ص ١٩٦

ولا بدع ؛ فالصناعات مازالت تنحط إلى مستوى حالة البلاد الاجتماعية ،
ولا يبقى منها إلا ما كان في حكم الضروري .

ب — الصناعة في مصر :

استحكمت الصناعات على اختلافها في مصر ، لطول آماد الدول فيها ،
ولرسوخ العمران في واديه . ولذلك رأينا ابن خلدون الذي عاصر عهد
الفتوحات العثمانية ، كثيرا ما ينوه بعمرانها وصناعاتها ، بمناسبة عرضه أحوال
الشمال الأفريقي ، وفي جملة ذلك قوله : « كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم
من يعلم الطيور العجم والحمر الإنسية ، ويتخيل أشياء من العجائب ، بإيهاهم
قلب الأعيان ، وتعليم الحداء والرقص والمشى على الخيوط في الهواء ، ورفع
الأثقال من الحيوان والحجارة ، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا
بالمغرب ، لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة ^(١) » .

ثم استغنت مصر بوفرة مواردها الطبيعية الزراعية ، عن العناية بالصنائع
في صدر العهد العثماني ، وخصوصا أن صادراتها كانت وقسئذ تزيد على
الواردات إليها ، حتى إذا حاق بها ما حاق من أيام سود ، في الأجيال التي
استبد فيها الإنكشارية والماليك البكوات ، جفت خيراتها ، وذبل عمرانها ،
وهاجر سكانها ، فانتقصت من جراء ذلك الصنائع ، ولم يبق من معالمها
إلا ما كان في حكم الضروري . وقد زارها الفيلسوف الفرنسي فولني
Volney في أواخر القرن الثامن عشر ، ووصف تأخرها بقوله : « الجهل
عام في هذه البلاد ، أسوة بكل بلاد تركية ، وهويتناول كل الطبقات ، ويتجلى
في كل العناصر ، سواء أكانت أدبية أم اجتماعية ، وفي الفنون الجميلة ، بل حتى
الصنائع اليدوية فيها ، فإنها على أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد في القاهرة من
يصلح الساعة ، وإذا وجد فهو إفرنجي حتما . أما الصناعة فأصحابها في مصر
أكثر عددا مما في أزميز وحلب ، لكنهم جهلاء . وإنما يتقن المصريون

(١) ابن خلدون : المقدمة طبع بلاق سنة ١٢٧٤ هـ ص ١٩٦

المنسوجات الحريرية وإن كانت أقل إتقاناً من صنع أوربة ، وأعلى ثمناً .
« هذا ، وشاءت الحملة الفرنسية أن تنهض بوادى النيل ، ووضعت لذلك
المشروعات ، ولكن الأحوال السياسية جعلت مشروعاتها حبراً على ورق » .
غير أن محمد علي الكبير وأسرته العلوية التي قامت في مصر عقب هذه
الحملة استفادت من تلك المشروعات ، فكانت نهضة عامة في أيامها ، شملت في الجملة
الناحية الصناعية مباشرة ، كما أفادتها بالواسطة ، من جراء توافر الثروة ، وازدهار
العمران ، ولكنها كانت في بداية الأمر راجعة إلى الصناعات اليدوية .

ويستفاد من كتاب كلوت بك الفرنسي الذي ألفه عن مصر سنة ١٨٤٠ م ،
أنه كان فيها وقتئذ خمسة عشر مركزاً للصناعة الغزل والنسيج ، تنتج مليوني
قطعة نسيج ، وأن الحملة الكبرى التي هي أكبر مركز صناعي في أيامنا ، كانت
كذلك مركزاً كبيراً من هذه المراكز المرموقة .

ويروى طلعت حرب باشا أن الخديو إسماعيل اشترك في المعرض
الفرنسي ، الذي أقيم في باريس سنة ١٨٦٧ م ، وكان مما وقع عليه الاختيار
عرض منسوجات من الحملة الكبرى ، حريرية وقطنية حازت الإعجاب .

على أن النهضة العامة التي ظهرت منذ بدء الدولة المحمدية العلوية ، وأفضت
إلى نشاط ظاهر في النواحي الاقتصادية على اختلافها ، وفي جملتها الصنائع ،
جاءت حافزاً لهذه الدولة لأن تستعين بالقوى الميكانيكية ، قصد تجهيز
الاجناد ، فأقامت دوراً لإنشاء البواخر ، وللأسلحة البيضاء والنارية ، كما أنها
أقامت معامل الجوخ والدباغة والسكر وغيرها .

هذا إلى أن ازدهار العمران ، ووفرة الغلال الزراعية ، حملاً من جهة
أخرى أصحاب الأموال من مصريين وأجانب ، على إنشاء كثير من المعامل
المختصة بالصناعة الزراعية ، فقامت معامل السكر ، ومحال القطن ، ودور
تبييض الأرز ، فضلاً عن معامل الألبان والأجبان وترويق البيض .

ولكن الاحتلال البريطاني سجل مع الأسف بعض التأخر في المراكز الصناعية ، وهو كما أغلق أبواب معامل الحكومة التي كانت أعدتها لتجهيز الأجناد ، فتح صدر البلاد المصرية للمصنوعات الأوربية على اختلافها ، فتدفقت هذه المصنوعات من ثم على وادى النيل ، حتى غمرته ، وكان من مغبة ذلك شيوع فتور في همم المالين ، وتقاعس عن متابعة نشاطهم ، من أجل إقامة المعامل والشركات الوطنية ، وخصوصا أن حكومة مصر ما كان بوسعها بأية طريقة من الطرق حماية مصنوعاتنا من مزاحمة البضائع الأجنبية . كما كان من مغبة ذلك أيضا أن الواردات من السلع إلى مصر أخذت تفيض فيضانا أصبح خطرا على صادراتها سنة بعد سنة . ولهذا الأسباب كانت مصر في أواخر العهد العثماني إنما تعتمد على الفلاحة فحسب ، ولا سيما زراعة القطن . وكانت تقع في أزمة مالية حادة كلما أصاب القطن أذى أو سقطت أثمانه ، لأنه لم يكن لديها من الموارد الصناعية ما يسد الفراغ ، ويقم التوازن . غير أن الحرب العالمية الأولى وما رافقها من وقف ورود السلع الأجنبية ، كانا حافزين لسكان مصر على إحياء الصناعات اليدوية المختلفة ، وعلى إنشاء بعض المعامل الميكانيكية الخفيفة ، فكان هذا النشاط الصناعي باكورة تلك النهضة الاقتصادية التي شاهدها منذ سنة ١٩٢٠ ، على أثر قيام بنك مصر ومشروعاته الاقتصادية المتنوعة .

ح — الصناعة في السودان :

كانت البداوة في السودان خلال عهد آل عثمان تسيطر بألوانها البدائية على كل نواحي حياة الشعب العامة ، فيعيش السودانيون عيشة القبائل والعشائر ، من أهل الحضر أو من أهل الوب .

ثم دخل السودان في حكم مصر ، واستأثرت به دولة الاحتلال ، وكان من نتيجة ذلك أن كبرت فيه بعض المدن ، وقامت بعض المشروعات العمرانية ،

ولكن السودانين ظلوا في وطنهم غرباء عن كل ذلك ، تحتفظ كثرة الغالبة بحياتهم البدائية .

هذا ، إلى أن بريطانيا العظمى التي كانت تتوخى أن تجعل من السودان مستعمرة تستثمرها ، ما كانت لتشجع قيام سياسة اقتصادية من شأنها أن تجعل تلك البلاد في غنى عنها ، فكانت تغمر أسواق المدن السودانية بالسلع الإنكليزية ، وهذا ما حمل مؤتمر الخريجين العام في السودان على أن يعرض بالمذكرة التي رفعها لدولة الحكم الثنائي قبل سنين ، بإخفاق الحكومة في خلق نهضة صناعية .

ويطيب لنا أن نقبس هنا من مذكرة أصدرتها سنة ١٩٤٥ هيئة بريطانية اسمها « في داخل الأمبراطورية » العبارات المتعلقة بموقف حكومة السودان حيال الصناعة ، قالت : « ومع أن الحكومة قد أقامت محالج للقطن في الجزيرة ، إلا أنها عارضت بشدة في أن ينشئ التجار والوسطاء السودانيون معامل لغزل القطن ونسجه » .

« وبجانب ورش السكك الحديدية الكبيرة بعطبرة لا يوجد في السودان من الصناعات إلا التافه القليل » .

ثم تسهب المذكرة في تبيان احتكار الحكومة لهذه السكك وغيرها من أدوات النقل البحرية وسواها .

وإن مذكرة كهذه ، وإن صدرت في العهد القريب ، ولا علاقة لها بالزمن الذي نؤرخه ، تشمل من باب أولى ما قبلها ؛ وهي إذ تشير إلى تأخر الصنائع في السودان ، تضع في نفس الوقت التبعة على الحكومة في هذا الانحطاط .

د — الصناعة في بلاد الشام :

كانت دمشق وحلب إبان الحملات الصليبية حافلتين بالأنوال ، ومثلهما طرابلس التي وجد فيها الصليبيون حينما فتحوها أربعة آلاف نول . ويظهر

أن ابن جبير الرحالة في القرن الثاني عشر الميلادي أخذ بجمال مدينة دمشق ، وأعجب بوفرة الحركة فيها ، إذ وصفها بقوله : « إنها أكثر مدن الأرض سكانا » .

ثم احتفظت بلاد الشام بشيء كثير من رونقها الصناعي أيام المماليك ، ولا سيما دمشق ؛ ولقد وصفها ابن تغرى بردى ، من أهل القرن الرابع عشر الميلادي بأنها أجمل وأغنى مدينة في العالم .

وقد اشتهرت بحياكة الحرير الموشى ، وعرف باسمها « دامسكو » ، كما اشتهرت بعمل القواطع لاسيما المرصعة منها . ولما وصف بريك دافن Priss davennes أسلحة طومان باى أحد مماليك مصر في سنة ٩١٧ م ، قال :
نما من ترصيع دمشق .

وفضلاً عن ذلك عرفت دمشق بصناعات القاشاني والفسيفساء والترصيع على المعادن والخشب ، وهو المعروف بالتطعيم والمصرى ؛ كما عرفت بأنواع الدهان والنقش ، وكان لبعض المدن الأخرى مشاركة لها في هذه الشهرة ، وفي مقدمتها حلب وحمص وطرابلس في النسيج ؛ وحلب وطرابلس والقدس ونابلي في الصابون ؛ ولا تزال آثار صنائع الشام الفنية ماثلة للأنظار حتى الآن في المساجد والقاعات التي شيدت ما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر .

غير أن دمشق وسائر بلاد الشام الداخلية منيت بعد نكبة هلاكها ، بكارثة أخرى من نوعها ، ألا وهي حملة تيمورلنك ؛ وكان تيمور (١٣٣٦ — ١٤١٥ م) قد طلب من سلطان مصر الخضوع ، فامتنع وزحف للقاءه ، ولكنه لم يلبث أن باء بالخيبة عند حلب ، وظلت جيوش تيمور تقتفي أثره ، حتى إذا فتحت أبواب دمشق لتيمورلنك أظهر النشيع لآل البيت ، وأوقع على أهلها جريرة كونهم أعانوا بني أمية ، وأحرق المدينة عقاباً لهم ، ونقل تيمور أهم صناعاتها إلى عاصمته سمرقند .

من جراء هذه الكارثة عفت آثار الصنائع النفيسة في دمشق ، إلى حد أن أحد السائحين الألمان زارها بعد حملة تيمور ، وأراد شراء بعض الأنسجة الحريرية منها ، فأجيب : «إننا نحن نأتي بالديباچ من بلاد البنادقة وغيرها ، ذلك لأن تيمورلنك نفى كل معلى هذه البلدة والقائمين على صناعاتها » .

غير أن حلب وبعض ثغور الساحل احتفظت بقسم من هذه الصنائع ، ولا سيما السكر والصابون والزجاج والحصر ، وظلت منطقة الخليل تصدر مصنوعات الزجاجية ، وخصوصا الأساور ، إلى الآستانة والحبشة والسودان ، حيث كانت تستبدل بها الذهب وغيره ، كما ظلت حلب مشهورة بالديباچ ، تصدره إلى أوربة بطريق الآستانة .

وكان دخول بلاد الشام في حوزة العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر ، مثارا للنشاط اقتصادي في حلب قليل النظير ، ذلك لأنه فضلا عن مكانتها التجارية التي بينهاها ، فإن صناعاتها أصبحت من ثم ركنا من أركان تجارتها . فكانت تصدر وقتئذ من الصابون إلى أوربة ما يساوي مليوناً ونصف مليون من الفرنكات ، ومن الأنسجة الحريرية ما لا تقل قيمتها عن هذا المبلغ .

غير أن عهد الانحطاط العثماني بما تخلله من فوضى الأحكام والفتن ، أفضى في جملة ما أفضى إليه ، إلى ضياع الصنائع النفيسة في ديار الشام تبعاً لضياع العمران . وكانت صناعة الفسيفساء قد أهملت منذ أوائل القرن الثالث عشر وامت ، فلحقت بها صناعة القاشاني وفن التطعيم والدهان الشرقي والنقش وسائر صناعات الحدادة والتجارة الفنية القديمة .

أما النسيج فكان قد بعث بعثاً جديداً بعد كارثة تيمورلنك ، واستمر يحتفظ بشيء من الازدهار في أواسط القرن التاسع عشر . وآية ذلك أن السائح شوبرت Schubert P. 295 الذي زار دمشق سنة ١٨٥٠ أطرى مهارة أهلها في الصنائع وذوقهم ، ونوه بحبهم للتنظيم ، ذاكرة أن عهد عمال

الأنوال كان يزيد على أربعة آلاف شخص ؛ على أن الصنائع السورية وخصوصا ما كان منها في مستوى الضروريات ، لم تلبث أن فوجئت وقسدت بعامل جديد كاد يودى بها ، وأعنى بذلك الانقلاب الذى حدث عقب افتتاح ترعة السويس ١٨٦٩ فى أحوال النقل البحرى . ذلك أن إقبال البواخر من ثم على المرافئ السورية ، مع ما رافقه من امتداد الخطوط الحديدية فى كافة أوربة ، ومن سقوط أجور النقل ، كل ذلك ساعد الصناعات الأوربية على اكتساح الشرق ، وإذا بالصناعات المحلية تذهب تدريجيا حيال هذا التيار الجارف الجديد ؛ وآية ذلك أن بوجو Bogueau أحصى سنة ١٨٨٩ مختلف المهن والحرف والصنائع فى سورية ، فلم يتجاوز عددها ١٣٩٥ ؛ على حين أن عددها سنة ١٨٥٢ كان يناهز ١٩٦٦ ؛ كما أحصى العمال سنة ١٨٨٩ فبلغوا : ٨.٠٠٠ ، وكان عددهم سنة ١٨٥١ نحو ٣٥.٠٠٠ عامل .

غير أن هذا التيار الجارف لم يفت مع هذا فى عضد السوريين ، بل كان حافزا لهم على النهوض لمقاومة خطر التدهور ، وذلك بمجاراة التمدن الحديث ، والأخذ بأسبابه ، والاستفادة من شروط النقل ، فراجت لذلك أنواع من الأنسجة ، أخصها ما يعرف بصايات الديما والشقق الحريرية والآلاجة والأغباني ، وبعثت بعثا جديدا الصنعة المعروفة بالظاهرى ، وهى صناعة النقش على الأوانى النحاسية ؛ أدخلت إلى دمشق كرة أخرى سنة ١٨٦٦ ، ثم استفحل شأنها حتى بلغت قيمة ما صدرته دمشق منها سنة ١٩١٠ ستمائة ألف فرنك .

وتحسننت أيضا صناعة دبغ الجلود ولا سيما بحلب وبيروت ؛ وكذا صناعة الصابون ، وأكثرها فى نابلس وطرابلس ، فضلا عن إنشاء المعامل لحل الفياج خيطانا حريرية ، ومعظمها ببلبنان وعن نشاط صناعة الصدفات فى بيت لحم والقدس وقيام معامل الرياش والمفروشات البيتية على النسق الحديث فى مدينة بيروت . وإلى هذا شاء بعض ذوى الهمم

أن يذهبوا إلى مدى أبعد في صدد منافسة الأجني ، فأنشؤوا المعامل التي تغنيهم عن مصنوعات أوربة ، كمعمل الورق في بيروت ، ومعمل السكر بدمشق ، ولكن تجربتهم هذه كان نصيبها الإخفاق ، لأنهم لم يحسبوا حساب عجز تركية عن حمايتهم لارتباطها بالامتيازات الأجنبية ، وكان إخفاقهم عبرة لغيرهم ، ومشبطا للهمم . هذا ، وقد عثرنا في مجلة الجنان (١٨٧٠) على مقال أحصى به كاتبه عدد الصايات التي صدرت ذلك العام عن بلاد الشام ماعدا قرية دير القمر بلبنان ، فبلغت نيفا وخمسمائة ألف صاية من الألاج والقطنى ، وجاء في ذلك المقال أن معامل حل الفيالج ازدادت زيادة مطردة ، حتى بلغ عدد دواليها وقتئذ نيفا وخمسمائة وألني دولاب ، كان إنتاجها من خيوط الحرير سنة ١٨٦٨ ستين ألف أقة ، من النوع المعروف بالإفرنجي ، وعشرة آلاف أقة من العربي والإسكندراني . والمفهوم من ذلك المقال أن أول معمل في لبنان لحل الفيالج قام سنة ١٨٤١ ، ثم تكاثرت هذه المعامل على مر السنين حتى بلغ عددها سنة ١٩١٢ مائة وتسعة وستين معملا ، أكثرها بلبنان ، كانت تصدر نحو ٤٤٠ طنا من خيطان الحرير كل عام .

هذا ، وإن الجدول التالي الذي اقتبسناه من المؤلفات الاقتصادية ، يعطينا فكرة عامة عن تطور صناعة الأنسجة بسورية ، وهو يحصى عدد الأنوال في كل بلدة خلال اثنتي عشرة سنة :

السنة	حلب	حمص	دمشق	حماة
١٨٩١	٥,٨٨٤	٧٠٠	٣,٠٠٠	٤,٠٠٠
١٩٠٢		٨,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,١٠٠
١٩٠٩	١٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٥٠٠	١,٠٠٠
١٩١٢	٧,٦٥٠			
١٩١٣	١٨,٨١٠			

وكانت هذه الأنوال تعنى بصناعة الملس والديما والشقق الحريرية والآلاجة ، فضلا عن الزنانير والشراشف والعباءات والقوطة والمناشف . وقد بلغت قيمة إنتاج حصص وحماة في سنة ١٨٩١ : اثني عشر مليون فرنك . أما المصان في سورية فكان يبلغ عددها قبل الحرب العالمية الأولى مائة مصبنة ، عدا مصان فلسطين ، وكانت تبلغ زنة منتوجاتها السنوية ثلاثة عشر ألف طن من الصابون .

وكانت المصنوعات السورية رائجة ليس في الأوساط المحلية فحسب ، بل في أنحاء المملكة العثمانية ومصر وشمالي إفريقيا ، علاوة على رواج بعضها في أوربة وأمريكا ؛ فصايات الديما والشقق الحريرية والآلاجة والأغباني كانت تصدر إلى بغداد والآستانة ومصر ، وخيوط الحرير إلى فرنسا ، والمطرزات والمخرمات (تنائن) والمصدفات ، إلى أوربة وأمريكا ، ويقدر رويين Ruppin أن عشرة إلى خمسة عشر في المئة من الشعب السوري كان يعتمد على الحرف والصنائع لتحصيل المعاش .

على أنه كان يقدر لصناعات بلاد الشام تقدم أوسع لو أن أوربة لم تخف لمبارزتها بسلح جديد ، وهو تقليد المنسوجات السورية ، وخصوصا في النمسا وسويسرا ، وبيعها بأثمان أرخص ، اعتمادا على معاملها الآلية . هذا إلى أن الحرب العالمية الأولى أضرت أيضا بصناعات بلاد الشام ، وذلك بسبب نقص الأيدي العاملة ، واستحالة التصدير إلى الخارج ، وكان من تأثير تلك الحرب ، أن عدد الأنوال الذي كان يبلغ سنة ١٩٠٩ نحو ٢٥ ألف نول ، هبط إلى خمسة آلاف نول فقط سنة ١٩٢٠ .

هـ - الصناعة في العراق :

مازال العراق منذ الأجيال القديمة مركزا صناعيا عاليا ، فقد كانت للكلدانيين والآشوريين والبابليين شهرة في الصناعات ، وخصوصا فنون

البناء والنقش والنسيج والحزف وصناعة الأدوات المعدنية ، وأدركت صناعة الرافدين عصرها الذهبي في عهد العباسيين ، ولكن كل شيء في العراق أخذ يتداعى من جراء النكبات التي حاقت بهذا القطر أواخر أيام هذه الدولة .

ومن أشهر الصناعات العراقية في عهد العرب : النسيج الموصل (موسلين) . ويقول المستر ستيفن لونكريك : « إنه لما غزا السلطان سليم الخيف الموصل ، كانت صناعة هذا النسيج تشارف الانقراض » .

وقد استمرت الصناعات تنحط في العراق تبعا لانحطاط هذا القطر خلال العهد العثماني ، حتى انحصرت في دائرة الضروريات . وأهمها الدباغة والصباغة والنسيج والبسط والشيلان والمشايخ والكفافي والمحازم وعمل النصول والسروج ، وصار العراق عيالا على غيره في لوازمه الأخرى ، وخصوصا أوربة . وكانت قوافل بغداد والموصل تهبط دمشق وحلب ، ناقلة إلى سورية التمور ومحاصيل فارس والهند ونتائجها ، ثم تعود منها إلى بلاد الرافدين ، مثقلة بالآقشة وسائر المصنوعات الأوربية والسورية .

ويستفاد من كتاب المستر لونكريك المشار إليه ، أنه كان للهولنديين في البصرة معمل بقي قائما حتى سنة ١٧٥٢ م ، وأن وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية زاروا أيضا هذا الثغر مرة ثانية ، في بداية العشرة الثالثة من القرن الثامن عشر ، وأنشئوا معملا لهم فيها ، غير أننا لم نستطع أن نعرف ما كان يصنعه هذان المعملان .

وشاء مدحت باشا إبان ولايته على بغداد ، في أواسط القرن الثامن عشر ، أن تشمل إصلاحاته الناحية الصناعية أيضا : فأنشأ مدرسة للصنائع في بغداد ، ولكنها في الواقع لم تكن إلا علجا موضعيا ضيق الأثر ، حتى إنني لما زرت بغداد سنة ١٩٢١ ، لم أتمالك نفسي عن الإشارة في كتاب الفتة في ذلك الحين ، وسميته « الانتداب في العراق وسورية » ، إلى بقاء الصناعات في العراق

تتمرغ بانحطاط شديد حتى بعد مضي عشر سنين ونيف على جلاء العثمانيين عن ذلك القطر الشقيق .

و — الصناعة في جزيرة العرب :

أشار ابن خلدون في مقدمته إلى تراث قديم من الصناعات كان لا يزال حتى عصره موجودا في جزيرة العرب ، حيث قال : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكها العرب ، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة ، واستحكمت صيغتها ، وتوفرت الصنائع ، ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة ، كما قدمناه ، فبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن ، كصناعة الوشى والقصب ، وما يستجد من حوك الثياب والحرير فيها » .

ومعلوم أن ابن خلدون كتب مقدمته في صدر السلطنة العثمانية ، ويستنتج من كلامه أن الصنائع في عصره كانت لا تزال راسخة في بعض أنحاء جزيرة العرب ، ولا سيما في اليمن ، ولم تبل ببلى الدولة ، وذلك بسبب رسوخ الحضارة أمدا طويلا في تلك الأمصار .

والواقع أن الصناعات الكالية شرعت تضمحل تدريجيا على أثر اضمحلال العمران في تلك البلاد ؛ كما أن الصناعات الضرورية انحطت أيضا في مستواها ، ماعدا الحدادة والتجارة والبناء والحياكة والدباغة والبيطرة ؛ فإن فريقا من سكان الجزيرة العربية لا يزالون يتقنون الصباغة وصنع الأسلحة ، والمواعين المعدنية والخزفية ؛ كما يتقن فريق آخر عمل السفن والزوارق وصيد الأسماك وتجفيفها . وإلى هذا ، إن لسكان الأمصار التي يكثر فيها النخيل خبرة واسعة في صنع النبيذ والخل وعلف الماشية من

التمور والقوارب والمكاتب والأقفاص والكراسى والسرر من السعف
«القضبان» والحبال والقفف والمراوح من الخوص «ورق النخل» .
وفضلا عن كل ذلك ، هناك صناعات لاتزال على شىء كثير من الازدهار ،
كصناعات العباءات الفاخرة المزخرفة ، والأسلحة المفضضة ، وصناعة
الغوص فى البحرين والكويت ، لالتقاط اللؤلؤ والمرجان واليسر .

ويظهر أن «صنعاء» قاعدة الين احتفظت بشىء كثير من تراثها القديم ،
فى الناحية الصناعية . فقد اعتبرها أحد المؤرخين فى جيل سابق من مدن
الشرق التى تصنع أفضل النسيج على اختلاف الأنواع ، قائلا : «إن حمص
وإن لم تلحق بالإسكندرية فإنها تفوق صنعاء» .

وبقيت صنعاء مركز نشيطا لبعض الصناعات حتى الآن ؛ وليس ذلك
بقوة الاستمرار فحسب ، بل لأن قيام الدولة المتوكلية أفضى - ولا سيما فى أيام
جلالة الإمام يحيى حميد الدين الذى استرد استقلال الين - إلى إنشاء جملة من
المعامل التى تحتاج إليها الدولة لتجهيز الجند . وخصوصا أن جلالته كان
شديد الحرص على اجتناب العلاقات مع الدول الأوربية ، خوفا من
مطامعها الاستعمارية ، فاعتمد على نفسه ، وعلى منتجات بلاده . وإلى
ذلك احتفظت صنعاء أيضا ، ومثلها بعض المدن اليمنية ، بصناعاتها القديمة ،
وفى جملتها بعض الصناعات الكمالية ، وقد أهدى إلى سمو الأمير سيف الإسلام
عبد الله ابن جلالة الملك يحيى ، ثلاثة أطباق مصنوعة باليد من أسلاك الفضة
فى صنعاء ، تكاد المعامل الأجنبية ، على ماهى عليه من الكفاية والإبداع ،
تعجز عن الإتيان بمثلها ؛ وهى دليل على أن الإبداع فى الصنائع وحسن
الدوق ، لا يزالان راسخين فى بعض أنحاء الجزيرة رسوخا متوارثا ، برغم أن
أساليب الصناعة وأدواتها فى التمدن الحديث ، تعمل على انتقاص كل
إمكانيات القديم .

ولعل يهود اليمن الذين أخذوا على عاتقهم كل الحرف يأتون في الصف الأول بين صنّاع بلاد العرب .

ز — الصناعة في المغرب :

انتهى ابن خلدون في معرض كلامه عن بلوغ صناعات مصر حدها الكمال في عصره ، إلى القول « أن مثل هذه الصناعات لا توجد بالمغرب ، لأن عمران أمصاره لم يبلغ مستوى عمران مصر » . ولكنه أثبت في موضع آخر على تونس وصناعاتها ، منوها بما كان لها من الجدوى ، بالاتصال بوادي النيل ؛ كما أنه أشار في مكان آخر إلى احتفاظ القيروان ومراكش وقلعة ابن حماد « الجزائر » ببقايا من صناعاتها القديمة ، برغم أنها أصبحت في حكم الخراب .

ومع أن الصناعات هي رفيقة العمران ، فإن المغرب الذي شرع يتدهور منذ عصر ابن خلدون ، استطاع مع ذلك الاحتفاظ بشيء كثير منها . وكان ذلك نتيجة للقاح غريب ، أنعشه كما ينعش المريض الدم المستعار إذ يصب في عروقه ، وقد يبعث في جسمه الحياة ، ولكنه لا يستأخر الأجل . وقد نوه أرثور بليسكركين بهذا اللقاح خلال بحثه عن عصر المراديين (١٥٧٤ — ١٧٠٥ م) حكام تونس ، حيث قال : « يخيّل إلى أن ثورات القصر لم يكن لها صدى عميق في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، حتى آخر القرن السابع عشر ، لأن هجرة الأندلسيين ومسلمي أسبانيا سنة ١٦٠٩ م ، جعلت تونس والأمصار القريبة ، أهلة بعناصر جديدة بأن تحفظ التوازن ، فكانت تلك البلاد صناعية في ذكاء ، ومن أعمالها الشاشية والحرائر والدهانات والخزف . وكانت زراعية أيضا ، وعلى علم وأدب ، ولها الأثر العجيب الفعال » .
والواقع أن هذا الانتعاش الذي أصاب شمالي إفريقيا كان قصير

الأمم ، إذ لم تلبث تلك البلاد أن خضعت للسنة الاجتماعية العامة ، من حيث تدهور الحالة الصناعية ، تبعاً لتدهور المجتمع في العمران .

ح - مراكش :

كانت هذه المملكة قد نالت حظاً وافراً من الصناعات المختلفة ، لاسيما النفيسة منها والتمينة ، وذلك لارتباطها بأسبانيا العربية ارتباطاً وثيقاً في السياسة والاجتماع . ولكن الخطر الأوربي الذي حاق بها ، بعد جلاء العرب عن الأندلس ، حملها على التضائل والعزلة ، وقد عثرنا على مقال في مجلة الجنان لسنة ١٨٧٦ أطرى فيه بعض الصناعات المراكشية التي كانت تعاصره ، وقال : « إن منسوجات كثيرة الأنواع تصنع بفاس من الحرير والكتان والأدم ، وإن أهالي مراكش اشتهروا بالحزق في صناعة الصباغة ، وامتازوا عن العالم بالدباغة . فهم يجعلون جلود الأسود بيضاء كالثلج ، وناعمة كالحرير . وأما البسط فأكثرها يصنع في الولايات الجنوبية . هذا ، وكانت مراكش قبل الحماية الفرنسية تكاد تكون مكتفية بصناعاتها الوطنية ، ولكن معاهدة الجزيرة الخضراء ، فرضت عليها نظاماً اقتصادياً جعل أبوابها مفتوحة لمزاحمة الأجانب ، كما أنها غلت أيديها عن حماية مصنوعات الوطنية ومعاملها . وهام أولاء تجارها ينتشرون في قواعد العالم الصناعية ، يبذلون ما ادخروه من الأموال في سبيل شراء المصنوعات وشحنها لبلادهم .

وقد اطلعنا على مقال نشر في مجلة الثريا التي تصدر بتونس ، وذلك في عددها الممتاز لسنيتها الثالثة ، تكلم فيه كاتبه عن الصناعات المغربية في الوقت الحاضر ، مشيراً إلى مصادرها ، وقال ماملخصه :

« في أهم المدن المغربية مثل فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس ، توجد هيئات صناعية نشيطة جداً ، وكل طائفة من الصانعين والتجار

والعاملين ، قد انتظمت في نظام يرأسه أمين صناعة ، وجملة الصناعات هي تحت رعاية محتسب^(١) .

وأصل هذه الصناعات إما أنه مغربي بالأصالة ، أو أندلسي قد نزح إلى المغرب من عهد المرابطين والموحدين ، وخصوصا بعد سقوط غرناطة وهجرة الموريكو . ولم تؤثر الصناعة الشرقية التركية الآتية من الجزائر في الصناعة المغربية إلا تأثيرا قليلا . وأهم الصناعات هي النجارة ونقش الخشب ودهنه والحديد المصنوع ، والنحاس المنقوش والمصوغ المتأثر بالمصوغ الغرناطي إلى أبعد الغايات . ويوجد بفاس فن طلي الخزف والفخار المنقول عن صناعة مالقة . وقد ورثت مدينة فاس ومدينة آسفي تراث الخزف الأندلسي ، فأمثلة الخزف الفاسي منقولة عن أمثلة بطرنة بالأندلس ، وأهل فاس يصنعون خزفا كثيرا بألوان ، شبيها بخزف بطرنة ، وخصوصا إشبيلية ، وخزفا أزرق التلون شبيها بخزف طليعة .

ومما لا ريب فيه أن فخار الخزف الأخضر الصيني والشرقي قد كان له أثره في الفخار الفاسي بواسطة القيروان « تونس » التي كانت ألف الوصل بين الشرق والغرب . وقد اقتصر المزوقون على تقليد الأمثلة التي تركها الخطاطون والمصورون في القرن الثامن والقرن التاسع . وإذا درست التجليد المغربي ، رأيت أنه متأثر بالتجليد الأندلسي ، ولا تزال فيه بعض آثار تفيد القيرواني ، وهو يميل الآن إلى تقليد التجليد السوري والمصري .

أما الأنسجة الحريرية التي اشتهرت بها فاس وتطوان ، فهي مثل حريريات مدينة تونس ، مقتبسة من الأنسجة الأندلسية .

وقد شهبوا التطريز المغربي بتطريز البلقان وتركية وسورية . ويظن أن الجوارى المجلوبات إلى المغرب ، وغالبهن من البلقان والقوقاس ، قد أدخلن هذا النوع من التوشية والتطريز إلى الديار المغربية .

(١) نظير شيخ المدينة بتونس .

وليس ثمة مانع أن تكون صناعة التطريز أتت إلى الأندلس بواسطة الجوارى ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المغرب .

ط - الجزائر :

وأما الجزائر التي سقطت قبل غيرها في شبكة الاستعمار ، فقد وصف صناعاتها الشيخ محمد يرم أواخر القرن التاسع عشر بقوله : « إنها على نحو ما بتونس من الانحطاط في الدرجة ، لافي الكمية ولا في الكيفية ، إلا بعض أنواع البرنس ، فلهم فيه مزيد إتقان ، كالمسمى بالعباسي » .

على أن جماعة الرأسماليين الاستعماريين في الجزائر وإن صرفت جهودها للزراعة والتعدين ، إلا أن بعضهم عنى مع ذلك ببعض المصنوعات ، على قدر ما تسمح به نظم تلك البلاد في حماية صنائعها المحلية من سيل السلع الفرنسية الجارف .

ى - تونس :

ومنيّت الصنائع النفيسة في تونس باضمحلال منذ أوائل القرن الثامن عشر ؛ أما ما بقى من الصناعات المختلفة ، فهو لا يتعدى ما كانت الحاجة ماسة إليه ، ومع ذلك فقد انحط تبعاً لانحطاط العمران .

وكانت أهم مصنوعاتنا : الشاشية والبلغة « نوع من الأحذية » والعمود ، فضلاً عن الأنسجة ، على اختلاف أنواعها ، وعن الصناعات الزيتية . ويقول الشيخ محمد يرم التونسي المتوفى سنة ١٨٨٩ : « إن صناعة الشاشية كانت أعمال أكثر الحاضرة ، ومنذ صنعت بأوربة رخصت ، فبقى من حوانيتها نحو ثلاثين ، بعد أن كانت تبلغ نحو الألف .

ومرد ذلك إلى المنافسة الشديدة التي اصطدمت بها تونس وغير تونس من قبل صناعات أوربة ، فضلاً عن الاحتلال الفرنسي الذي يرمى

إلى إضعاف كل صناعة في الأوساط الصناعية التونسية ، ليفسح مجال الرواج لمنتجات بلاده .

وقد سلك الاحتلال في هذا الصدد مسلكا جرميا من شأنه تسهيل تصدير المواد التونسية الأغفال إلى فرنسا بأجنس الأثمان ، لتعود إلى تونس بضائع قادرة على اكتساح الأوساط الصناعية ، وذلك بحماية قوانين وضعتها السلطة لهذه الغاية .

أما ما قام في تونس نفسها من المعامل خلال هذا العهد ، فقد قام على أكتاف الفرنسيين ، وبرءوس الأموال الفرنسية ، مما جعل أهل البلاد عيالا على الأجانب في الداخل والخارج .

وهذا ما حدث أيضا في ناحية المعادن ، والثروة المعدنية في تونس أعظم من ثروة الصناعة ، فإن السلطة الفرنسية سلمت مناجم الفسفات والحديد والرصاص والزنك والمنغنيز والنحاس والبروم والبوتاس ، إلى شركات فرنسية ، وتقاضت خزانة تونس نظير ذلك أجورا ، ولكنها كانت في الواقع أجورا رمزية جد زهيدة ، وفوق ذلك حملت السلطة هذه الخزانة أثقال منح ومساعدات كانت تمنحها هذه الشركات باسم التشجيع والتنشيط ؛ فكان الغم بذلك للفرنسيين ، والغرم على أهل البلاد .

ك — ليبيا :

وأتيح لولاية طرابلس الغرب في عهد العثمانيين أن تزدهر أيام آل القرمنلي ، في كل شيء ولا سيما الصنائع ، ثم لما أودى بها الدهر ، لم يبق من هذه الصنائع إلا ما كان في حكم الضروري ، ثم قضى الاستعمار الإيطالي على هذا أيضا ، إذ أصبحت ليبيا سوقا لإيطاليا في الضروريات وغير الضروريات .

تاريخ العرب الثقافي

في عهد آل عثمان

١ - موقف آل عثمان حيال الثقافة بوجه عام :

رافقت حكم المماليك بمصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية ، فضلا عن التأليف الدينية واللسانية ، وكانت هذه الحركة براقة جدا ، حتى يكاد المشرف عليها يتوهم أن بعثا جديدا قام في البيئات العربية .

ولكن إذا ضاع الحظ فالكوارث تخلفه آخذا بعضها برقاب بعض . فإن حملة جديدة أخذت تتدفق بعد المغول من أقصى الشرق أيضا ، فتغمر العالم العربي ، وتجعله نسيا منسيا ، وكان قوام تلك الحملة الترك ، الذين انبثقت منهم سلطنة آل عثمان .

هذا ، وكانت اللغة العربية حتى ذلك العهد لاتزال لغة العلم والسياسة ، فعدلت عنها هذه السلطنة إلى اللغة التركية ، فأودت بكنوز العرب العلمية ، وألقتها في زاوية من الإهمال .

كان المفروض في آل عثمان الذين أتيح لهم أن يخلفوا العرب على الشرق الأوسط ، وتسنى لهم أن يقوموا على أنقاض البيزنطيين ، أصحاب قسطنطينية وما حولها ، كان المفروض فيهم أن يستثمروا مخلفات هاتين الأمتين ، ويسيروا على أقل تقدير في مواكب الحضارة الحديثة التي برزت في عصرهم الذهبي .

ولكن آل عثمان لم يكونوا على استعداد للحفاظ على ذينك التراثين العليين : تراث الماضي وكنز الحاضر ، كما أن الأحوال السياسية صرفتهم عن كل شيء آخر غير القوة العسكرية ، طوال حياة بدأت بالهجوم وانتهت بالدفاع .

ونحن مع ذلك لا ننكر أن المؤسسين من سلاطين آل عثمان حاولوا التشبه بالخلفاء والملوك السابقين ، من حيث تقريب أهل العلم وإنشاء المدارس ، فضلا عن أن بعضهم كان على حظ وافر من العلم والآداب . فأورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٠ م) وهو ابن عثمان مؤسس السلطنة ، اتخذ العلماء أهل شوره ، وعهد إليهم في إدارة المدارس التي افتتحها ، وأشهرها في أزنق . ثم لما استتب الأمر لجلبي محمد (١٤١٣ - ١٤٢١) انصرف للعناية بالعلم عنايته بالمران ؛ وكان عرشاه السورى في جملة العلماء اللامعين بين حاشيته . وجرى مجراه مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) وكانت « بورصة » قاعدة الدولة في أيامه ، تعتبر كقاعدة للعلم أيضا في الشرق الأدنى .

وأما محمد فاتح القسطنطينية (١٤٥١ - ١٤٨١) فقد قال عنه درابر : Drapper (H^{se} intellectual de L'Europe) : كان يتكلم بخمس لغات ، فضلا عن معرفته العلوم الرياضية ، وهو قد أحيا في القسطنطينية عصرها الثقافى ، بما أنشأ فيها من المدارس ، ونخص بالذكر منها « دار الفنون » . على أن عنايته بالعلم لم تقتصر على قاعدة الدولة ، بل تعدتها إلى « بورصة » وأزنق وأدرنة ، وكان كل منها حافلا بجمهور من أهل الفضل .

وكان السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) شاعرا ، وله آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وما إن فتح مصر والشام فالحراق ، حتى أخذ ينقل إلى بلاده المؤلفات العربية ، ويستقدم الأدباء والعلماء والصناع ، ثم قدر لابنه السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أن ييز أباه في الشهرة ، ولقب بالقانونى لوضعه قوانين الدولة ونظمها .

بيد أن السلطنة أخذت تتدهور بعد هذا السلطان ، وتتمرغ في حياة مزقتها الكوارث ، فانطوت على نفسها ، وأصبحت على حال من الحذر جعلها ليست بعيدة عن مجارة أوربة في تمدنها فحسب ، بل تتجنب كل شيء يصدر عن الغرب .

وهكذا ، نجد أن الأمصار العربية التي كانت مباءة العلم وأهله قبل آل عثمان ، أُمست في عهد هؤلاء في عزلة عن النهضة العالمية الحديثة مدة أجيال ، وهي لا تحتفظ من تراثها الثقافي إلا بالعلوم اللسانية والدينية ، ولا تستبقي من مدارسها الكثيرة إلا حلقات المساجد ، وكتاتيب تحمل أسماء مدارس . وأما أموال الأوقاف التي حبست على معاهد العلم والمؤسسات الخيرية ، فقد أصبحت نهبا للمتنفذين . ولولا بعض المعاهد الدينية كالأزهر في مصر ، والقرويين بفاس ، والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقيروان ، والأموى بدمشق ، ولولا كربلاء والتجف وسامرا في العراق ، هذه المعاهد التي قدر لها أن تحتفظ بشيء من أوقافها ، لدرست الآداب العربية في تلك العصور المظلمة ، واندثرت معها تعاليم الإسلام .

على أن الانحطاط شمل مع ذلك ما تبقى في ديار العرب من العلوم الدينية واللسانية ، فصاروا في الناحية الدينية ، يرجحون الغريب السخيف ، على المعقول والموزون ، وأمسوا في الناحية الأدبية يختارون المحاسن اللفظية ، دون المعاني والفنون . أما تأليف ذلك العهد فكانت تحوم حول الكتب القديمة ، فتعتمد إلى تطويل ما كان منها موجزا ، واختصار المسهب ، وفي الحالين كانت شعلة الفكر منطفئة ، لانار فيها ولا نور .

ومن مشاهير ذلك العهد المؤلف الشهاب أحمد الخفاجي المصري (١٠٦٩هـ - ١٦٥٨م) والشاعر ابن النحاس الحلبي « ت ١١٥٢هـ = ١٦٤٢م » والأديب عبد القادر البغدادى « ت ١٠٩٣هـ = ١٦٨٣م » صاحب كتاب خزانة الأدب .

وأما الشعب فقد أُمسى أميا على وجه عام ، وإذا أتيح لواحد منهم أن ينال نصيبا من علم أو أدب تقلد دواته المستطيلة في صدر حزامه العريض ، ومشى مباهيا يترقب أن يشار إليه . وقد روى لنا أسلافنا أن الأمية استحكمت في بعض المدن العربية ، ومنها بلدنا بيروت ، إلى حد أن تجارها كانوا يعتمدون

في كتابة رسائلهم ، وتسجيل حساباتهم على نفر قليل ، قدر لهم أن يقرءوا ويكتبوا ، وأن يمتحنوا هذه الحرفة . ولكن بحثا جديدا شمل العالم العربي منذ القرن التاسع عشر ، وأخرجه من هذه الظلمات إلى النور ؛ وهذا ما سنحاول عرضه بكلامنا التالي .

ب — تطور مصر الثقافي في عهد آل عثمان :

(١) لما تغلب الأيوبيون على مصر (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) حرص السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة ، على مكانة مصر العلمية ، التي كان الأزهر محورها ، فعززها بالمدارس ، وحذا حذوه خلفاؤه ، فكثرَت المدارس على عهدهم ، وقام بالتدريس فيها بعض أعيان العلماء ، كابن زين النجار الشافعي ، والشريف القاضي شمس الدين بن محمد الحنفي ، وقاضي القضاة أبي علي الحسين المالكي ، والإمام أبي محمد الشاطبي ، وتلميذه أبي محمد بن عمر القرطبي ، وغيرهم من جلة العلماء وكبارهم .

وكانت تلك المدارس تعنى بعلوم الدين واللغة ، ولا سيما فقه المذاهب الأربعة ، فانتقلت بذلك حركة التعليم من أبنية جامع الأزهر إلى تلك المدارس ، وأصبحت منهل العلوم في ذلك العصر .

غير أن الأزهر استعاد مكانته في عهد المماليك البحرية ، الذين خلفوا الأيوبيين على مصر ، فجدد الظاهر بيبرس البندقداري مذ تولى الحكم (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) شبابه ، وأعاد إليه نشاطه العلمي ؛ وسار على أثره ملوك وأمرء جاءوا من بعده ، فكانت نهضة مباركة ، حملت العالم الإسلامي - بعد سقوط بغداد في حوزة المغول ، وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية - على الاتجاه بأنظارهم وأفئدتهم شطر مصر ، وخصوصا أنها قد أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ، بعد الكارثة المغولية التي حاقت بالعراق .

وأصبحت مصر بأزهرها المثابة المرجوة للمسلمين ، وكانوا يقصدونها في طلب العلم من جميع الأقطار ، حتى إذا دخلها السلطان سليم العثماني فاتحاً ، أصابها ما أصاب الأمصار العثمانية من الفوضى والاضطراب ، وأضاعت من جراء ذلك عمرانها وعلومها وفنونها ، وخسرت ذلك الازدهار الذي كان يتمتع به الأزهر ، ولا سيما في عهد المماليك البكوات المظلم . وقد زار الرحالة فولني Folney مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلم يتمالك عن الإعراب عن عجبهِ ، للجهل الشامل الذي كان يحيق بها في كل طبقة من طبقاتها .

(٢) على أنه لو أتيح لهذا الفيلسوف الفرنسي أن يعود لمصر بعد نحو ربع قرن من وضع كتابه ، لارتاب في صحة مادونه عن هذا القطر الشقيق . فقد عرضت وقتئذ مفاجآت سياسية سرعان ما عملت على إخراج وادى النيل من عزلته ، وألقت في رحابه أسس النهضة الحديثة .

ذلك أن الحملة التي ساقها نابليون الأول على مصر ، لم تكن ذات صبغة عسكرية فحسب ، بل كانت في الواقع حملة علمية بما رافقها من بعثات علمية وفنية ، وبما وضعته من مشروعات مختلفة . حملة علمية اكتسحت الشرق الأوسط ، وصوبت سهامها إلى الفساد الذي كان يغشى بصره وبصيرته ، فتراجع الجيش الفرنسي ، ولكن هذه الحملة العلمية لم تتراجع . وكان في في عداد المشروعات التي قامت بها : المكتبة العامة ، ومدرستان لأولاد الفرنسيين ، وجريدتان باللغة الفرنسية ، فضلاً عن مسرح للتمثيل . وجمع على مصري .

ولما تولى مصر محمد علي باشا رأس الأسرة العلوية (١٨٠٥م) ، وسمت نفسه إلى الاستقلال ، صرف همه إلى الجند وتنظيمه على الأساليب الحديثة ، التي لمس فوائدها خلال الحملة الفرنسية على مصر ، فأنشأ المدرسة التجهيزية الحربية (١٨٢٥) ، وافتتح المعهد الطبي إلى جوار المستشفى العسكري بأبي زعبل

(١٨٢٧)، وعهد إلى إرسال بعثات الطلبة لأوربة . وما إن عاد هؤلاء إلى وطنهم، حتى خفوا إلى تأليف مجلس خاص بالمدارس ، كان من مآتيه إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية في أنحاء القطر، على المناهج الفرنسية ، ثم لم تمض سنون حتى أصبح عدد هذه المدارس سبعين مدرسة ، بينها ست عشرة مدرسة كبيرة ، بلغ عدد طلابها تسعة آلاف تلميذ ؛ وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم الأولى .

وزيادة على ذلك قد جعل محمد علي باشا الأزهر موضع عنايته ، وقرب إليه علماءه ، واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته العلمية . ولما أرسل البعوث إلى فرنسا كان فيها شيوخ أزهريون ، ومن بينهم رفاة بك ، ذلك العالم الذي أفاد المصريين بعد عودته بالتأليف والترجمة . وكما أن اهتمام محمد علي باشا بالجند حمله على إقامة المدارس لهم والمستشفيات ، وعلى إنشاء المعامل التي تعد العدد للجيش ، كانت الرغبة في الإصلاح العام حافزا له على إحياء ما تعطل من المشروعات النابليونية ، وفي عدادها المطبعة والصحيفة .

وظلت مطبعة بلاق التي أنشأها محمد علي باشا من كبريات المطابع في الشرق العربي ، وأصدرت كتباً قيمة في فنون شتى ، أكثرها ترجمات عن اللغات الأوربية .

كما أن جريدة الوقائع المصرية التي أصدرها سموه (١٨٢٨ م) كانت من أوليات الصحف العربية وأمهاتها .

ولما أفضت ولاية مصر إلى ابنه إبراهيم باشا ، توقع الناس إصلاحا كبيرا ، كان سموه قد أعد العدة له إثر رحلته إلى أوربة ، ولكن الأجل عاجله قبل تحقيق العمل . ثم نكسب التعليم بعده خلال ولاية عباس باشا الأول ، لأن هذا الأمير أقفل المدارس ، ولم يستبق منها إلا واحدة لتخريج ضباط البر والبحر ، وجرى مجراه سعيد باشا ؛ وما زالت المدارس معطلة

إلى ولاية إسماعيل باشا . هذا ما روى بنص المؤرخين المصريين ؛ ونحن نشك في صحته ، وخصوصا أنه قد جاء في تقرير مستر كليف الذي انتدبته لندن لدرس مالية مصر في عهد الخديو إسماعيل ، ما يفيد وجود ١٨٥ مدرسة بمصر سنة ١٨٦٢ م .

أما البعثات العالية لأوربة وإن ضعف شأنها في عهده ، فلم تلغ قاطبة ، بل إن حكومة مصر أرسلت ستا منها في حكم عباس باشا الأول ، وثلاثا في ولاية سعيد باشا .

وظهرت خلال هذه المدة المطبعة الأهلية القبطية ، وهي أولى المطابع الخصوصية بمصر ، وكان إنشاؤها دليلا على بواكير نهضة تنبثق من صفوف الشعب . وصارت الولاية لإسماعيل باشا (١٨٦٣) ، وليس بمصر إلا أربع مدارس : ابتدائية ، وثانوية ، وحرية ، وطبية صيدلية ، وهي في مجموعها على حالة سيئة . وكان إسماعيل باشا قد ورث عن جده مؤسس الأسرة المطامع الرامية إلى إنشاء كيان دولة مستقلة . نخف مثله إلى تعزيز كيان حكمه بالجنديّة ، معنيا بإنشاء المدارس العسكرية والفنية والطبية ، على أحدث الأساليب ، واهتم بنشر التعليم الشعبي ، وذلك بإنشاء كتاتيب أقامها في كثير من النواحي ، فضلا عن دار العلوم التي أسسها سنة ١٨٧٣ . وكانت الحكومة في عهد محمد علي وإسماعيل تأخذ على عاتقها كسوة التلاميذ وإطعامهم ، وتعطيهم مرتبات لنفقاتهم الخاصة ؛ ولما عاينت الإقبال على المدارس ، واعتزمت افتتاح المدارس الخارجية ، فرضت على أوليائهم أجورا تقدر بقدر حال كل منهم .

ورأى الخديو إسماعيل إقبال بنات مصر على مدارس الإرساليات الدينية ، فسارع إلى فتح مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ م ، كان الإقبال عليها مشجعا له على فتح قسم للمعلمات ، وعلى فتح مدارس غيرها في سائر الأقاليم .

وبمقتضى جغرافية فكرى ، بلغ عدد التلاميذ سنة (١٢٩٢ هـ = ١٨٧٥ م) أى أواخر ولاية إسماعيل باشا : ١٤١٩٧٧ تلميذا ، والمدارس والكتاتيب : ٤٨١٧ مدرسة ، والمعلمين ٦٠٤٦ معلما . وهذه الأرقام توافق ماورد فى تقرير مستر كليف المشار إليه . غير أن مستر كليف يروى أن هذه الأرقام إنما كانت تقتصر على المدارس القائمة على التنظيم الأوروبى الحديث .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن المستوى العام للتعليم وقتئذ كان مرضيا فى المدارس الحربية ، وأما فى غيرها فكان دون الوسط ، ومرد ذلك إلى أن السواد الأعظم من المعلمين كان من الأزهر إبان انحطاطه . غير أن هذا المستوى أصابه شئ من التحسين من جراء إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ م ، ثم بإنشاء مدرسة المعلمين والمعلمات فى مطلع ولاية توفيق باشا سنة ١٨٨١ .

هذا ، وقد أراد إسماعيل باشا وضع حد للفوضى والارتباك اللذين أصابا الأزهر فى ذلك الحين ، فأصدر (١٢٨٨ هـ = ١٨٧٢ م) قانونا نظم فيه طرق نيل الشهادة العالية ، ولكن على الرغم من ذلك بقى التعليم فى الأزهر مقصورا على العلوم الدينية والعربية ، وعلى قليل من الهيمية والمواقيت .

على أن إسماعيل باشا أعاراهتمامه الكثير البعثات العلمية ، فأرسل ١٧٢ تلميذا لأوربة ، وأنشأ المكتبة الخديوية (١٨٧٠) . وفى نفس الوقت سهل للأجانب الإقامة بمصر ، وإنشاء مدارسهم التى أمدّها بالمساعدات ، فضلا عن ترحيبه بأدباء سورية ، ومكافأته مشاهيرهم ، سواء منهم من هاجروا إلى مصر ، أو من تخلفوا فى بر الشام ، فحفل عهده بنهضة أدبية ، حملت المدارس والمطابع ألويتها ، ونطقت الصحف والمؤلفات بلسانها .

ثم أقبل الخديو إسماعيل ، وولى ولده توفيق باشا (١٨٧٩ م) غير أن النهضة ظلت على ازدهارها بقوة الاستمرار ، وقد احتل الإنكليز مصر خلال ذلك على أثر الحوادث العراقية ، ومدارس مصر ما برحت على ازدياد ، وتلاميذها مازالوا على توافر ، وكان أشهرها مدرسة المعلمين والمعلمات ، ومدرسة القصر العيني . وقد أحصى اللورد دفرين (١٨٨٢ م) المعاهد العلمية التي كانت قائمة حين دخول الإنكليز ، فكانت كما يلي :

(١) جامع الأزهر وفيه ٨٠٠٠ طالب للعلوم الدينية وآداب اللغة العربية .

(٢) المدارس الأجنبية وعددها ١٥٢ مدرسة ، وفيها ١٢,٢٤٧ تلميذا ، ويتمتع بعض هذه المدارس بمنح حكومية .

(٣) المدارس الحكومية ، وهي ٥٢٧ ابتدائية ، وفيها ١٣٧,٥٥٣ تلميذا ، و ٢٧ ثانوية ، وفيها ٤,٦٦٤ تلميذا . فضلا عن مدرسة تجهيزية بالقاهرة ، و ١١ مدرسة للفنون والمهن ، واحدة منها للبنات .

(٤) لم يتورع اللورد كرومر عن المجاهرة بأن مهمة الحكومة ليست ترقية التعليم ، ولا رفع مستوى العلم ، ولكنها تنحصر في إعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم لإدارة شئوننا .

تلك كانت سياسة الإنكليز في حقل المعارف مذ احتلوا وادى النيل ، ووراء هذه الغاية وقفوا تيار الروح العلي الذي كان يحتاج مصر في عهدي إسماعيل وتوفيق . واستعانوا على ذلك بوسائل سلبية وإيجابية ، وبيننا ذلك في الجزء الأول من كتابنا «قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور» ، وقد عمدوا إلى الأساليب التالية في سبيل تحقيق هذا المطلب :

(١) تعطيل مدارس الحكومة الحربية والفنية .

(٢) إهمال التعليم الابتدائي والثانوي .

(٣) إبطال المجانية في التعليم .

- (٤) إهمال اللغة العربية .
 - (٥) وقف البعثات العلمية لأوربة .
 - ومن جهة ثانية قاموا بما يلي :
 - (١) تشجيع المدارس الأجنبية ، ولا سيما الأنكلوسكسونية .
 - (٢) تنشيط الإرساليات الدينية .
 - (٣) ترويج الصحف الموالية لهم ، لاستخدامها في الدعاية .
- هذا ، وربما أن الأزهر لم يسلم من هذه السياسة البريطانية في الناحية التعليمية ، وأن الفوضى التي كانت مستحكمة فيه حملت بعض أهل الغيرة على التفكير في طرق إصلاحه ، ومطالبة الحكومة بهذا الإصلاح . وقد استجابت لهم ، وأصدرت قانون سنة ١٨٩٦ القاضي بإضافة مواد جديدة للدراسة في هذا المعهد . وقام على تنفيذ هذا القانون مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء ، ثم انتشر عقد هذا المجلس بخروج الشيخ محمد عبده منه ، ثم بوفاته سنة ١٩٠٦ ، وعاد الأزهر لقديمه .
- وكان الحكومة نفضت يدها من الأزهر منذ بداية القرن العشرين ، فأصدرت سنة ١٩٠٧ قانونا يقضى بإنشاء مدرسة القضاء الشرعى . وإذا بالأزهريين يستيقظون ، وإذا بهذا الحدث يحملهم على الاجتماع والمطالبة بإصلاح معيهم ، وإسناد الوظائف الشرعية لمتخرجيه .
- وإن الحكومة التي اتخذت موقف المعارضة في البداية ، لم تجد بدا آخر الأمر ، من مراعاة أمانى الأزهريين ، فأصدرت سنة ١٩١١ قانونا لتنظيم الأزهر ، على مثال مدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة دار العلوم .
- ويرجع نجاح الأزهريين في استصدار هذا القانون الذى وضع أسس الإصلاح ، إلى التطور الاجتماعى الذى أصاب وادى النيل إثر استفحال الثروة فيه ، ذلك التطور الذى كان جزءا من عناصر النهضة العالمية . فما إن قيض لمصر وزير للبعارف كفو سنة ١٩٠٨ ، وأعنى به سعد زغول باشا ،

حتى صمد في وجه السياسة البريطانية . فإذا به يعيد إلى اللغة العربية سابق مكاتها ، ويجعلها لغة التدريس في الابتدائية والثانوية ، ويرجع للبعثات شيئاً من رونقها ، ولما قفل أفرادها راجعين إلى وطنهم العزيز . أخذوا على عواتقهم أعباء النهضة . وإلى هذا تألفت سنة ١٩٠٩ مجالس المديرية ، وشرعت تتنافس في نشر التعليم ، ولا سيما في الأرياف ، زيادة على مدارس خاصة كثيرة ، قامت بها الجمعيات الخيرية وبعض الأفراد . وانتهت هذه الحركة المباركة في تلك الحقبة ، إلى إنشاء كلية كانت نواة الجامعة المصرية التي قامت سنة ١٩٢٥ .

ومع كل ذلك فإننا نقدر أن نقول : إن العهد العثماني قد انقضى ومصر لا تزال ترزح تحت أثقال الأمية ، ومدارسها الرسمية وغير الرسمية قليلة بالنسبة للأمصار الأخرى ، وعدد تلاميذها أقل . وبمقتضى إحصاء سنة ١٩١٧ كان عدد المتعلمين فيها لا يتعدى ١٣٦ ألف ، وعدد المتعلمات بنسبة ٢١ في الألف فحسب .

ح — التطور الثقافي في السودان :

منذ أن دخل الإسلام السودان مع العرب ، نشأت في تلك البلاد حركة عليية مركزة في ناحيتين : أولاها الكتاتيب التي تعنى بتلاوة القرآن وحفظه ، وثانيها حلقات المساجد التي يلقي فيها العلماء دروس الدين والأخلاق عقب الصلوات .

ولقد ظل هذا الشكل من التعليم الديني رائجاً في السودان طول زمن آل عثمان ، وفي عهد الحكم الثنائي . وحتى الآن لا تزال « خلاوى » القرآن منتشرة في كل مكان ، ولا تفتأ حلقات الدروس ترحم المساجد . وكان مسجد أم درمان أحد تلك المعاهد التي يدرس فيها كبار العلماء منذ أيام الشيخ الجليل محمد البدوي ، الذي أقامته حكومة السودان شيخاً للإسلام .

وما زال هذا المعهد مركز التعليم الديني في السودان ، وتتولى الحكومة الإنفاق عليه .

وكان حكومة الاحتلال اعتبرت بما كان لهذه « الخلاوى » من الأثر البالغ في التفاف السودانيين حول المهدي ، حينما دعاهم لمقاومة الأجانب ، فشامت التضيق على التعليم القرآني ، ولكنها لم تأمن غائلة هذه المحاولة ، فرأت من المصلحة أن تصرف الناس عنه ، بإيجاد المدارس الرسمية . وإذ كانت سياسة الإنكليز التعليمية في مصر إنما تقوم على إيجاد مستخدمين للدوائر الحكومية ، فهل ينتظر منهم في السودان أن يحددوا عن هذه السياسة ؟

لذلك عمدت حكومة السودان - مذ تسلمت شئون التعليم العام - إلى الشح بالخصصات له في الميزانية ، حتى إن نسبتها لم تكن تتجاوز ثلاثة في المئة ، فضلا عن أنها أخضعته لقانون يحرم على أى شخص إنشاء مدرسة دون الحصول على تصريح كتابي . ولهذا الأسباب لم يبدأ التعليم الأهلى إلا عام ١٩٢٦ .

على أن المدارس الرسمية كانت ابتدائية فقط ، وعدد المدارس الوطنية لم يكن يتجاوز تسع مدارس حتى عام ١٩١٨ . تضاف إليها كلية غوردون ، التي أنشأها الإنكليز في الخرطوم في سنة ١٩٠٢ ، وربطوها بجامعة لندن .

د - تطور بلاد الشام الثقافى :

لما ضرب المغول بغداد تلك الضربة القاضية (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) تحولت الحركة العلمية الأدبية في العراق إلى مصر والشام . فاستقبلها الفاطميون ثم الأيوبيون بالرعاية ، ونشأ في ظلهم طبقة من العلماء والأدباء المرموقين .

ولكن ذلك الازدهار الذي شمل بلاد الشام كان عابر سبيل أسوة بمصر ، لأن عوامل كثيرة لم تلبث أن تضافرت عليه فاستأصلته ، وألقت البلاد في الجهل والحرمان ؛ فقد دهم الصليبيون والمغول سورية ، ثم اكتسحها تيمورلنك ، فأمعن في الفتك بأهلها ، ولا سيما أهل العلم منهم . وكانت حلب حافلة بالعلماء ، فلما اكتسحها هذا الطاغية ، ذهبت على يده مكتباتها الكثيرة ، ومدارسها السلطانية والعصرونية والحلوية والشرقية والرواحية ، وكذلك وقع بدمشق . ثم صارت بلاد الشام ولاية لآل عثمان ، وما كان همهم فيها إلا جمع الأموال ، وتجنيد الرجال ، وإلى ذلك جعلوا لغتهم دون لغة القرآن ، وكانوا إذا ما أعاروا التفاتهم إلى العلم وأهله ، يحصرون هذا الالتفات حتى حين بقاعدة البلاد .

ولولا حلقات الدروس في مساجد بلاد الشام وكنائسها ، بالإضافة إلى مدارس قليلة في أمهات المدن ، لكانت على حال من الاحتضار ؛ ولولا أن نفرا من أهلها كانوا يتحملون المشاق ، فيؤمون الأزهر بمصر ، والنجف في العراق - وغيرهم يقتبسون نور المدنية من بلاد الغرب - لكان القضاء المبرم على كل معرفة في هذه البلاد .

على أن مدينة حلب كانت أكثر المدائن السورية نورا في أثناء تلك الظلمة ، وزهت بطبقة من رجال العلم والأدب ، برغم ما انتابها من كوارث المغول والتتر ، ومن إهمال آل عثمان ، وقد سبقت البلاد العربية إلى الطباعة . هذا ، ولكن عوامل كثيرة سرعان ما تضافرت على بكافة الجهل ، ونشر التمدن الحديث في بلاد الشام قاطبة ، ولا سيما لبنان ، نستعرضها فيما يلي :

هـ - العوامل الدينية :

عاملان مهمان عملا على توثيق العلاقات بين بلاد الشام وأوربة : أولهما بيت المقدس وما حوله من البلاد المقدسة مهوى أفئدة المسيحيين ،

وثانيهما ارتباط الطوائف السورية الكاثوليكية والمارونية دينيا بروما ،
وصداقة هذه الطوائف لباريس سياسيا ، ولا سيما أهالي لبنان .
فلسطين ما زالت كعبة الرهبان الاوريين على اختلاف مذاهبهم ،
ومحج النصرى - حيث كانوا .

والطوائف الغربية وعلى رأسها الموارنة ، ما انفكوا مذ توثقت عرا
الصداقة بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول ، يرجعون لباريس
عند كل مهمة .

وهذان العاملان بالإضافة إلى المطامع الدولية بالشرق الأوسط ، كانا
حافزين لأوربة على إرسال البعثات التبشيرية ، وحمايتها في بلاد السلطنة ،
ولا سيما ولايتي سورية وببروت .

واستعدادا لذلك أنشأ البابا هونوريوس الرابع عشر ، في غرة القرن
الرابع عشر ، مدرسة بباريس تعنى بتعليم اللغة العربية ؛ كما أن اليسوعيين
فتحوا أواخر القرن السادس عشر مدرسة في روما ؛ وكانت تعنى بتعليم
العربية والعبرانية ، ثم أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر بإنشاء المدرسة
المارونية في عاصمة الكشلكة (١٥٨٤ م) ، وسلم إدارتها لليسوعيين .

وكانت تركية قد أمست فريسة الاضطرابات الداخلية ، والغزوات
الخارجية ، فسنى لفرنسا أن تستثمر ضعفها ، وتؤكد امتيازاتها ، وأتيح
لسائر الدول الحصول على مثل هذه الامتيازات ، وكان على رأسها حماية
الإرساليات الدينية .

وهكذا تسنى لهذه الإرساليات أن تقدم لدولها خدمات جلي ، ليس
في صعيد نشر الدين فحسب ، وإنما في الشؤون السياسية والاقتصادية أيضا ،
هى في نفس الوقت كانت بالنسبة لبلاد الشام ، من عريش مصر إلى تخوم
الأناضول ، عاملا على تلقيح جراثيم النهضة ، وذلك بالمدرسة التى انتشرت
في كل بلد وقرية . على أنها كانت حافزا أيضا لأهل البلاد على اختلاف

طوائفهم ، على إنشاء المدارس الوطنية ، خشية ارتقاء أبنائهم في أحضان مؤسسات التبشير .

و - العوامل الثقافية :

أكب الأوربيون منذ القرن الثاني عشر على المؤلفات العربية يترجمونها ، ويدرسونها في مدارسهم ، واستمر بعض كلياتهم يواظب على تدريس بعض العلوم باللغة العربية ، إلى أجيال غير بعيدة .

ولما اخترع فن الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر ، عنوا بطبع بعض المؤلفات العربية ، وظلوا مدة طويلة على ذلك ، حتى إنه لما لجأ الأمير نجر الدين المعني الثاني إلى إيطاليا ، في صدر القرن السابع عشر ، شاهد فيها هذه المطبوعات تباع بأثمان معتدلة .

وهذه العناية بتدريس لغة القرآن وبترجمة الكتب العربية وطبعها ، استلزمت تقريرهم بعض المتعلمين من البلاد العربية ، قصد الاستعانة بهم . والبنانيون مازالوا نقلة العلوم منذ القديم ، شأنهم في التجارة ، وما زالوا يستهينون بالغربة والأسفار ؛ فاستقر منهم أساتذة في أوربة ، أشهرهم إبراهيم الحقلاني (ت ١٠٣٧ = ١٦٢٧) ، وكان يدرس اللغة العربية في « كلية فرنسا » بباريس ، وشمعون السمعاني مدرس اللغات الشرقية في كلية بادوا منذ سنة (١٢٠٠ هـ = ١٧٨٥ م) . والقس مخايل الغزيري ترجمان ملك أسبانيا كرلوس الثالث ، والخورى أنطون عريضة معلم اللغات الشرقية في وينا . وكان أكثر هؤلاء من خريجي المدرسة المارونية في روما .

هذا ، وقد رافق ازدهار النهضة الأوربية نشوء طبقة من العلماء ، إنما رغبوا في علوم الشرق ولغاته حبا في العلم نفسه ؛ كما أن استفحال شأن الاستعمار الأوربي رافقته عناية الدول الطامحة إلى تعليم طبقة من الموظفين لغات الشرق ، ومنهم علماء ، ومنهم سياسيون .

وهؤلاء المستشرقون من أهل الطبقتين ، خدموا العلم على وجه عام ؛ إذ نشروا ما انطوى من مديت الشرق ، وترجموا فيما ترجموا عن العربية : الطبعيات والفلسفة والرياضيات ، وخدموا العرب على وجه خاص ، لأنهم جمعوا بعض كنوزهم العلمية ، ثم عرفوا كيف يعرضونها .

وكان هؤلاء الأجانب المستشرقون ، وأولئك المواطنون المستغربون ، ألف وصل بين التمدن الحديث وبين بلاد الشام المتوثبة ، وكان لهذه الصلة مفعولها الكبير في نهضة الثقافة .

ز — العوامل السياسية :

إن الحوادث الجسام التي شغلت أوربة أواخر القرن الثامن عشر ، كان لها أثر أى أثر في يقظة هذا الشرق العربي ؛ فلقـد شبت الثورة الفرنسية ، ثم جاء نابليون بونابرت إلى مصر ، واحتلها قصد أن يجعلها مركزا استراتيجيا للحملة على الهند ، وتعداها إلى سورية . ولكنه وإن عاد مدحورا عنها قد ترك في الميدان دروسا مفيدة للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٨) ، من حيث ضرورة الأخذ بمبادئ الإصلاح الأوربي ، ولا سيما الفن الحربى الحديث .

ولكن طغمة المحافظين في تركية بالإضافة إلى الإنكشارية المستبدة ، حالوا بين السلطان وأمانيه ، وخلعوه من أجلها . وكان السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) كثير الاتصال بالسلطان سليم بعد خلعه ، وقبل أن يتبوأ محمود العرش ، تأرله بالقضاء على الإنكشارية ، وعنى بتحقيق أمانيه في الإصلاحات المدنية والعسكرية . وكان في جملة ذلك إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية ، فضلا عن المعهد الطبى ، ومباشرته إرسال أولى بعثات الطلبة لأوربة . ولما كان الناس على دين ملوكهم ، بدرت في ذلك الحين من بعض ولاية سورية بوادر عطف على التجديد والأدب ، كانت

تظهر كوميض برق خلال الرماد الأسود . ونخص بالذكر منهم سليمان باشا بعكا ، ويوسف باشا كنج بدمشق ، والأمير بشيرا الشهابي ببلدان .
غير أن هذا النشاط الأدبي لم يلبث أن احمى مدة من الزمن ، تحت سنابك قوافل السياسة ؛ فلقد استطاع محمد علي باشا والى مصر أن يكتسح بلاد الشام ، ويتعدها إلى الأناضول ، قاصدا عاصمة السلطان .

وعملت الدول على رده إلى مصر ، وبقي استقلال تركية محفوظا كما كان . وهو حادث تاريخي يبدو كأنه انتهى ؛ والواقع أن هذه الغزوة تركت آثارا محسوسة في مستقبل هذه السلطنة ، وخصوصا أن إنقاذ الدول لتركية ، جعل الباب العالى واطئا إزاء الدوننج ستريت والكي دورسيه وغيرهما ، وجعله يتلقى النصائح منهما بقبول وامتنال . وبكلمة أخرى ، كان لهذا الحادث ذيول ، بفتحه باب « المسألة الشرقية » . وكان له رد فعل فى الناحية الثقافية ، حقا أن النشاط الأدبي أصابه كثير من الذبول فى سورية خلال الحملة المصرية ، غير أن العاقبة كانت خيرا ، بإقحام تركية العهد الإصلاحى .

لقد قام السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) من ثم بالإصلاحات المطلوبة ، وفى جملتها إنشاء المدارس الرشدية والإعدادية . ولما خلفه السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) وكان عمرانيا ، كثير الشبه بمعاصره الخديو إسماعيل باشا بمصر ، جرى وإياه فى سبيل واحد ، من حيث تنشيط النهضة ، والبذل فى مكافأة العاملين والمؤلفين . وكما لهما من أياد بيضاء على بطرس البستاني ، وأحمد فارس الشدياق ، ومارون النقاش ، وغيرهم من مؤسسى النهضة السورية ! وفى مفتتح ولاية السلطان عبد العزيز فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية (١٢٧٨ هـ — ١٨٦١ م) ، وهى أولى مدارس الحكومة فى بلاد الشام .

ولما صار عرش السلطنة لعبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ، واقتضت سياسته تقريب العرب ، أذن لمدحت باشا والى دمشق فى إنشاء

المدارس ، خفف الدمشقيون بإيعازهم إلى تأليف الجمعية الخيرية (١٨٧٨) ،
وعهدوا إليها بإنشاء المدارس ، فبلغ عددها وقتئذ ثمانى مدارس ابتدائية
للذكور والإناث ، فضلا عن دار للصنائع ، واعتنت هذه الجمعية أيضا
بتأسيس المكتبة الظاهرية ، ثم لم يطل بقاء الجمعية بعد نقل مدحت باشا من
سورية . أما في بيروت التي كانت وقتئذ متصرفية تابعة لولاية سورية فإن
حكومتها تركت هذا الميدان للدارس الأجنبية ، تتعهد على هواها تربية
الناشئة الترية التي تريدها . ولم تنشئ الحكومة المدرسة الإعدادية فيها إلا سنة
١٨٨٥ م ، بالإضافة إلى الرشدية والعسكرية ، ثم صحت نية الحكومة من بعد
على إنشاء كلية للطب بدمشق ، ففتحتها سنة ١٩٠٣ ، وجعلتها مشتملة على فرع
للصيدلة ، ثم شفعتها بكلية للحقوق في بيروت سنة ١٩١٢ ، وكان التدريس
في هاتين الكليتين باللغة التركية .

على أن قيام هذه المدارس لم يكن في الواقع يبرر تقصير السلطنة
في صدد نشر المعارف ، ذلك لأن جباية سورية كانت على رواية الأب
لامنس في كتابه Lamem, La Syrie تبلغ أوائل القرن العشرين نحواً من
تسعين مليون فرنك ، لم يكن يخصص للمعارف منها سوى إحدى وسبعين
ألف ليرة تركية .

وإزاء هذا الموقف الذي وقفته تركية في بلاد الشام وغيرها من العلم والتعليم ،
كانت كل دولة من الدول الأوربية تعمل على نشر نفوذها في المنطقة التي
تطمع بها ، آملة أن تكون حصتها أرجح من سواها في إرث الرجل
المريض ، وهل ثمة أفضل من المدارس لإدراك هذه الغاية ؟

لذلك رأينا الدول الأوربية تتسابق في ميدان المدارس ، وفي إنشائها
هنا وهناك في بلاد الشام ، ولا سيما ولاية بيروت وجبل لبنان ؛ وهي
في هذا التنافس تتسابق إلى البذل أيضا . وعلى رواية كتاب Puissances
Trancassie P58-88 خصصت فرنسا سنة ١٨٩٥ مدارسها في الشرق

الأدنى مبلغ ٧٠٠ ألف فرنك ، أما روسيا فوضعت في ميزانيتها لهذه الغاية مليون فرنك ، وإيطاليا مليوناً وأربعمائة ألف فرنك . ثم لم تقف الدول عند هذا الحد من الكرم ، بل كانت تسترسل في جودها على مرّ الأيام .

على أن بلاد الشام وإن نكبت سياسياً واجتماعياً من جراء التدخل الأجنبي بين أهلها ، جنت منه فوائد جليلة في الناحية الثقافية ، كانت قوام نهضتها الحديثة .

ح - العوامل الاقتصادية :

لما أصابت الصناعة تقدماً محسوساً في أوربة ، وضاق نطاق هذه القارة عن استيعابه ، واحتاجت دولها إلى المواد الأغفال لمصنوعاتها ، مدت أبصارها إلى آسيا وإفريقية ، قصد أن تشتري منها رخيصاً وتبيعها غالياً .

وكانت أوربة تقدر الفوائد المرجوة من جراء معرفة رجالها الموظفين في المستعمرات وغيرها ، ألسنة أهل البلاد ، فوجهت عنايتها لتدريس اللغات الشرقية الحية ، وأنشأت فرنسا منذ سنة ١٧٩٥ مدرسة لتعليم هذه اللغات بباريس ، وجرى مجراها غيرها من الدول الطامحة . على أن بلاد الشام وإن ظلت في منبجى من الاستعمار الأوربي السياسي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ما استطاعت مع ذلك البقاء مستقلة عن نفوذ أوربة وأميركا الاقتصادى .

ومع ذلك يمكن القول بأن السوريين سواء كانوا في الساحل أو الداخل ، أظهروا مناعة كافية في الناحية الاقتصادية ضد الجارف الأجنبي ، فلم يفسحوا له المجال للقبض على زمام التجارة في أسواقهم ، بل قامت منهم بيوتات تجارية وتجار هيمنوا على الأسواق ، وكانوا فضلاً عن ذلك ألف الوصل بين الغرب والشرق القريب ؛ أما وإن مزاوله التجارة

وسائر الشؤون الاقتصادية أصبحت تتطلب معرفة في اللغات والجغرافية وأصول التجارة وغيرها ؛ فقد حصل إقبال شديد على المدارس والكلية الأجنبية ، كان نتيجة لضرورة اقتصادية ، وخصوصا في بيروت ، المدينة التي صارت في ذلك الوقت مرفأ للبلاد العربية المجاورة ، ولبعض البلاد التركية . وكان هذا التواصل التجاري وسيلة للاختلاط بين أهل البلاد وبين العالم الغربي ، بوساطة الناهبين إلى أوربة وأمريكا والقادمين منهما ، وما أشد ما يفعل مثل هذا الاختلاط في ميدان التقدم !

وإلى هذا ، إن قيام الشركات الأجنبية ذات الامتياز في بلاد الشام كشركات الخطوط الحديدية والمرافئ والكهرباء والماء والغاز والترام والبنوك ، مثلما أفضى إلى نزول عدد من الأخصائيين في بلاد الشام ، كان حافزا آخر للأهلين على دخول المدارس ، أملا في الاستخدام في هذه الشركات وغيرها .

ثم لما أخذ أهل البلاد بأسباب النهضة الصناعية والزراعية ، معتمدين في ذلك على الأساليب الميكانيكية الحديثة ، واحتاجوا من ثم إلى طبقة من الأخصائيين ، تسابقوا إلى إيفاد أولادهم إلى جامعات أوربة وأمريكا ، يقضون سنين فيها للتخصص الفني ، حتى إذا قفلوا عائدين لوطنهم ، كانوا يعودون مشبعين بروح جديد يبشونه في البلاد مضافا إلى علومهم .

وهناك عامل آخر كانت له أهميته في نهضة بلاد الشام ، وخصوصا لبنان ، وأعني به عامل الهجرة إلى الأمريكتين ؛ فالهجرة لم تكسب البلاد الأموال فقط ، تلك الأموال التي رفعت الصروح الجميلة ، والدور الكثيرة ، في سورية ولبنان ، بل كانت أيضا في جملة الأسباب التي فتحت كوة من النور في كيانا الصغير ، بالتواصل مع البلاد الراقية ، وبما كان للعائدين إلينا من تأثير شديد في بيئاتهم الريفية والقروية .

وهذه العوامل مجتمعة تضافرت على خلق بعث ثقافي في ولايتي سورية وبירות ، وفي متصرفية لبنان ، صاحبه انقلاب اجتماعي ، جعل هذه البلاد في المرتبة المرموقة حول البحر المتوسط . وكانت هذه العوامل بمثابة مقدمات لنتائج ظهرت على مراحل ، نستعرضها فيما يلي :

ط — عهد رجال الدين لغاية القرن الثامن عشر :

كان العلم والأدب يبلاد الشام في صدر العهد العثماني ، لا يتعدى نطاق العلوم الدينية والأدبية . وهو إلى ذلك كان محصورا في رجال الدين . ثم كان لاتصال الأكليريوس المسيحي بأوربة أثر بالغ في النهضة السورية ؛ ذلك أنه عدا أولئك الذين انتشروا في باريس وفلورنسة وفيينا وبادوا وغيرها ، من خريجي المدرسة المارونية في روما وسواهم ، أخرجت هذه المدرسة فحولا من القسس عادوا إلى الوطن ، وتولوا فيه أكبر الخدم الكهنوتية ، فكان منهم البطاركة والمطارنة منذ القرن السادس عشر .

وقد استخدم هؤلاء نفوذهم الروحي لخدمة أبناء ملتهم في الناحية الثقافية ، فكانت مدرسة حوقة في جبل لبنان التي أنشئت سنة ١٠٤٢هـ = ١٦٣٢م ، باكورة هذه الخدمات ، ثم تلتها مدرسة أخرى بحلب سنة (١٠٧٣هـ = ١٦٦٢م) فمدرسة عين ورقة ببلبنان ، (١٢٠٤ = ١٧٨٩م) وعشرات غيرها فيما بعد ، خصوصا حينما حولوا بعض الأديار إلى مدارس . وهم إلى ذلك قد عنوا بإنشاء المطابع ؛ وكانت أولها تلك التي أقاموها بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر . وأما الثانية فهي مطبعة عبد الله زاهر ، في دير مار يوحنا الطبشة ببلبنان ، وهو راهب حلبى ربما نقل فكرة هذه المطبعة من حلب لطبع الكتب الدينية .

على أن الإقبال على إنشاء المدارس في القرن الثامن عشر ، لم يقتصر على الطائفة المارونية في لبنان ، بل شمل غيرها من الطوائف المسيحية ،

ولعل الأرمن كانوا في الطليعة، لاختلاطهم بالغرب عن طريق الآستانة وغيرها . فقد أنشأ غريغوريوس الأول راعي الأرمن الكاثوليك مدرسة بزمار سنة (١٢٠٣ هـ = ١٧٨٨ م) ، كما وضع بطريك السريان الكاثوليك مخائيل جروه أسس مدرسة الشرفة ، وأنشأ بطريك الكاثوليك أغايوس مطر مدرسة عين تراز (١٢٢٦ هـ = ١٨١١ م) ، وكلها في جبل لبنان .

وتألفت خلال ذلك الرهبنات الوطنية عند الموارنة والروم الملكيين ، فشاركت في نشر المعارف ، وفي ترجمة بعض التأليف اللاتينية .

على أن تلك المدارس والمطابع وإن كان هدفها دينيا ، لأنها إنما وضعت لتخريج الأكليروس ولنشر المؤلفات المسيحية ، أعطت مع ذلك نتائج طيبة في خدمة النهضة العامة، ولا سيما أن كثيرين من خريجها لم يتكسوا من بعد في الطقوس الأكليريكية ، وإنما راحوا يستثمرون أديهم في خدمة دواوين الأمراء والحكام . نذكر منهم نقولا الترك (ت ١٨٢٨) ، ومخائيل البحري (ت ١٧٩٩) ، وإلياس أده (ت ١٨٢٨) ، وبطرس كرامة الحمصي (ت ١٨٥١) ، وعبود البحري .

وكان يعاصر هؤلاء في القرن الثامن عشر أدباء من المسلمين ، وعلماء كثيرون ، نذكر منهم المشايخ عبد الغني النابلسي ، وعثمان ظاهر العمر ، وأحمد البربر (ت ١٨١١) ، وأحمد عمر دبوس ، وعمر اليافي (١٨١٨) ، وإبراهيم الحر العاملي ، والأمير حيدر أحمد الشهابي (ت ١٨٣٤) ، والشيخ أمين الجندي (ت ١٨٤١) ، وعبد اللطيف فتح الله . وقد تولى الإفتاء في بيروت . قال عنه الأب شيخو : « وكان شاعرا ، إلا أن شعره مفقود » . وقد حملني قوله هذا على الإشارة هنا إلى وجود تاريخ نظمه المفتي المشار إليه ، وكتبه بخط يده ، مهنتا به جدى الحاج مصطفى بيهم ، بمناسبة إرخاء لحيته سنة ١٢٥٢ هـ الموافقة سنة ١٨٣٦ م ، قال :

تبدى عذار الفتى مصطفى فأحسن به من عذار نفيس

تحلت به وجنتاه كالأفأصبح فيه ابتهاج النفوس
وللسك وهو الزكي شذاه وأرخ: «حكي خمار العروس»

وهذا التاريخ لا يزال محفوظا في متحف المتواضع .

هذا ؛ وقد كان هذا التفاعل بين بلاد الشام وبين الغرب برجال
الأكليروس ، عنصرا فعالا في جملة العناصر التي خلقت النهضة الفكرية
والأدبية في ساحل هذه البلاد وداخلها .

ي — الإرساليات الأجنبية وانتشار الثقافة بين الشعب :

إن الخمس والعشرين سنة التي أعقبت انسحاب جيوش محمد علي باشا
والى مصر من بلاد الشام ، كانت بالنسبة للآداب العربية من خير الأزمان
حفولا بعناصر النهضة ، ولا سيما في ناحيتين :

أولاهما : تسابق الدول الأجنبية في ميدان إيفاد البعثات العلمية إلى بلاد
الشام ، وإقامة المطابع والمدارس .

ثانيهما : بروز نتائج المدارس الوطنية ، واهتمام الناس بها .

ويرجع إقبال الأوربيين على إرسال هذه البعثات ، وعلى تنشيط
رعاياهم للإقامة في الأمبراطورية العثمانية ، إلى ثلاثة أسباب :

(١) اطمئنانهم إلى تركية مذ أصبح زمامها بأيديهم ، بعد إنقاذهم إياها من
خطر الاكتساح المصرى .

(٢) تنافسهم على استثمارها اقتصاديا .

(٣) تأهب كل منهم للحصول على أكبر حصة من إرث « الرجل
المريض » ، على تعبير قيصر روسيا .

ولما كان احتلال القلوب من شأنه أن يسهل فتح المعازل ، ساقط
كل دولة من هذه الدول حملة من البعثات الدينية إلى البلاد العثمانية ، وكان
في طليعتها إلى بلاد الشام ، المرسلون من الكاثوليك والأنكلو سكسون . ثم تلتهم

إرساليات أخرى بأسماء مختلفة ، رجال ونساء ، وانتشروا جميعهم في المدن والقرى ، ولا سيما في لبنان وفلسطين .

وكان الإرساليات اللاتينية كانت تعتبر ولاية بيروت ولبنان منطقة نفوذ لدولها ، فكبر عليها ما أظهرته الإرساليات الأمريكية من نشاط ، فإذا بها تخف إلى منافستها في نشر المدارس ، ورفع درجات بعضها ، وإقامة المطابع ، وإصدار الصحف ، متخذة بيروت نقطة انطلاق لجهودها ؛ فلما نقل المرسلون الأمريكيون مطبعتهم من ماطة إلى بيروت سنة ١٨٤٦ ، سارع الآباء الفرنسيون إلى إقامة مطبعتهم الكاثوليكية بعد سنتين من ذلك . ولما افتتح الأمريكيون بيروت سنة ١٨٦٦ الكلية الإنجيلية ، وكانت مدرسة في قرية عبية بلبنان ، بادر اليسوعيون لنقل مدرستهم إليها من قرية غزير ، وذلك في سنة ١٨٧٤ . ثم عكف كل من اللاتينيين والإنكلوسكون ، على ترقية معاهده العلمية ، حتى صار لها فيما بعد جامعتان ، وما أشد ما كانت تستفيد البلاد من هذا التنافس !

وكانت سائر الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية تجري أيضا على مثل هذه المنافسة ، وانتهى بها الأمر إلى التسابق أيضا في ميدان إنشاء المدارس النسائية ؛ فقد أنشأ الأمريكيون سنة ١٨٤١ ، بمساعي مستر هاسكنس مدرسة للبنات ببيروت ذات قسم داخلي ، وإذا باللاتينيين يتعقبونهم ، فأنشأت أخوية ابنة الإحسان ' fill de la charite ' سنة ١٨٤٣ مدرسة مثلها في البلدة نفسها ، كما فتحت فيها راهبات القديس يوسف (١٢٦٥ - ١٨٤٨) مدرستين للبنات أيضا ، وهكذا دواليك ، حتى كاد عدد مدارس الإرساليات للبنات يضاهي عدد مدارس الذكور .

وكان من محاسن هذا التنافس ، خروج العلم والأدب في بلاد الشام من نطاق النيبات الدينية ، إلى صفوف الشعب ، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد ، كما يشمل الرجل . وكان في الطليعة خريجو المدارس الوطنية

الذين استعانت بهم الإرساليات في التدريس والتعليم . ومنهم بطرس البستاني (ت ١٨٨٣) وأحمد فارس الشدياق (ت ١٨٨٧) تلميذا مدرسة عين ورقة . وأخذ منذ ذلك الشيخ ناصيف اليازجي يحتل مكانته الأدبية (ت ٨٧١) .

وكان من محاسن هذا التطور ، أن نشط المسلمون أيضا إلى الأخذ بالآداب الحديثة ، والرغبة فيها رغبة تشبه أن تكون شعبية . فاشتهر منهم في الساحل : الأمير محمد أمين أرسلان ، مؤلف كتاب « أصول التاريخ » (ت ١٨٦٨) ، وهو أول من ألف في هذا الموضوع بين العرب في العهد الحديث ، « ومصباح البربير » (ت ١٨٥٥) ، والسيد عمر الأنسي (ت ١٨٧٦) ، والشيخ يوسف الأسير ، تلميذ المدرسة المرادية بدمشق ، وأستاذ المدارس الناشئة ببيروت (ت ١٨٨٩) ، والشيخ إبراهيم الأحب (ت ١٨٩٠) .

وأما في الداخل فكانت دمشق وحلب حافلتين بالعلماء ، نذكر منهم الشيخ عبد الله الحلبي ، ومكسيموس مظلوم (ت ١٨٥٥) ، ونخائيل مشاقة (ت ١٨٨٨) ، وفرنسيس مراش (ت ١٨٧٣) ، ورزق الله حسون (ت ١٨٨٠) ، وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالآستانة ، ومحمد حسين الحلبي العطار (ت ١٨٧٧) ، وهو من علماء الرياضيات ، فضلا عن بعض المغتربين ، كأديب إسحاق الدمشقي (ت ١٨٨٥) ، وجبرائيل دلال الحلبي (ت ١٨٩٩) .

على أن التنافس بين المرسلين الأجانب كان مع ذلك مثيرا لنشاط أهل البلاد ، ولتاهتهم على ممارسة الحرفة الثقافية ؛ فإذا بمطبعة القديس جاورجيوس ببيروت ، التي كانت توقفت عن العمل ، تعود إليه سنة ١٨٤٨ م ؛ كما أنشأ بطريرك الروم في القدس مطبعة القبر المقدس ، وهكذا دواليك ، فكانت نهضة شعبية ، مشى في طليعتها خريجو المدارس على اختلاف ألوانها .

ك - عهد الصحف والجمعيات والمطابع :

كثيرا ماتكون عقبي الشر خيرا ؛ ومن هذا القبيل ما كان لفتنة ١٨٦٠ الطائفية الممقوتة من الفوائد لبيروت ، ثم للنهضة فيها ؛ فقد عملت هذه الفتنة على تعمير هذه المدينة بن لجأ إليها من ولاية سورية وجبل لبنان ، واستوطنوها ، وجعلوها مركز انطلاق لجهودهم الجبارة .

يضاف إلى ذلك أن تمتع جبل لبنان إثر هذه الفتنة باستقلاله الإداري ، تحت إشراف دولي ، جعله وجعل بيروت موردا عذبا للأجانب ، من جراء اطمئنانهم على مصالحهم ، فكان تنافسهم في ميادين التجارة هنا ، لا يقل عن تنافسهم في صعيد السياسة والثقافة ، ولكنهم وجدوا في الميدان تجارا يبدونهم اقتدارا في الناحية الثقافية ، وأعنى بهم أهل البلاد ، فكان تسابق بين الجميع ، أفضى إلى الثروة والعمران . كانت ثم نهضة ثقافية اجتماعية ، هي وليدة إرادة وطموح ، غذاها المال والعرفان . أما مظاهر هذه النهضة فكانت تبدو في ظاهر الأمر في النواحي التالية :

- (١) ظهور الصحف وارتقاؤها .
 - (٢) ازدياد المدارس على اختلاف نزعاتها وتنافسها .
 - (٣) تأليف الجمعيات .
 - (٤) كثرة المطابع والمؤلفات .
 - (٥) وفرة عدد المتعلمين والمتعلات .
- هذا ؛ وكان أول الصحف العربية هو ما صدر منها في مصر والآستانة . وأما في بلاد الشام فكانت جريدة حديقة الأخبار ، التي صدرت ببيروت سنة ١٨٥٨ ، هي باكورة الصحف فيها .
- وكان الباب العالي شعر بعد فتنة ١٨٦٠ باستفحال الدعايات الأجنبية ، فأوعز إلى الولاية بضرورة نشر الصحف الحكومية ، فأصدر والي دمشق

جريدة «سورية» (١٨٦٥)، وأصدر والى حلب جريدة «الفرات» (١٨٦٨)، وتلتها جريدة «الشهباء» (١٨٧٧). كما أن متصرف لبنان أصدر جريدة لبنان (١٨٦٧)، ثم أنشأ عزت «باشا» العابد، وكان وقتئذ رئيس قلم المخبرات بدمشق جريدة «دمشق» (١٨٧٨) وذلك بإيعاز من والى الولاية جودت باشا.

وعلى رغم أن الحكومة كانت تضيق على حرية الصحف، ورغم هجرة كثيرين من أدباء البلاد - ولا سيما اللبنانيين منهم - إلى مصر، حيث قاموا بنهضة صحفية ممتازة، وإلى غيرها، رأت بلادنا سيلا من الصحف لا ينضب معينه، وهكذا شرعت جهود المعلم بطرس البستاني وولده سليم تظهر للعيان، في صعيد الأدب والصحافة، فأنشأ مجلة الجنان، وجريدة اللجنة سنة ١٨٧٠ اللتين تركتا لهما أطيب الأثر.

وأما المدارس فقد أشرنا إليها في الكلام على الإرساليات الدينية، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن باكورة المدارس الوطنية في بيروت، كانت «المدرسة الوطنية» التي أنشأها المعلم بطرس البستاني المشار إليه. ثم خلفتها مدارس كثيرة، لا عيب فيها إلا أنها كانت ذات صبغات طائفية، خلافا للمدرسة الوطنية المذكورة. ولا بد لنا أيضا من الإشارة إلى كليات الآستانة العالية، وما كان لها من الأثر في نشر المعارف بولاية سورية. فتحت هذه المدارس أبوابها لأبناء العرب، فشرعوا يؤمنونها، ولا سيما طلاب الوظائف في الدولة، وكلهم تقريبا من أبناء الداخل، وأما أهل الساحل فكان لهم في الاتجار المثمر، ما يشغلهم عن التفكير في الوظائف؛ فانصرفوا إلى المعاهد الوطنية والأجنبية الكثيرة في مناطقهم، وخصوصا لعنايتها باللغات الأجنبية، التي يحتاجون إليها في أعمالهم التجارية.

هذا؛ وكان من نتيجة وفرة المتعلمين والمتعلبات في بيروت، بروز اتجاهات عامة بين الشعب نحو المشاركة في أسباب النهضة، وميل الطبقة المثقفة للعمل

متكثلة في هذه السبيل ، فأنشئت من جراء ذلك الجمعيات ، وكانت « الجمعية السورية » أولاها ، أسسها بعض المرسلين مع فريق من الوجهاء المثقفين سنة ١٨٤٧ م . وقد اهتمت بنشر الثقافة ، ولكنها لم تعيش طويلا . ثم عادت للظهور ثانية سنة ١٨٦٨ م ، وبدلت اسمها سنة ١٨٨٠ م ، فجعلته « المجمع العلمي الشرقي » .

وخلال ذلك استقل أهل البلاد عن الأجانب المواطنين في إنشاء الجمعيات الوطنية الصرفة ، فكانت أولاها « الجمعية العلمية السورية » سنة ١٨٦٨ م ، ثم تلاها كثير من الجمعيات ، وكانت غاياتها على الأكثر خيرية وطائفية .

ولم تتقاعس السيدات عن تأليف الجمعيات أيضا . بدأ بذلك الأجنيات ، فأنشأ الراهبات سنة ١٨٥٣ م جمعيتين ، غايتهما تهذيب الفتيات ، وهما جمعية المريات في بكفيا ، وجمعية قلب يسوع في معلقة زحلة ، ثم تعددت الجمعيات النسائية .

وأما المطابع فقد أخذت في الانتشار في دمشق وحلب ، فضلا عن بيروت والقدس ، وأصدرت مجموعة طيبة من الكتب ، لأدباء أصبحوا يمتازون بصحة الإنشاء والترجمة ؛ كما طبعت بعض المختارات القديمة . وقد أصبح أدباء العصر وقتئذ على كثرة في العدد ، حتى لا يتسع المقام لذكرهم . وحسبنا الإشارة بالإضافة إلى الذين نوهنا بهم من قبل وهم الحاج حسين بيهم ، من بيروت (ت ١٨٧٥) ومحمود بن خليل العظم ، من دمشق ، ومحمد سعيد دجاني ، من القدس .

وأما الأدبيات فقد حفل بهن الزمن ، وكان أكثرهن من البيوتات المعروفة بالأدب ، وأشهرهن مريانا مراش ، ووردة الترك ، ووردة اليازجي ، وفاطمة انثة الأمير أسعد الخليل .

على أن الكتابة في ذلك الوقت كانت على صحتها ، إنما تتوخى العناية بالألفاظ ، والانسجام في العبارات ، عناية تفوق الاهتمام بالمعاني .

ل — تباشير النهضة وبواكيرها :

مدارس وجمعيات ومطابع ومكتبات ومؤلفات انتشرت في أنحاء البلاد ، ولا سيما لبنان وبيروت خاصة ، فنقلتها من حال إلى حال ، حتى كادت بلاد الشام ، ساحلها وداخلها ، تبدو غريبة عن الماضي القريب .

غير أن هذه النهضة الوثابة ، وإن ظلت مثابرة على تقدمها سنة فسنة من جراء وفرة المدارس الأجنبية ، التي كانت تتمتع وحدها بالحرية ، منيت إبان عهد السلطان عبد الحميد بتضييق شديد ، ومراقبة مؤذية ، أدت إلى تضائل المدارس الوطنية ، وأفضت إلى حجب الصحف وحل الجمعيات .

والتي كانت تستطيع أن تعيش من الصحف ، هي التي كانت تخدم الدولة ، وتتجنب البحث في السياسة ، فلم يجد بعض المتعلمين بدا من الهجرة ، إما إلى أمريكا وإما إلى مصر ، ولجأ بعضهم إلى أوربة .

والذين أقاموا في مصر وجدوا هناك نهضة كانت تترعرع من عهد محمد علي باشا ، وتزدهر إبان ولاية إسماعيل باشا ، فشاركوا في تأييدها ، كما أن بعضهم التحقوا بوظائف الحكومة ، فبلغوا أسمى المراتب ، وخدموا الصحافة ، فكانوا أركانها ، وفي طليعة هؤلاء الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر ، منشئ المقطم والمقتطف ، وسليم تقلا باشا منشئ الأهرام ، والمؤرخ جرجي زيدان منشئ الهلال ، والسيد رشيد رضا صاحب المنار ؛ هذا فضلا عن أدباء آخرين ، أرهفوا أقلامهم لخدمة العلم والأدب والحرية ، نذكر منهم عبد الرحمن الكواكبي ، وأديب إسحاق ، وشبلي شميل ، ونجيب حداد ، وفرح أنطون ، ورفيق العظم ، وليبية هاشم .

وأما المتخلفون في بلاد الشام من أهل العلم والأدب ، فكانوا يصطدمون برقابة على كل مشور ومنظوم ، وعلى كل ما يتلى في الاجتماعات ؛ ولما كان لا يسمح بإلقاء خطبة إلا بعد ما يوافق عليها قلم الرقابة ، صارت الخطب العامة في الغالب لا تتعدى الموضوعات المبتدلة ؛ على أن بعضهم أخذوا يثبون شعورهم وشكواهم في صحف مصر ومجلاتها ، فأفضى ذلك إلى منع تلك الصحف والمجلات من دخول السلطنة العثمانية .

وليس بوسعنا أن نحصى هنا عدد مشاهير العلماء والأدباء المتخلفين في بلاد الشام ، لكثرة عددهم ، فنقتصر على التنويه بالشيخ إبراهيم اليازجي ، وسليمان وعبد الله البستاني ، وجبر ضومط ، وإبراهيم الحوراني ، ومصباح رمضان ، والأمير شكيب أرسلان ، وحسن بيهم في بيروت ، والشيخ طاهر الجزائري ، ومحمد سليم القصاب بدمشق .

على أن ذلك التضييق على حرية الفكر في العهد الحميدى ، لم يعد بوسع كبح جماح النهضة في ولاية بيروت ، ومتصرفية لبنان الممتازة ، وذلك لوفرة المدارس فيهما والكليات الأجنبية ، التي كانت خارج نطاق المراقبة التركية ، فضلا عن تأثير الاختلاط المستمر بالعالم الناهض .

فلما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ كان بيروت بضع وخمسون مدرسة كبيرة ، بينها عشر للبنات ، بالإضافة إلى ست كليات ، وذلك عدا المدارس الصغرى . وكان عدد الجرائد اليومية سبعا ، والأسبوعية عشرة ، وعدد المجلات أربعة ، والمطابع عشرة ، وفوق ذلك سبع عشرة مكتبة ، وثلاث عشرة جمعية خيرية ، وست جمعيات علمية ، وذلك بحسب إحصاء دليل بيروت . ثم ما إن أطلق عقال الحرية إثر إعلان الدستور ، حتى زاد عدد المدارس والصحف والمطابع والجمعيات والأحزاب ، وتوالى صدور التأليف إلى حد بعيد .

وأما في ولاية سورية ، حيث كان النشاط الأجني ضئيلا ، فقد كانت
عناية الحكومة بالتعليم محدودة ، وكانت الدراسة لاتزال تدور حول محور
العلوم الآلية واللسانية والدينية ، ماعدا طبقة من بعض أعيان المسلمين ،
زاولوا الوظائف ، فكانوا يتخرجون من مدارس الآستانة العالية ، فينشئون
وكأنهم ليسوا من صميم الشعب ، يضاف إليهم بعض أبناء الأسر من مسلمين
ومسيحيين ، تخرجوا في المدارس بلبنان ، ومنهم جبرائيل دلال الحلبي
(ت ١٨٩٩) ، وعزت باشا العابد ، ومصطفى باشا العابد (ت ١٩٢٥) ، فقد
تخرجوا في يسوعية عنطورا ؛ ورزق الله حسون الحلبي (ت ١٨٨٠) ،
تفقه في دير بزار الأرمني . وبينما هم على هذا الحال إذا بنفهر من المصلحين
يتقدمهم الشيخ طاهر الجزائري (ت ١٩٢٠) ينهضون لخدمة نشر العلم ،
فسعوا لإنشاء المدارس الابتدائية والحكومية ، للذكور وللإناث ، واشترك
الشيخ طاهر في تأسيس ثانوية دمشق ، وجدد في هذه المدينة دار الكتب
الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية بالقدس ، وألف الكتب المدرسية .
وكان إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ بمثابة نقطة انطلاق لنشاط
عام ، أدى في الساحل والداخل إلى إقبال على المعارف لاعهد لليهود به ،
إقبال صاحب الوعي القومي حتى آخر عهد العثمانيين ، واستمد منه القوة ،
ثم استمر هذا النشاط الأدبي يتمشى جنبا إلى جنب مع الجهاد للاستقلال ،
خلال الانتداب الفرنسي ، مندفعاً إلى الأمام بحيوية جبارة ، انبثقت عن
الاستقلال القصير ، الذي تمتعت به سورية في عهد الملك فيصل الأول .
هذا ، ولما أعلن الدستور العثماني ، صدرت في سورية الصحف السياسية ،
والمجلات العلمية ، وبدى بإيفاد بعوث الطلبة إلى أوربة ، وأنشئت
في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية حكومية ، تعلم العلوم بالعربية ، إلى جانب
المدارس الثانوية ، التي استمرت تعلم باللغة التركية . ولكن هذا العهد الحر لم
يكن طويل الأمد ، لأن الاتحاديين الذين استبدوا بالسلطنة بعد الدستور ، لم

يلبثوا أن عمدوا إلى سياسة تترك العناصر ، فكهوا الآفواه ، وضيقوا على الحريات ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى بويلاتها ، وكان جمال باشا خلالها كسيف ديموقليس ، مسلطا فوق رأس كل مفكر . فوقفت من جراء ذلك عجلة الثقافة ، في بلاد عانت من مصائب هذه الحرب مالم يعانه قطر آخر - ولا سيما لبنان - ولا بدع في ذلك ، فقد كنا خلالها ، ندفن الأوراق تحت الأرض ، أو نحرقها ونمزق الكتب ، خشية أن يكون فيها ما يديننا أمام المحكمة العالية العسكرية .

م - تطور العراق الثقافي :

العراق ذلك القطر الشقيق الذي احتضن حضارة العباسيين الزاهرة ، انقلب من بعدهم إلى بلاد أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة ، فقد زهد فيه أهله من جراء توالى الفتن ، فهجروه ، واستحكمت الأمية بين المتخلفين منهم ، فغمرت الرافدين موجة من الجهل ، لها أول وليس لها آخر .

غير أن هذه الظلمات التي شملت العراق خلال الحكم العثماني ، كانت تخترقها أشعة أنوار من العلم ، تصدر عن جانب المقامات المقدسة ، ذلك أن مدارس النجف الأشرف ، والكاظمية ، وكر بلاه ، والحلة ، وسامرا ، كانت لا تبرح عامرة بعشرات الألوف من طلبة العلم والدين ، وكان هؤلاء يتلقون مع دروس الفقه والتشريع ، دروسا في اللغة العربية وآدابها والتاريخ وغيرها ، فيضيثون بمعارفهم سبل ذلك العهد الأسود ؛ يرافقهم زملاء لهم تخرجوا في بغداد والموصل ، في المعاهد الدينية الأخرى ، وأتقنوا أيضا الآداب العربية .

وقد أشاد بعض المؤرخين بالازدهار الذي أصاب البصرة إبان حكم علي باشا إفراسياب ، منذ سنة ١٦٢٤ م ، وبالغوا حتى شبهوا ذلك العهد بأيام هارون الرشيد . كما أنهم أشاروا إلى ظواهر تقدم على برزت

في بغداد منذ صدر القرن الثامن عشر ، وذلك إبان حكم داود باشا آخر المماليك .

هذا ، ولما استتب الأمر للسلطان محمود الثاني (١٨٠٩ - ١٨٨٩ م) بعد الفتك بالإنكشارية ، وأنشأ المدارس العالية في العاصمة ، كما ذكرنا في البحث السابق ، حجب إلى بعض الأسر العراقية إيفاد أبنائهم إلى تلك المعاهد ، تأهباً لخدمة الدولة ، في الوظائف العسكرية والمدنية . ثم عمد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١ م) إلى نشر المعارف في أمهات الولايات ، فأُنشئت في العراق المدارس المعروفة بالرشدية والإعدادية والعسكرية ، وبرغم أن الغاية من تلك المدارس كانت تخريج طبقة من الضباط والموظفين ، وبرغم أنها كانت تحرص على نشر اللغة التركية دون العربية ، حتى إنها تمنع التكلم باللغة العربية بين جدران المدرسة ، كونت طبقة من الشبان مثقفة ، كانوا إلى جانب خريجي المعاهد الدينية أهل الفكر والرأى في بلاد الرافدين .

وقد أنجبت الموصل في تلك الحقبة كثيراً من الأدباء والعلماء ، نذكر منهم ابن الصباغ (ت ١٨٥٤) ، وعبد الباقي العمري (ت ١٨٦٢) ، وعبد الغفار الأخرس (ت ١٨٧٣) ، وهو أشهرهم ؛ كما أنجبت بغداد المؤرخ شهاب الدين الألوسي (ت ١٨٥٤ م) وغيره .

ثم رأت ولاية بغداد في أيام مدحت باشا ، واليها منذ سنة ١٨٦٩ ، عهداً مليئاً بالنشاط ، ليس في صعيد المعارف فحسب ، بل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية كذلك . ذلك أن هذا الوالي عرف كيف يستثمر عطف السلطان عبد العزيز على الإصلاح ، فضى في هذه السبيل إلى الأمام ، ونشر المدارس الابتدائية في الأقضية العراقية ، وأنشأ مدرسة ثانوية في بغداد ، وفتح مطبعة كانت تصدر جريدة رسمية ، أسماها الزوراء .

ولكن هذه المدارس كانت تنشئ طلاباً أتراكا في اللسان ، أتراكا في الاتجاه ، بعدوا عن قومهم بعدا كثيرا ، في المستوى الاجتماعي ، وفي الشعور القومي . وقد توخت دائرة المعارف الإنكليزية التي صدرت أواخر الحكم العثماني الإشارة إلى هذا ، حيث قالت في الكلام عن العراق : «تقدر المسافة التي تقدمتها سورية عليها بالنسبة للعراق ، بنحو نصف قرن ، وربما كان مصدر ذلك ، الوعي القومي البارز في بلاد الشام . أما العراقيون فما كانوا يابهون للقومية قط ، بل كانوا قليلي المبالاة باستعمال اللغة العربية في أعمال الحكومة ، على رغم أن تركية اضطرت من جراء ثورات اليمن المتعاقبة ، إلى التصريح بأن اللغة العربية هي لغة رسمية . غير أن العراق وإن شهد بعد مدحت باشا حقبة رجعية في المعارف ، سببها إهمال الحكومة ، كان له بعض العوض وقتشد بالمدارس الكثيرة ، التي افتتحتها الإرساليات الدينية الأوربية ، التي تسربت إليه منذ القرن التاسع عشر ، بطريق خليج فارس ، فأنشأت في أمهات المدن المدارس على اختلاف درجاتها ، ووجهت التعليم هناك توجيها حديثا ، ساعد على بث الشعور القومي . أضف إلى ذلك أن هذا التدخل الأجنبي كان حافزا للمدارس الدينية القديمة ، على الأخذ بطرق الإصلاح ، كما أنه كان حافزا للأهلين ، على إنشاء بعض المدارس على النسق الحديث .

وقد حفلت بلاد الرافدين في ذلك الوقت بنخبة من العلماء والأدباء ، نذكر منهم محمد سعيد الجبوبي ، والشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وجميل صدقي الزهاوي ، ومحمود شكرى الألوسي .

ودخل العراق فجأة في مرحلة من مراحل النهضة ، حينما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . وما كان مرد ذلك إلى انتشار الصحافة ، وتأسيس الأندية والأحزاب والجمعيات وافتتاح المدارس فحسب ، بل كان النقاش بين العرب والترك في صدد الحقوق والواجبات ، ذلك النقاش الذي بدأ

في المجلس النيابي بالاستانة ، ثم انتقل إلى الأوساط الشعبية في الأمصار العربية - كان مثارا للإقبال على الصحف والمدارس على السواء ، فارتقت لغة الكتابة ، وتكاثر عدد المجددين في الشعر ، فليح نجم معروف الرصافي ، ومحمد رضا الشيبلي ، والدكتور محمد مهدي البصير ، ومحمد باقر الشيبلي ، وأحمد الصافي .

غير أن هذا الازدهار الوقتي لم يكن يقوم في الواقع على أسس ثابتة ، ذلك أن العراق على اتساع أطرافه ، كان لا يزال حافلا بالأمية . وقد قدر مستر لونكر ك نسبة المتعلمين في مدن العراق سنة ١٨٥٠ بنصف في المئة فقط ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إن هذه النسبة لم تبلغ سنة ١٩٠٠ أكثر من خمسة إلى عشرة في المئة » .

ولعمري إن بلادا ما كانت يوجد فيها أكثر من عشرة في المئة من المتعلمين ، كانت بلادا لا تبرح تعتبر متأخرة ، وخصوصا إذا علمنا أن إحصاء الحكومة الرسمي لعام ١٩١٣ يعلن أنه لم يكن في العراق لغاية تلك السنة أوفر من مائة وستين مدرسة ، لا يتجاوز عدد طلابها ستة آلاف تلميذ !... ومع ذلك ، إن الحرب العالمية الأولى ، لم تبق على هذا العدد الضئيل من المدارس ، بل أقفلت ، وأفل معها حظ آل عثمان في بلاد الرافدين .

ن — تطور جزيرة العرب ثقافيا في عهد آل عثمان :

درست معالم العمران ، في مهد عدنان وقحطان ، قبيل دخوله في حوزة آل عثمان ، فتضاءل العلم فيه ، وأصبح مقصورا على العلوم الدينية ، والآداب العربية ، وهو إلى ذلك محدود المدى ، غريب في بيئات تغلب عليها الأمية .

وكان طلبة العلم في نجد واليمن والحجاز وغيرها ، إذا أرادوا أن يتفقهوا في الدين ، وأن يتضلّعوا في الآداب ، زيادة على ما عندهم ، أموا أزهـر مصر ،

وقضوا فيه السنين الطوال . ثم متى عادوا إلى أوطانهم تطلع إليهم الشعب ، بتقدير أشد مما يتطلع الناس اليوم إلى العائدين من جامعات أوربة وأميركا ، الحاملين شهادات الدكتوراة وسائر الدرجات العالية . واستنادا إلى هذه الثقة العظيمة ، التي كان يتمتع بها طلاب الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية عند أبناء جزيرة العرب ، كان هؤلاء المغتربون في سبيل طلب العلم ، أكثر حولا من سواهم في صدد القيام بالإصلاح ، وفي الانقلابات السياسية . من ذلك أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذي ينسب إليه المذهب الوهابي في نجد ، كان قد طلب العلم في بغداد والبصرة ؛ كما أن السيد محمد علي الإدريسي ، منشىء حكومة الأدارسة في عسير اليمن ، كان خريج الأزهر .

وقد نوهت دائرة معارف البستاني بأسماء ثلاثة من العلماء الأعلام ، كانوا ينتسبون إلى الحجاز ، اشتهروا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهم القاضي إسماعيل بن عبد الحق ، والشاعر عبد الحق بن محمد ، والمؤلف الواعظ القلقشندي . وكان من مشاهير علماء اليمن في أواخر القرن التاسع عشر ، السيد محمد مرتضى الزبيدي اليمني (ت ١٢٠٥ هـ = ١٧٩٠) . هذا ، ولما صح عزم السلطنة العثمانية على إنشاء المدارس الحكومية في الولايات ، كما أسلفنا ، أصاب الحجاز ، ولاسيما مكة والمدينة ، شيء من هذا الحظ ؛ فقامت فيه المدارس الابتدائية والثانوية والعسكرية ، ومدرسة دار الفنون في المدينة ؛ فكانت هذه المدارس مصدرا لانتشار بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، فضلا عن بعض اللغات ، ولاسيما التركية والفارسية . وشاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ، عملا بسياسته الإسلامية ، تقريب جزيرة العرب إليه ، ففتح أبواب مدرسة العشائر في الآستانة لأولادهم ، فدخلها نفر منهم من أبناء الخاصة ، ولكنهم قلما أفادوا بلادهم .

وقد زار الشيخ محمد بيرم التونسي (ت ١٨٨٩) الحجاز ، فوصف في كتابه « مستودع الأخبار » ركود المعارف في تلك البلاد ، وانتشار الأمية ، ثم قال : « وفي هاته المدة الأخيرة أنشأ بعض الهنود بوساطة الشيخ رحمه الله ، مؤلف كتاب « إظهار الحق » ، مدرسة بمكة المشرفة ، يقرأ بها الشيخ رحمه الله المذكور ومن معه من العلماء المجاورين ، بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب ، وبعض علوم أخرى رياضية ، وعلم التصوف » . وخلص الشيخ محمد بيرم من ذلك إلى التنويه بالطريقة السنوسية هناك ، وبما كان لانتشارها بين القبائل من الأثر البالغ في صلاح حالهم ، في الناحيتين الدينية والأخلاقية . هذا ، واشتهر في تلك الحقبة المؤرخ أحمد زيني دحلان (ت ١٨٨٦) ، وهو من أهالي مكة .

وفي سنة ١٩٠٨ قام الحاج محمد زيني رضا ، وهو من أثرياء الحجاز ، بتأسيس مدرسة نظامية في جدة ، خدمة لأبناء وطنه ، ولكن هؤلاء الناس كانوا على تأخر بلغ منه أنه كان حافوا لهم على انتقاد هذا المحسن ، زاعمين أنه ينفق الأموال فيما لا يفيد .

بيد أنه لم يحفل بمحاملتهم عليه ، بل ظل ثابتاً على مشروعه ، حتى أصبح قريب النجاح ؛ ولما انتشر خبره في جزيرة العرب ، اقتدى به أهل الكويت سنة ١٩١٣ ، والبحرين وسواهما من سواحل الجزيرة .

وأما في اليمن الخضراء ، فإن المدارس من ملكية وعسكرية انتشرت ، أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، في جميع الألوية ، وكانت الملكية على ثلاثة أقسام : ابتدائية ، ورشدية ، وإعدادية ، ومدة الدراسة في الابتدائية ثلاث سنين ، وموادها الأمور الدينية ، والخط ، والحساب . وهي تدرس بالعربية ؛ وكذلك مدة الدراسة في الرشدية ثلاث سنين ، وتشمل الهندسة والتاريخ والجغرافيا والطبيعات . وأما الرشدية فمدتها سنتان ، وفيها شيء من العلوم العالية ، واللغات التركية والفارسية ، بالإضافة إلى العربية . وكانت لغة

التعليم ، في الرشدية والإعدادية ، كما في العسكرية ، اللغة التركية . والناجحون من خريجي هذه المدارس كانوا يوفدون إلى العاصمة ، لاستكمال علومهم . ولا يزال ، حتى الآن ، في اليمن كثيرون من خريجي هذه المدارس ، في وظائف حكومة صنعاء العسكرية والمدنية ، ولا سيما الدوائر المالية ، وهم يتكلمون التركية بسهولة .

س — التطور الثقافي في المغرب :

نشأت السلطنة العثمانية في مطلع القرن الرابع عشر حين كانت وفود المهاجرين من مسلي الأندلس ، أخذت تنزل في الشمال الأفريقي منذ جيل سابق ، فرارا من ظلم الأسبان ؛ وبينهم طبقة من العلماء والصناع والزراع . وقد كسب المغرب بهم ، ولا سيما سبتة وبجاية وتلمسان ، كسبا موفورا ؛ وكما أنجبت سبتة الشريف الإدريسي العالم الجغرافي ، نعمت فاس بلسان الدين بن الخطيب ، الوزير الغرناطي صاحب المصنفات (ت ١٣٧٤ م) . ولما سقطت غرناطة (٥٨٩٧ = ١٤٩٢ م) وهي المعقل الأخير للمسلمين في الأندلس ، أخذ هؤلاء ينتشرون في عدوة المغرب وما بعدها ، مدة قرن وربع قرن ، حتى إذا أصدرت أسبانيا ذلك الأمر الشاذ ، الذي خيرت فيه المتخلفين في بلادها من المسلمين بين التنصر والجلاء (٥١٠١٨ = ١٦١٠ م) أصبحت الهجرة تكاد تكون عامة .

— وإلى أين يذهبون ؟ ..

إنهم لم ينتشروا في شمالي إفريقية ومصر فحسب ، بل ساقط بعضهم الأقدار إلى تركية وبلاد الشام .

وكانت تونس قد أصبحت محط الأنظار منذ أن قامت فيها دولة بني حفص أواخر القرن العاشر . وقد التف حول عاھلها أبي زكريا الأول (١٢٢٨ — ١٢٤٩ م) العلماء والشعراء ، فأما اللاجئون وفيهم أهل العلم ،

وفيه أصحاب الصنائع ، وكان من نتيجة ذلك ، أنه برغم ما أصاب تونس بعد من اضطراب في الناحية السياسية وفوضى الأحكام ، ظلت تتمتع بالازدهار في الناحية الأدبية . وقد أشار إلى ذلك أرثور بليكرين بقوله : « إن الذين خلفوا المولى أبي فارس على العرش ، وشهدوا ذلك العهد المضطرب ، كانوا هم أنفسهم فنانيين وأدباء » .

ولكن ابن خلدون يذهب في مقدمته التي كتبت أواخر القرن الرابع عشر ، مذهبا آخر ، فيشكو من حال المسلمين سواء أكانوا في الأندلس أم في عدوة المغرب .

ولقد وصف هذا المؤرخ معاصريه الأندلسيين ، الذين عاصروا أواخر أيام بني الأحمر ، بقوله : « وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فاحفظ بحفظه ، وأما الفقه بينهم فرسم خلو ، وأثر بعد عين ، وأما العقلیات فلا أثر ولا عين ، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران ، وتغلب العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعاشهم أكثر من شغلهم بما بعدها » .

ثم لما تطرق ابن خلدون لأهل المغرب قال : « فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانها ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها ، كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ؛ وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم ، لا امتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش » .

وبعد، فكيف نوفق بين قول ابن خلدون الذى ينتقص أحوال المسلمين بالمغرب علميا وفنيا فى عهده ، وبين أقوال بعض مؤرخى الإفرنج الذين ينوهون بشيء من الازدهار الأدبى، كان لا يزال يتمتع به أولئك المسلمون، فى العهد الذى نشأت فيه السلطنة العثمانية ؟

الجواب عن ذلك أن ابن خلدون كان يقارن بين ذلك العهد المضطرب، وبين ما يعرفه من ازدهار العلم والفن فى عصر المسلمين الذهبى ، فيشكو من الانحطاط ؛ على حين أن مؤرخى الفرنجة كانوا يلقون عند مسلمى تلك الحقبة تراثا من حضارة لا يزال براقا ، بالنسبة لما كانت عليه أوربة وقتئذ من الظلمة .

هذا فضلا عن أن الشمال الأفريقى قد أصاب حظا من الازدهار الأدبى بمصر، من جراء انتشار مهاجرى الأندلس فى أرجائه، كما قدمنا . وإذا كان ذلك الازدهار سحابة صيف، فلعل ابن خلدون لم يأخذه بعين الاعتبار.

ع - مراكش :

الواقع أن العلوم الدينية كانت لا تزال تحتفظ بمكانتها فى جميع إفريقية الشمالية ، وأما فى مراكش فقد كنت لاتجد بلدة فيها خالية من الدروس الدينية ، ومن علماء الفقه ، وأدباء يحفظون الدواوين الشعرية ، والمقامات الحزبية .

وكانت جامعة مسجد القرويين بفاس ، هى المرجع لمن أراد التوسع فى العلوم الدينية واللسانية وغيرها ، يؤمونها من كل صوب ، مثلما يؤمون الأزهر فى مصر ، وجامعة مسجد الزيتونة فى تونس الخضراء . وكانت الطبابة والرياضيات تدرس فى هذه الجامعة فى عهد ازدهارها ، إلا أنها سبقت الدروس الأخرى إلى الاضمحلال خلال القرن التاسع عشر ، ثم لم يبق منها إلا دروس التوقيت .

وبلغ اهتمام المراكشيين بالتفقه في الدين ، حدا جعل التقاليد المرعية توجب على الأسرة المالكة التضلع في الشؤون الإسلامية ، فضلا عن غيرهم من المتأهين المناصب الكبرى .

هذا إلى أن المراكشيين احتفظوا أيضا بالإنشاء وصحته ، أشار إلى ذلك الشيخ محمد بيرم التونسي (ت ١٨٨٩) في كتابه « صفوة الاعتبار » حيث قال : « ولعمري إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية ، كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش . وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتاباتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي » .

وأراد السلطان مولاي حسن أن يتشبه ، أواخر القرن التاسع عشر ، بمحمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية في أوائل ذلك القرن ، فساقه اهتمامه هذا لتنظيم الجيش ، وإنشاء بعض المدارس ، وإرسال البعث العلمية إلى فرنسا وألمانيا ، في سبيل طلب العلوم الرياضية والحربية ، وكان بعض تلك المدارس لا يقتصر على العلوم الدينية والأدبية ، وإنما يتعداها إلى تدريس الطب والصيدلة والطبيعات والعلوم الرياضية ؛ كما أن جمعية الأليانس الإسرائيلية فتحت وقتئذ بعض المدارس في المملكة المراكشية ؛ ومن اشتهر في ذلك العهد المؤرخ أحمد الناصري السلاوي المتوفى سنة ١٨٩٧ .

وهم كذلك فإذا بالاستعمار الفرنسي يسطر جناحيه على البلاد ، ويعتمد في التعليم والتربية على السياسة الاستعمارية ، التي جرى عليها من قبل في الجزائر وتونس ؛ ومن المعلوم أن هدف هذه السياسة إنما هو المحافظة على الأمة والجهل ، احتفاظا بالسيطرة المؤبدة على شعوب المغرب العربي . وقد صرح بعض المسئولين الفرنسيين في مراكش ، بأن لا فائدة البتة من تعليم العرب ، كما أن المرشال ليوتي الذي كان مقما عاما قال :

(١) يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية .

(٢) إنه ليست لنا أية فائدة من تدريس اللغة العربية ؛ ويجب أن تهدف سياستنا إلى إبعاد القبائل العربية عن تعلم أبنائها اللغة العربية، التي لن نجنى من وراءها خيرا .

وعلى ضوء هذه المبادئ، فسحت حكومة الاحتلال المجال للإرساليات الدينية ، وأجزلت العطاء لها ، ووضعت العراقيل في وجه مدرسي العلوم الإسلامية والعربية ، وضيقّت على الفقهاء ورجال الطرق ، وهم في أواسط إفريقية الشمالية المدرسون والمربون الذين كان لهم الفضل الكثير في الحد من جهل القبائل .

وأما المدارس الحكومية التي فتحتها الإدارة الفرنسية ، فكانت جد قليلة؛ ذكر أندره ليختنبرجر A. Leichtenberger أن عددها سنة ١٩١٢ كان يبلغ ٣٧ مدرسة فقط ، فيها ثلاثة آلاف تلميذ ، ثم ازداد عددها فأصبح سنة ١٩١٧ يبلغ ١٨٠ مدرسة ، فيها عشرون ألف تلميذ فحسب . ومع ذلك لم يكن بين هؤلاء التلاميذ إلا عدد قليل من المسلمين ، لأن صلابة هؤلاء القومية والدينية ، كانت تحول بينهم وبين الإقبال على مدارس الاستعمار ، وهي تحارب دينهم وقوميتهم .

ف — تونس :

كان جامع الزيتونة بتونس ، الذي يرجع تأسيسه إلى القرن السابع الميلادي ، كجامع الأزهر بمصر ، المورد العذب لطلاب العلوم الدينية ، والآداب العربية في المغرب ، حتى إذا تبعت إيالة تونس تركية ، وتوالى تعيين قضاتها من الآستانة ، وبعض الموظفين من خريجي المدارس العليا في العاصمة ، كان هؤلاء مصدرا لنهضة علمية جديدة في البلاد التونسية ، خرجت عن نطاق رجال الدين ، إلى أوساط الطبقات العليا الشعبية . ثم غمرت الشرق الإسلامي موجة من اليقظة ، أصبحت ظاهرة للعيان منذ أواسط القرن

التاسع عشر . بدأت في مصر ، ثم امتدت ، فشملت سائر الأمصار ، وفي جملتها تونس ، وقد صاحبها تطوع عام إلى التجديد ، ورغبة في الإصلاحات المدنية الحديثة ، ولا سيما في الناحية الثقافية .

وترجع هذه الیقظة إلى عهد الحملة النابليونية على وادی النيل ، وما أعقبها من تجديد قامت به الأسرة العلوية ، على أساس المشروعات والتصميمات التي وضعتها تلك الحملة .

لذلك ، لم تعد تونس تستسيغ الوقوف عند حد الإصلاح الذي أدخلته وقتئذ على منهج التعليم في الجامعة الزيتونية ، بل خفت إلى إنشاء المدارس الحديثة ، وعلى رأسها المدرسة الصادقية ، التي كانت تدرس اللغات الأجنبية مع اللغة العربية ، وأخذت ترسل البعثات إلى البلاد الأوروبية ، للتخصص في جامعاتها ، حين قامت دور الطباعة فيها لنشر الكتب والصحف . وقد نوه الشيخ محمد يرم التونسي المشار إليه ، في أثناء كلامه عن المعارف في وطنه ، بجامعة الزيتونة والقيروان ، وبمدارس السيد أبي زمعة الأنصاري ، في جوار ضريحه ، وأشار إلى وجود مدارس قليلة في عصره ، وكتاتيب لأهل البلاد ، ومدارس غيرها للأجانب ، ذاكرة أن المدرسة الصادقية التابعة للحكومة ، كان يدرس فيها العلوم العقلية والرياضية ، فضلا عن بعض دروس كانت تلقى في المساجد ، وفي بعض زوايا الصالحين بين القبائل .

هذا ؛ وقد اشتهر في تلك الحقبة الشاعر الكبير محود قبادو (ت ١٨٦٨ م) ، والشاعر الأديب سليمان الحرائري (ت ١٨٧٠) يعاصرهما الشيخ محمد يرم (ت ١٨٨٩) وخير الدين باشا (ت ١٨٩٠) .

وخلال ذلك احتل الفرنسيون تونس (١٨٨١) ، وكان دأبهم محاربة اللغة العربية ، لإحلال لغة فيكتور هيكو محلها ، لقطع صلة تونس بماضيها . وفي سنة ١٨٨٣ أسست حكومة الاحتلال « إدارة العلوم والمعارف » ، ووضعت برنامجا لإنشاء مدارس ابتدائية فرنسية ، على غرار مدارس فرنسا

يؤمها الأطفال ، سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات الأجنبية ، لينشئوا
نشأة فرنسية صرفة .

ولم يكن للغة العربية أى حظ في هذه المدارس . ولكن العرب لم
يسكتوا عنها ، وقاطعوها ، إلى أن أجبروا السلطة الفرنسية على إدخال اللغة
العربية في المدارس الابتدائية المعدة للعرب وحدهم ، وكانت تسمى
« المدارس العربية الفرنسية » . ومع ذلك اعتبرت السلطة لغة البلاد من
المواد الاختيارية في الامتحانات ، قصد إهمالها ، وعملت بذلك على صرف
الطلبة عنها ، إلى الاهتمام باللغة الفرنسية فقط ، قصد النجاح في تلك الامتحانات ،
والحصول على الشهادات المدرسية .

وأما التعليم الثانوى فظل يقتصر على المدرسة الصادقية . وكانت المدارس
الخصوصية تلاقى مقاومة من قبل الإدارة الفرنسية ، ولم تكن هذه الإدارة
تمنح الرخص لطالبي إنشائها إلا بعد صعوبات تخلقها . كل ذلك كان يقع
حين كانت السلطة تنشط المدارس الحكومية ، القائمة على المناهج الفرنسية ،
وتساعد على نشرها للذكور وللإناث ، ابتدائية وثانوية ، كما أنها أقامت دارا
للمعلمين . والواقع أنه كان إقبال الشعب التونسى على هذه المدارس دون
إقبال الجزائريين على أمثالها ، ومع ذلك كانت كل محاولة حاولتها هذه
المؤسسات الفرنسية ، لحط شأن القومية العربية ، كصرخة في واد ، يسمع
ضجيجها ، دون أن يكون لها أثر فعال .

ص — الجزائر :

يصدق على الجزائر إبان الاحتلال العثمانى ما أوردناه عن مراکش
وتونس ، من حيث تضائل التعليم وقتئذ ، واقتصاره على الدروس الدينية
والعربية . ولكن الجزائر منيت بالاحتلال الفرنسى منذ أكثر من قرن
(١٨٣٠ م) ، فأمست فريسة للاستعمار ، الذى استفاد كثيرا من طول الزمن .

فالفرنسيون الذين تعرضوا لدين الجزائريين وللغتهم، باللجوء إلى أساليب تقضى إلى إضعاف كل منها مباشرة، أو غير مباشرة، تمكنوا من فرنسة تلك البلاد العربية أكثر من أى قطر آخر .

وهنا ننقل عن كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » العبارة التالية : « هذا إلى أن المستعمرين كانوا فى الوقت الذى يضيقون فيه على التعليم الوطنى ، يحرون معظم مخصصات المعارف على مدارس المبشرين والفرنسيين ، وفى جملتهم اليهود ظهراء الاستعمار .

» ومن جراء هذه السياسة تأخرت المعارف عقب الاحتلال وذبلت ، بعد أن كانت زاهية زاهرة ، ويستشهد الجزائريون على صحة ذلك بقولهم : إن ٢٢٢ مدرسة كانت موجودة فى مدينة الجزائر وحدها قبل الفرنسيين ، وقد أغلقت بفضل رسالة الحضارة والتدين .

والواقع أننا قد رأينا بأأم العين نماذج من تلك الطبقة التى خلقتها سياسة الاستعمار بالجزائر ، مستعينة بالتربية والتعليم .

رأيناها بعد الحرب العالمية الأولى ، إبان احتلال جيوش الحلفاء ولاية بيروت ، إذ كان بعض أفراد الجيش الجزائرى ، وهم مسلمون ، لا يحسنون الكلام بلغة آبائهم ، وهم إلى ذلك كانوا إذا سمعوا المؤذن يدعو إلى الصلاة بلغة القرآن ، يهزءون بالأذان علنا ، ويرجمون المؤذن بالحصى .

ق — التطور الثقافى فى ولاية طرابلس الغرب :

وربما كان تاريخ هذه الولاية فى صعيد العرفان ، يشبه الشبه الكثير التطور الذى حصل فى تونس ، مع الفارق فى النسبة : ازدهار فى إبان الهجرة الأندلسية لشمال إفريقية ، أعقبه ذبول من جراء استحكام الفوضى ، ثم ازدهار آخر خلال عصر آل القرمنلى الذهبى ، تلاه نهضة موضعية شعبية ، ترجع إلى التماس مع أوربة ، ولكنها نهضة كانت محدودة . هذا إلى أن الإصلاحات

العثمانية التي بدأت منذ السلطان محمود الثاني ، وتحققت أيام السلاطين عبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد ، طوال القرن التاسع عشر ، هذه الإصلاحات لم تلبث أن شملت ولاية طرابلس الغرب ، فأنشأت فيها طبقة شعبية متعلمة . وقامت فيها المدارس الرشدية والإعدادية والعسكرية ، أسوة بسائر الولايات العثمانية ، التي عملت على إنشاء العلوم الطبيعية والرياضية واللغات الأجنبية . وإلى ذلك ظل شمالي أفريقيا محتفظا بالعلوم الدينية ، والآداب العربية ، على وجه عام ، ولانستثنى من ذلك داخلية الجزائر وتونس ومراكش وليبيا . ويرجع الفضل في نشر هذه العلوم ، في الصحراء الكبرى وما حولها ، إلى مؤسسات دينية كانت على تنظيم كثير لا توجد أمثاله في أي قطر آخر ؛ تلك هي الطرق الصوفية ذات الزوايا المنتشرة حتى في أقاصي الواحات . ونخص بالذكر منها الطريقة السنوسية في ولاية طرابلس الغرب ، وهي ذات تنظيم حكيم ، جعل زواياها الكثيرة حافلة بجيوش المريدين ؛ وكانت لهم ولمن جاورهم أفضل معهد للتهديب والتربية . وبما لمشايخ الطرق من النفوذ انشخصى على مريديهم ، ذلك النفوذ الذي لا مثيل له عند سائر المدرسين والمربين في العالم الراقى ، استطاعت الشعوب البدائية المنتشرة في داخلية ليبيا ، وسائر أواسط إفريقيا الإسلامية ، أن تعرف شيئا كثيرا من الآداب الدينية ، وقليلًا من أصول الدين ، فتدثت أخلاقها ، ورقت إلى حدٍّ ما طباعها البدوية .

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	تحية الكتاب ،	٣٩	(ب) سورية الداخلية .
٦	ديباجة الكتاب .	٤٤	(ج) لبنان في عهد الإقطاعي .
٩	تمهيد	٤٥	آل معن .
١٣	الفصل الأول	٤٥	آل عساف .
	تاريخ العالم العربي السياسي	٤٦	آل سيفا .
	في الشرق	٤٧	آل تنوخ .
	مقدمة : كيف تغلب آل عثمان	٤٨	القيسية واليمنية .
١٤	على الأمصار العربية في المشرق	٥٠	آل شهاب .
١٦	١ - مصر خلال الحكم العثماني	٥٢	الجنبلطية واليزبكية .
١٧	(أ) حكومة الباشوات .	٥٣	(د) إيالة صيدا .
١٨	(ب) حكومة الأمراء والماليك .	٥٣	المشاخي الزيدانية .
١٩	(ج) الحملة الفرنسية .	٥٦	أحمد باشا الجزائر .
٢٠	(د) أسرة محمد علي .	٥٩	(هـ) الحكم العلوي المصري
٢٥	(هـ) عهد الاحتلال		في بلاد الشام .
٢٨	٢ - السودان في عهد آل عثمان	٦٠	(و) لبنان ذوالكيان السياسي .
٢٨	(أ) لمحة عامة .	٦١	(ز) الطائفية بلبنان مكان
٣٠	(ب) الأصابع البريطانية .		الحزبية السياسية .
٣١	(ج) ثورة المهدي .	٦٣	(ح) متصرفية لبنان الممتازة .
٣٢	(د) الحكومة المهدية .	٦٥	(ط) لبنان خلال الحرب العالمية .
٣٤	(هـ) الحكم الثنائي .	٦٧	٤ - العراق خلال الحكم العثماني
٣٧	٣ - بلاد الشام في عهد آل عثمان	٦٧	(أ) مراحل تاريخ العراق .
٣٧	(أ) تمهيد	٦٧	العراق في عهد المغول
			والترك والفرس .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٠	(ب) عهد الانتقال .	٩٤	(ب) مراکش خلال الحكم العثماني
٧١	(ج) عصر المماليك .	٩٧	(ج) باشوية إفريقية .
٧٢	(د) عصر التنظيمات العثمانية .	٩٩	(د) الجزائر في عهد آل عثمان .
		١٠١	(هـ) تونس في عهد آل عثمان .
٧٥	الفصل الثاني	١٠٥	(و) طرابلس الغرب في عهد آل عثمان .
	جزيرة العرب في العهد العثماني		
٧٦	تاريخها السياسي	١٠٩	الفصل الرابع
٧٦	(١) خلاصة التطورات السياسية العامة .	١١٠	العرب خلال حكم آل عثمان
٧٧	(ب) الحجاز في حكم آل عثمان .	١١٠	تاريخهم الاقتصادي
٧٩	(ج) اليمن في حكم آل عثمان .		(١) لمحة عن تطور اقتصاديات العرب قبل آل عثمان .
٨٣	(د) حكومة عسير .	١١٤	(ب) التجارة في مصر .
٨٣	(هـ) آل الرشيد في حكم آل عثمان .	١١٨	(ج) التجارة في السودان .
٨٥	(و) آل سعود في حكم آل عثمان .	١١٩	(د) التجارة في بلاد الشام .
٨٧	(ز) استعادة تركية جزيرة العرب واضمحلال السعوديين .	١٢٨	(هـ) التجارة في العراق .
٨٧	(ح) الإمارة السعودية الثانية .	١٣١	(و) التجارة في جزيرة العرب .
٨٨	(ط) الإمارات السعودية الثالثة .	١٣٣	(ز) التجارة في المغرب .
٨٩	(ي) سواحل الجزيرة في حكم آل عثمان .	١٣٤	(ح) مراکش .
		١٣٦	(ط) الجزائر .
		١٣٨	(ي) تونس .
		١٤١	(ك) ليبيا .
٩٣	الفصل الثالث	١٤٣	الفصل الخامس
	تاريخ العرب السياسي في المغرب	١٤٤	الزراعة في بلاد العرب
	خلال عهد آل عثمان		في عهد آل عثمان
٩٤	(١) تغلب آل عثمان على شمالي إفريقيا .	١٤٤	(١) التطور الزراعي ونظامه الحكومي .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٧	(ب) الزراعة في مصر .	١٨٩	الفصل السابع
١٥٠	(ج) الزراعة في السودان .	١٩٠	تاريخ العرب الثقافي في عهد آل عثمان
١٥٢	(د) الزراعة في بلاد الشام	١٩٠	(١) موقف آل عثمان حيال
	في عهد آل عثمان .		الثقافة بوجه عام .
١٥٦	(هـ) الزراعة في العراق .	١٩٣	(ب) تطور مصر الثقافي في عهد
١٦٠	(و) الزراعة في جزيرة العرب .		آل عثمان .
١٦٢	(ز) الزراعة في المغرب .	٢٠٠	(ج) التطور الثقافي في السودان .
١٦٤	(ح) مراکش .	٢٠١	(د) تطور بلاد الشام الثقافي .
١٦٥	(ط) الجزائر .	٢٠٢	(هـ) العوامل الدينية .
١٦٦	(ي) تونس .	٢٠٤	(و) العوامل الثقافية .
١٦٧	(ك) ليبيا .	٢٠٥	(ز) العوامل السياسية .
١٦٩	الفصل السادس	٢٠٨	(ح) العوامل الاقتصادية .
١٧٠	الصناعة ببلاد العرب في عهد	٢١٠	(ط) عهد رجال الدين لغاية
	آل عثمان		القرن الثامن عشر .
١٧٠	(١) الصناعات في ديار العرب	٢١٢	(ي) الإرساليات الأجنبية وانتشار
	على وجه عام .		الثقافة بين الشعب .
١٧٢	(ب) الصناعة في مصر .	٢١٥	(ك) عهد الصحف والمجلات والمطابع
١٧٤	(ج) الصناعة في السودان .	٢١٨	(ل) تبشير النهضة وبواكيرها .
١٧٥	(د) الصناعة في بلاد الشام .	٢٢١	(م) تطور العراق الثقافي .
١٨٠	(هـ) الصناعة في العراق .	٢٢٤	(ن) تطور جزيرة العرب ثقافيا
١٨٢	(و) الصناعة في جزيرة العرب .		في عهد آل عثمان .
١٨٤	(ز) الصناعة في المغرب .	٢٢٧	(س) التطور الثقافي في المغرب .
١٨٥	(ح) مراکش .	٢٢٩	(ع) مراکش .
١٨٧	(ط) الجزائر .	٢٣١	(ف) تونس .
١٨٧	(ي) تونس	٢٣٣	(ص) الجزائر .
١٨٨	(ك) ليبيا .	٢٣٤	(ق) التطور الثقافي في ولاية
			طرابلس الغرب .

تصحيح الأخطاء

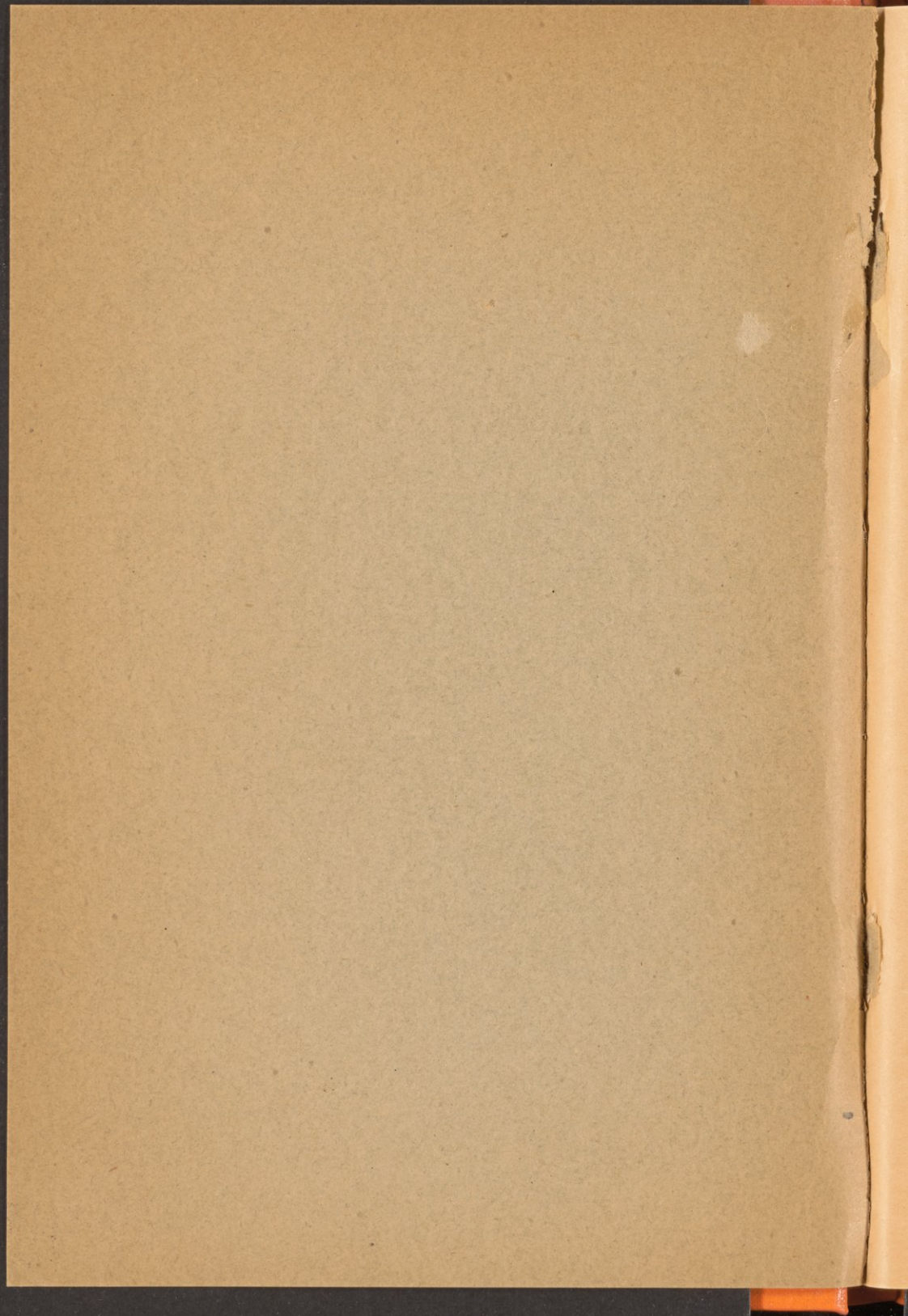
وقعت في أثناء الطبع أخطاء مطبعية ، فنوجه إليها أنظار القراء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	١٧	موندروى	موندرس
٩٧	٥٥	موللى	مدلى
٩٧	١٢	لينبع	ليتبمع
٩٧	٢٣	وانتشرت	وانتشرت
١٠٠	١٨	سبدان	سبدان
١٠٠	٢٠	اختبار	اختيار
١٠١	١٤	الذى	الدين
١٠٢	٢٢	البابات	البابات
١٠٥	٥٤	فيه	فيها .
١٠٧	٥٥	السلطنة	السلطة
١٠٧	٢١	رجال	رجال
١١٢	١٦	الديلات	الدويلات
١١٦	٥٦	على الكبير	محمد على الكبير
١٢٠	١٨	أن يـاعد	وأن يساعد
١٢٢	١٤	Vulney	Volney
١٢٥	١٤	de valuy fonan cesè de la Turquai	de Valey : Essai sur l'histoire financiere de la Turquie
١٢٥	١٧	اكتساب	اكتساب
١٢٧	٥٧	Vayagenen	Voyage en
١٢٨	١٧	وآن	وأنى
١٢٨	٢١	ودلك	وذلك
١٢٩	١٨	عنها	عنه
١٣٣	٢٠	المغول	الغول
١٣٧	٥٦	الفضاء	القضاء

٦٣

الصفحة	المسطر	الخطأ	الصواب
١٣٧	١٣	فليقبل	فيليقبل
١٣٨	٠٤	هوة منقطعة	هدن منقطعة
١٤٢	١٠	طرابلس في الغرب	طرابلس الغرب
١٤٥	٢٠	عهد إليه في تلزيم	عمد إلى تلزيم
١٤٥	٢٤	الحراج	الحراج
١٥٥	١٢	نشاء	إنشاء
١٦٦	١٠	من القانون	من ذلك القانون
١٧١	١٤	الأعاجم الصناع	الأعاجم بتقلهم الصناع
١٧٦	٨	بريك دافن	بريس دافن
١٧٦	٢٢	النشيع	القشيع
١٨١	٢٣	١٩٢١	١٩٢٩
١٨٣	١٠	مركز	مركزا
١٨٦	١٨	تفيد القيرواني	من تقليد القيرواني
١٩١	١١	H ^{se} intellectual	H ^{re} intellectuelle
١٩٦	١	بنص	بعض
٢٠٣	١٧	فنسني	فتسنني
٢٠٧	١٤	Lamem	Lamens
٢٠٧	٢٣, ٢٢	Trancassie	Françaises
٢١٧	١٨	وهم الحاج	إلى الحاج
٢٢٠	١٥	إقبال صاحب الوعي	إلى إقبال على المعارف
		القومي حتى آخر عهد	لا عهد للبلاد به رافقه
		العثمانيين ، واستمد منه	وعى قومي حتى آخر عهد
		القوة	العثمانيين ، كان يمدّه
			بالقوة .
٢٢٠	١٦	لا عهد لليهود به	لا عهد للبلاد به
٢٢١	٠٧	المحكمة العالية	محكمة عالية .

٢٣٠



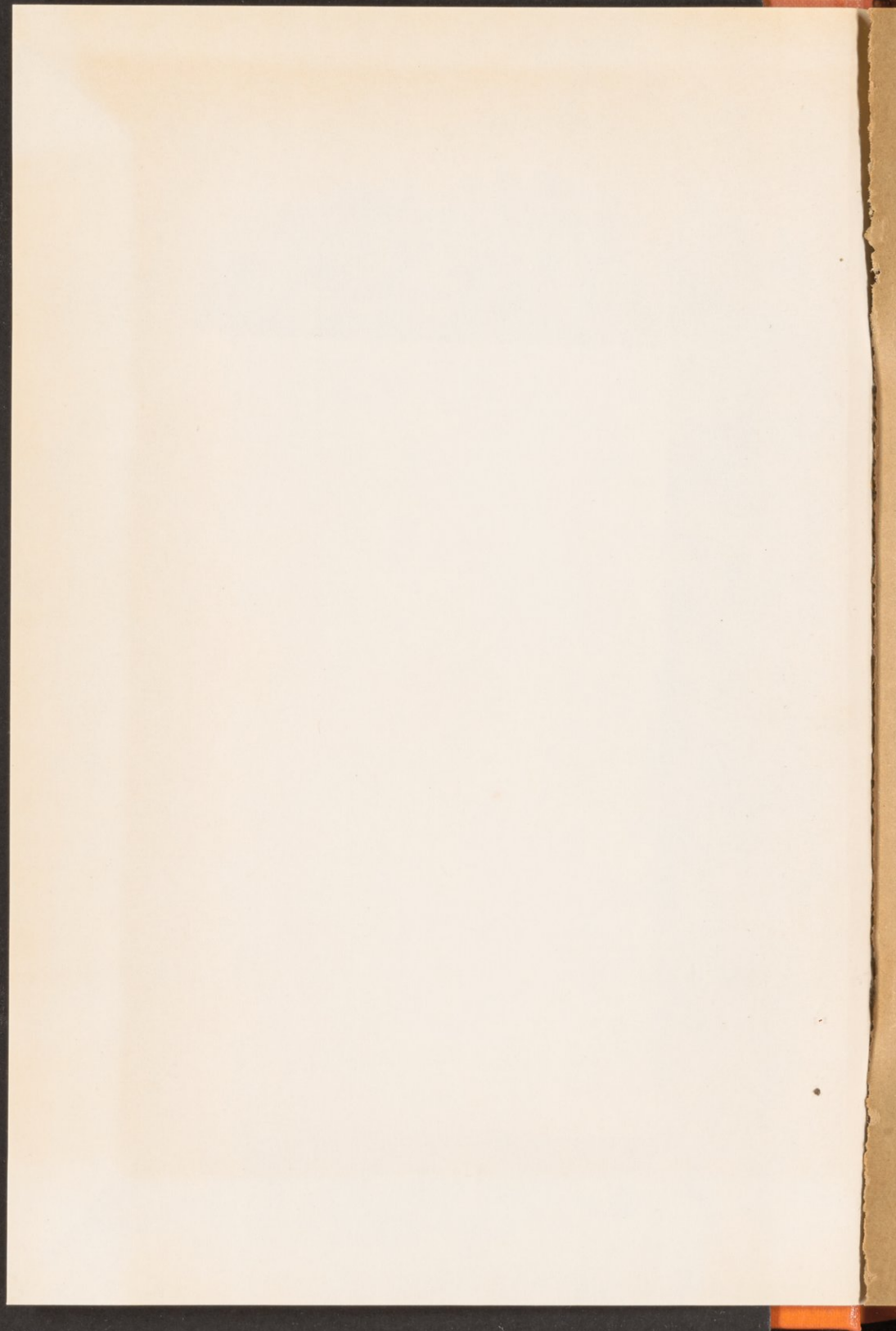
كتب مطبوعة للمؤلف :

- | | | |
|-----|--------|--|
| ٢٧٦ | صفحاته | ١ - المرأة في التاريخ والشرائع |
| ٣٠٤ | » | ٢ - فلسفة التاريخ العثماني |
| ٢٨٠ | » | ٣ - المرأة في التمدن الحديث |
| ٠٨٠ | » | ٤ - أوليات سلاطين تركيا |
| ١٣٧ | » | ٥ - الانتدابات في العراق وسوريا |
| ١٨٢ | » | ٦ - فلسطين أندلس الشرق |
| ٢٣٠ | » | ٧ - قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور (الجزء الأول) |
| ٢٦٤ | » | ٨ - (الجزء الثاني) |

تطلب من :

مكتبة مصطفى البياي الحلبي وأولاده

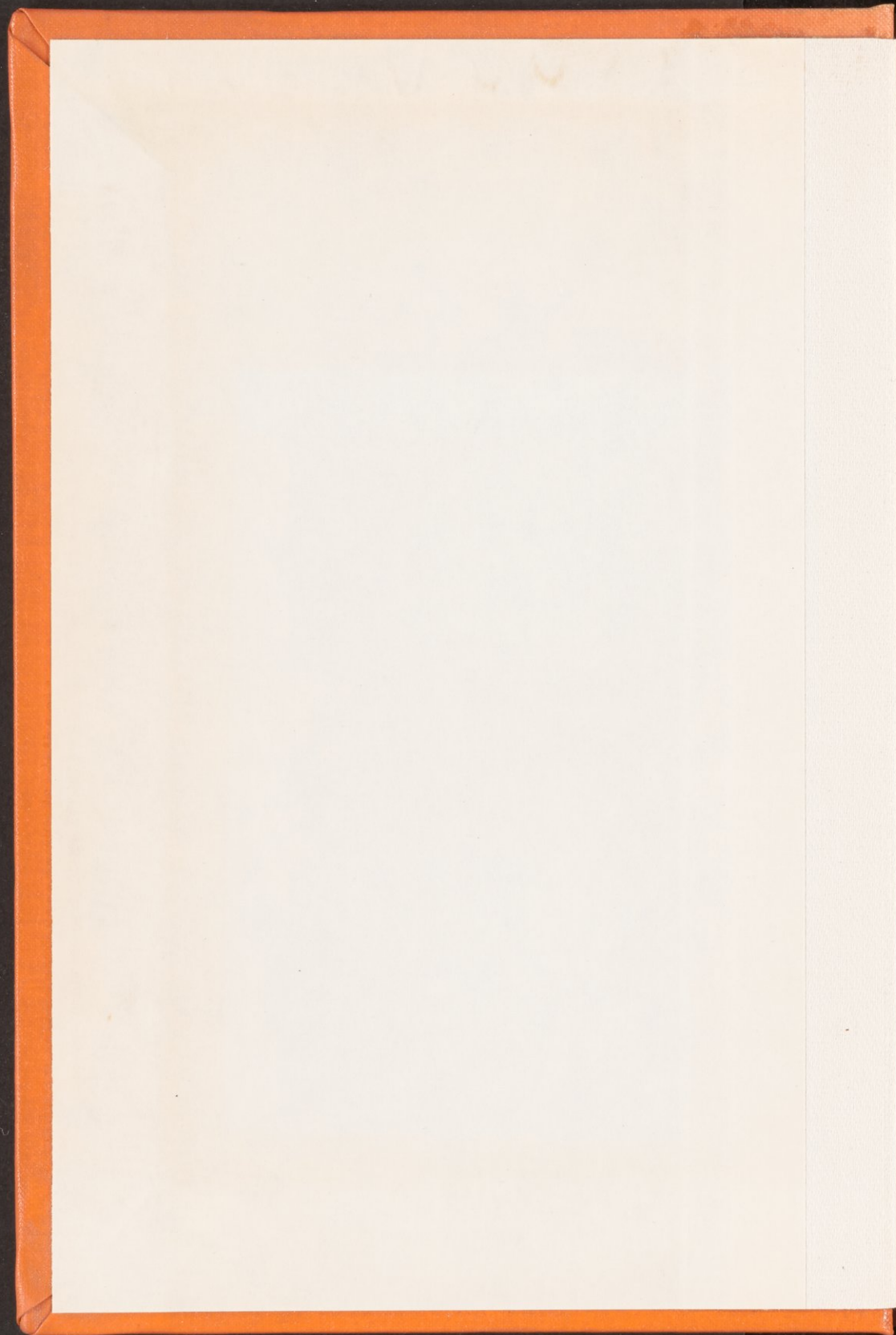
مصر - ص. ب. القوزية ٧١



Date Due

[illegible]

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 02824 5150

DS223.b37

ʿalqah al